اتعاظ الحنفا

أحمد بن علي المقريزي

الجزء الثالث

الفهرس

- **المستعلى بالله**
  - سنة تسعين وأربعمائة
  - سنة إحدى وتسعين وأربعمائة
  - سنة اثنين وتسعين وأربعمائة
  - سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة
  - سنة أربع وتسعين وأربعمائة
  - سنة خمس وتسعين وأربعمائة
- **الآمر بأحكام الله**
  - سنة ست وتسعين وأربعمائة
  - سنة ثمان وتسعين وأربعمائة
  - سنة تسع وتسعين وأربعمائة
  - سنة خمسمائة
  - سنة إحدى وخمسمائة
  - سنة ثلاث وخمسمائة
  - سنة خمس وخمسمائة
  - سنة ست وخمسمائة
  - سنة سبع وخمسمائة
  - سنة عشر وخمسمائة
  - سنة اثنتي عشرة وخمسمائة
  - سنة خمس عشرة وخمسمائة
  - سنة ست عشرة وخمسمائة
  - سنة سبع عشرة وخمسمائة
  - سنة ثمان عشرة وخمسمائة
  - سنة تسع عشرة وخمسمائة
  - سنة عشرين وخمسمائة
  - سنة إحدى وعشرين وخمسمائة
  - سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة
  - سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة
  - سنة أربع وعشرين وخمسمائة
- **الحافظ لدين الله**
  - سنة خمس وعشرين وخمسمائة
  - سنة ست وعشرين وخمسمائة
  - سنة ثمان وعشرين وخمسمائة
  - سنة تسع وعشرين وخمسمائة
  - سنة ثلاثين وخمسمائة
  - سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة
  - سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة
  - سنة خمس وثلاثين وخمسمائة
  - سنة ست وثلاثين وخمسمائة
  - سنة سبع وثلاثين وخمسمائة
  - سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة
  - سنة تسع وثلاثين وخمسمائة
  - سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

- سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة
- سنة أربع وأربعين وخمسمائة
- **الظافر بأمر الله**
  - سنة ثمان وأربعين وخمسمائة
  - سنة تسع وأربعين وخمسمائة
- **الفائز بنصر الله**
  - سنة خمسين وخمسمائة
  - سنة إحدى وخمسين وخمسمائة
  - سنة أربع وخمسين وخمسمائة
  - سنة خمس وخمسين وخمسمائة
- **العاضد لدين الله**
  - سنة سبع وخسمين وخمسمائة
  - سنة ثمان وخمسين وخمسمائة
  - سنة تسع وخمسين وخمسمائة
  - سنة ستين وخمسمائة
  - سنة احدى وستين وخمسمائة
  - سنة أربع وستين وخمسمائة
  - سنة خمس وستين وخمسمائة
  - سنة سبع وستين وخمسمائة
- **نهاية الفاطميين**
  - ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية
  - ذكر ما عيب عليهم

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

المستعلى بالله

أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور ولد في ثامن عشر المحرم وقيل في العشرين من المحرم سنة ثمان وستين وأربعمائة وبويع له في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة حين مات أبوه المستنصر.

وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلى وبعث فأحضر إليه نزاراً وعبد الله وإسماعيل أولاد المستنصر فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلى بالله وبايعوه فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته للخلافة من بعده.

فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم إن والده وعده بالخلافة وقال نزار: إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سناً مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه في خفية إلى الإسكندرية.

فلما أبطأ أرسل الأفضل من يستعجله بالحضور فلم يوجد وفتش عليه في القصر فلم يوقف له على خبر ولا عرف كيف توجه فاضطرب الأفضل لذلك وانزعج انزعاجاً شديداً.

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزاراً لأنه أكبر أولاده وجعل إليه ولاية العهد من بعده فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينة وكان في نفس كل منهما مباينة من الآخر لأمور منها أن نزاراً خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب فصاح به: انزل يا أرمني يا نجس فحقدها الأفضل عليه وظهرت كراهة أحدهما الآخر.

ومنها أن الأفضل كان يعارض نزاراً في أموره أيام حياة أبيه ويرد شفاعاته ويضع من قدره ولا يرفع رأساً لأحد من غلمانه وحاشيته بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر.

فلما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية وخوفهم من نزار وحذرهم من مبايعته وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يخاف منه ويؤمن جانبه فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكي من قرية يقال لها لك برقة فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل فلما اطلع على ما قرره الأفضل من ولاية أبي القاسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك.

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولقب بالمستعلى بالله.

وأصبح في بكرة يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من ذي الحجة فأخرجه إلى الإيوان وأجلسه على سرير الملك وجلس هو على دكة الوزارة وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال والشهود فأخذ البيعة على مقدمي الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل ولدي المستنصر وكانا في مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعةً يحفظونهما فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلى بالله وهو يقرئكما السلام ويقول لكما تبايعاني أم لا فقالا: السمع والطاعة إن الله اختاره علينا ووقفا قائمين على أرجلهما وبايعاه وكتب كتاب البيعة وأخرج فقرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء على عادة الأمراء وجميع أهل الدولة.

وكانت الدعاة عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده فدعا بركات وهو أمين الدعاة لعبد الله المستنصر ونعته بالموفق فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحال.

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكي بنصر الدولة وأن نصر الدولة أفتكين التركي أحد مماليك أمير الجيوش وكان على ولاية الإسكندرية قد بايعة والقاضي ابو عبد الله محمد بن عمار واهل الاسكندرية قد بايعه والقاضي أبو عبد الله محمد بن عمار وأهل الإسكندرية وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله.

فأهم الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفيها توفى أبو عبد الحسين بن سديد الدولة ذي الكفايتين محمد الماسكي وكان ممن وزر للمستنصر في سنة أربع وخمسين فلما صرف عن الوزارة سار إلى مدينة صور من الشام فأقام بها عدة سنين ثم إنه رجع إلى مصر وخدم مشارفا بالإسكندرية بعد الوزارة ثم صرف عن المشارقة.

وكان من أماثل الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء.

ومن شعره:

توصّل إلى ردّ كيد العدوّ ** توصّل ذي الحيلة الحازم

وصانع ببعض الذي حزته ** تعش عيشة الآمن الغانم

ودع ما نعمت به في القديم ** واعمل لذا الزمن القادم

لعلّك تسلم ممّا تخاف ** ولست إخالك بالسالم

وله عدة مصنفات ورسائل.

في آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فسار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين فخرجا إليه في عدة كبيرة وحارباه فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ووصل الأفضل إلى القاهرة وشرع يتجهز ثانياً لمسيره.

ودس إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلي عنه واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من الإقطاعات وغيرها.

وخرج وقد أعد واستعد.

فسار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة فنزل الأفضل عليها وحاصرها ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال ومنع عنها الميرة.

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد الأمر على من بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة يريد بلده لك برقة من أجل رؤيا رآها وهي أنه رأى في منامه كأنه قد ركب فرساً وسار والأفضل يمشي في ركابه فقص هذه الرؤيا على عابر له فطانة وتمكن في علم التعبير فقال له الماشي على الأرض أملك لها من الراكب وهذا يدل على أن الأفضل يملك البلاد.

وكانت الأنفس قد ملت طول الحصار.

فلما فر ابن مصال ضعفت نفس نزار وأفتكين وتخوفا ممن حولهما فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان فأمنهما وتمكن من البلد.

وقبض على نزار وأفتكين وسير بهما إلى مصر فيقال إنه سلم نزاراً لأهل القصر من أصحاب المستعلى وأنه بنى عليه حائط ومات وقيل إنه قتل بالإسكندرية والأول أصح.

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

والاسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنه الخليفة من بعده.

وكان للمستنصر أولاد فروا إلى المغرب منهم محمد وإسماعيل وطاهر وعاد منهم في خلافة الحافظ واحد إلى مصر ولا عقب له.

وأما أفتكين فإنه قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر.

أما ابن مصال فإنه وصل لك ولقيه أهلها وكان قد خرج منها صبياً فقيراً فأقام عندهم أياماً.

واتفق أن رأى عجوزاً عرفته فقالت له: كبرت يا محمود! فقال لها: نعم.

فقالت له: لعلك جئت مع صاحب هذه المراكب.

فقال: أنا صاحبها.

فقالت: ماذا يعمل عدم الرجال.

ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه فلزم داره مدة ثم رضي عنه الأفضل وأكرمه.

وكان الأفضل لما قبض من نزار وتمكن من الإسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن مالأه أو أعانه فقبض على كثير من وجوه البلد منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار واعتقله مدة ثم قتله وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العقد وحظى عنده بنو حارثة وكانوا من عدول البلد لأنهم لم يبايعوا نزاراً ولم يدخلوا في شيء من ذلك وكانوا يهادون الأفضل سراً.

ولى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضي أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد وبالغ في إكرامه وإكرام أهل بيته.

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف في كل يوم وهي متنكرة بالأسواق وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والربط تستعلم خبر ولدها وتعرف من يحبه ومن يبغضه فدخلت يوما إلى مسجد أبي طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحي وقالت له: يا سيدي ولدي في العسكر مع الأفضل الله تعالى يأخذ لي منه الحق ما فعل خيراً وأنا ما أنام خوفاً على ابني ادع الله أن يسلم ولدي.

فقال لها: يا أمة الله أما تستحين تدعين على سلطان الله في أرضه المجاهد عن دين الله تعالى الله ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك ما هو إن شاء الله تعالى إلا منه وهو مؤيد مظفر كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه وأتى على أحسن قضية وأجمل طوية فلا يشغل لك سر فما يكون إلا الخير إن شاء الله.

ثم اجتازت بالفار الصيرفي بالسراجين من القاهرة فوقفت عليه تصرف منه دينارا وكان إسماعيليا متغاليا فقالت له: ولدي مع الأفضل وما أدري ما خبره.

فقال لها: لعن الله المذكور الأرمني الكلب العبد السوء بن العبد السوء مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق كأنك والله يا عجوز برأسه جائزاً من هنا على رمح قدام مولانا نزار ومولاي ناصر الدولة إن شاء الله تعالى والله يلطف بولدك من قال لك تخلينه يمضي مع هذا الكلب المنافق.

ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبي وكان بزازاً بسوق القاهرة تشتري منه شيئا وكان نزاريا فقالت له كقولها للفار الصيرفي فقال لها كما قال أيضا وبالغ في لعن الأفضل وسبه.

فلما أخذ الأفضل نزار وناصر الدولة وفتح الإسكندرية وقدم إلى القاهرة في يوم حدثته أمه الحديث بنصه.

فلما خلع عليه في القصر بين يدي الخليفة المستعلى في يوم وعاد إلى مصر اجتاز بالبزازين وهو بالخلع ونظر إلى ابن بابان الحلبي وقال: أنزلوا هذا.

فنزلوا به فضربت عنقه تحت دكانه ثم قال لعبد علي أحد مقدمي ركابه قف هنا لا يضيع له شيء من دكانه إلى أن يأتي أهله فيتسلموا قماشه.

ثم وصل إلى السراجين فلما تجاوز دكان الفار الصيرفي التفت إلى جهته وقال: انزلوا بهذا.

فنزلوا به فقال: رأسه.

فضربت عنقه وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمي الركاب: احتط على حانوته إلى أن يأتي أهله وتسلموا موجوده وإياك ماله وصندوقه وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه كان لنا خصماً أخذناه وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله ومالنا في ماله ولا في فقر أهله حاجة.

ثم أتى إلي الشيخ أبي طاهر الإطفيحي وقربه وتخصص به وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردد إليه وأجرى الماء إلى مسجده وبنى له فيه حماماً وبستانا وغير ذلك من المباني.

فعظم قدر الإطفيحي به وكثر غشيان الناس مسجده وطار ذكره وشاع خبره وكثرت حاشيته وصار المشار إليه بالديار المصرية حتى مات.

وفيها قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح فقبض عليه واعتقل حتى مات.

وخرج الأمر بجمع الناس إلى بيت النوبة ببغداد فجمعوا في تاسع ربيع الآخر وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان وقرئ توقيع أوله خطبة تشتمل على حمد الله تعالى والثناء عليه وتذكر طاعة الأئمة وفضل العباس وما جاء فيه من الأخبار ثم قال: أما بعد فإنه لم يخل وقت ولا زمان من مارق على الدين وشاع تفرق كلمة المسلمين ليبلوا الله المجاهدين فيهم والصابرين ويصلي أكثر العاكفين نار جهنم التي أعدت للكافرين.

وهذه الطائفة المارقة من الباطنية الملحدين والكفرة المستسلمين انتهكوا المحارم واستحلوا الكبائر وأراقوا الدماء وكذبوا بالذكر وأنكروا الآخرة وجحدوا الحسنات والجزاء وفصلوا أعضاء المسلمين وسملوا أعين الموحدين فكادوا الدين وفقهاءه وأعلنوا بالشرك ونداءه.

ثم رماهم بالفسوق والإهمال والانحلال وقال: شاعرهم يقول: حلّ برقّادة المسيح حلّ بها آدم ونوح سنة تسع وثمانين وأربعمائة: فيها خرج خلف بن ملاعب من عند الأفضل لولاية فامية فسار إليها وتسلمها.

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يجهز إليهم من يلي أمرهم فوقع الإختيار على خلف بن ملاعب وكان قد ولي مدينة حمص وساءت سيرته في أهلها فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان فاعتقله بها إلى أن مات فأطلق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية.

سنة تسعين وأربعمائة

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة.

في سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية وهم بن الهلال بن كاتب عز الدولة ابن منقذ صحبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن صارم الدولة ابن أبي وقدم معهم شرف الدولة الباهلي الشاعر وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالي ثم في نوبة أفتكين وهو يبذل الطاعة في إقامة

الخطبة للإمام المستعلى بالله في بلاد الشام فأجيب بالشكر والثناء وخطب بها للمستعلى بالله في يوم الجمعة سابع عشر رمضان.

وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق.

فاتفق أن الأمير سكمان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك فقطع خطبة المستعلى وأعاد الخطبة لبني العباس فكان مدة الخطبة للمستعلى أربعة أشهر.

وفي ربيع الأول جهز الأفضل عسكرا في عدة وافرة لأخذ صور فسار إليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذت بالسيف فدخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقا كثيرا وقبض على واليها وحمل إلى الأفضل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل.

وفيها كان ابتداء خروج الإفرنج من بلاد القسطنطينية لأخذ بلاد الساحل من أيدي المسلمين فوصلوا إلى مدينة أنطاكية ونازلوها حتى ملكوها.

ومنها دبوا إلى بلاد الساحل.

وفيها تجمع الرعاع والعامة في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة وجهروا بسب الصحابة وهدموا عدة قبور فسير الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك وأدب ذخيرة الملك ابن علوان والي القاهرة جماعة وضربهم.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

فيها خرج الأفضل في عساكر جمة ورحل من القاهرة في شعبان وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكمان وإيلغازي ابني أرتق وكانا به في كثير من أصحابهما فبعث إليهما يلتمس منهما أن يسلما البلد ولا يحوجاه إلى الحرب فأبيا عليه فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيفا وأربعين منجنيقا وأقام عليها يحاصرها نيفا وأربعين يوما حتى هدم جانباً من السور ولم يبق إلا أخذها فسير إليه من بها ومكناه من البلد.

فخلع على ولدي أرتق وأكرمهما وأخلى عنهما فمضيا بمن معهما.

وملك البلد في شهر رمضان لخمس بقين منه وولى فيه من قبله ثم رحل عنه إلى عسقلان وكان فيها مكان قد دفن فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجل دار بها وعمر مشهدا مليح البناء.

فلما تكامل حمل الرأس في صدره وسعى به ماشيا من الموضع الذي كان فيه إلى أن أحله في مقره.

ويقال إن أمير الجيوش هو الذي أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله.

ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وفيها حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشت بأبصار الناس حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه ثم هبت ريح سوداء شديدة فظن الناس أن الساعة قد قامت.

واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح.

ولم يصل في ذلك اليوم أحد صلاة الظهر ولا العصر ولا أذن في القاهرة ولا مصر.

سنة اثنين وتسعين وأربعمائة

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرة فملكوها ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به ووصلوا عرقة فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها.

ونزلوا على حمص فهادنهم جناح الدولة حسين وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا.

ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم فجد الفرنج عندما بلغهم مسيره إليها في حصار المدينة وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يوماً.

وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام وقتلوا عامة من كان في البلد وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم ولم يفلت منهم إلا اليسير.

وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصرهم الفرنج نيفاً وأربعين يوماً حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشريه.

وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات وكان مبلغاً عظيما.

ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم.

ووصل الأفضل إلى عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان فبعث إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم فردوا إليه الجواب وركبوا في إثر الرسل فصدفوه على غرة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيراً.

وانهزم منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك في شجر الجميز فأضرموا النار حتى احترقت بمن تعلق فيها فهلك خلق كثير وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جل قدره ولا يمكن لكثرته حصره.

ونازلوا عسقلان وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله وذهبت أمواله وقتلت رجاله وسار إلى القاهرة.

ولم يعد بعد هذه الحركة إلى وكان ملك الفرنج بالقدس كند فرى.

وفيها توفى أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلي الحنفي المحدث في ثامن عشر ذي الحجة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

فيها رحل عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فراراً من الفرنج والغلاء.

وفيها عم الغلاء أكثر البلاد ومات من أهل مصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء وتولى بعده أبو الفرج محمد ابن جوهر بن ذكا النابلسي.

ومات علي بن محمد بن علي الصليحي قتله سعد بن نجاح الأحول وقتل أخاه عبد الله وجميع بني الصليحي بمكة في ذي القعدة.

وولى الحسن بن علي بن أحمد الكرخي الحكم شهراً واحداً وثلاثة أيام وصرف وصودر من أجل أنه أخذ عصابة من القصر في أيام الشدة لها قيمة فظهرت عليه.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

في شعبان جهز الأفضل عسكراً كثيفاً لغزو الفرنج فساروا إلى عسقلان ووصلوا إليها في أول رمضان فأقاموا بها إلى ذي الحجة فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم.

فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي مقدم العسكر في القلب وقاتل قتالاً شديداً فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيراً.

وقتل كند فرى ملك الفرنج بالقدس فجاء أخوه بغدوين من القدس وملك بعده وسار بالفرنج إلى أرسوف.

وفيها مات القمص رجار بن تنقرد صاحب جزيرة صقلية فقام من بعده ابنه رجار بن رجار.

وفيها نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها وتسلموا أرسوف بالأمان وملكوا قيسارية عنوة في آخر شهر رجب وقتلوا من بها وملكوا مع ذلك يافا مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلى بالله بن المستنصر في ليلة السابع عشر من صفر وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يوماً ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوماً.

نقش خاتمه الإمام المستعلى بالله.

وفي أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج فإنهم خذلهم الله دخلوا بلاد الشام ونزلوا على أنطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين وأخذ وامعرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين وأخذوا الرملة ثم بيت المقدس في شعبان ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل فملكوا قيسارية في سنة أربع وتسعين بعد ما ملكوا عدة بلاد.

وفي أيامه أيضاً افترقت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلى وترى أن ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص والفرقة المستعلوية ويرون صحة إمامة المستعلى ومن قام بعده من الخلفاء بمصر.

وبسبب ذلك حدثت فتن وقتل الأفضل فيما يقال وقتل الآمر كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يكن للمستعلى سيرة فتذكر فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة.

وخلف المستعلى من الأولاد ثلاثة هم الأمير أبو علي المنصور والأمير جعفر والأمير عبد الصمد.

وكانت قضاة مصر في خلافته أبو الحسن ابن الكحال ثم عزل بابن عبد الحاكم المليجي ثم ولى أبو الطاهر محمد بن رجاء ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا ومات المستعلى وهو قاض.

وقيل إن المستعلى مات مسموماً وقيل بل قتل سراً.

وكان المستنصر قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة أمير الجيوش بدر فمات قبل أن يبني عليها وكان أمير الجيوش قد جهزها جهازاً عظيما وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها فلما مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه.

وفيها أخذ صنجيل أحد ملوك الفرنج طرابلس فصار للفرنج القدس وفلسطين إلا عسقلان ولهم من بلاد الشام يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والأردن ولاذقية وأنطاكية ولهم من الجزيرة الرها وسروج.

ثم ملكوا جبيل ومدينة عكا وأفامية وسرمين من أعمال حلب وبيروت وصيدا وبانياس وحصن الأثارب.

الآمر بأحكام الله

ابن المستعلى بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد ولد ضحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له من العمر خمس سنين وشهر أيام في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين.

أحضره الأفضل وبايع له ونصبه مكان أبيه ونعته بالآمر بأحكام الله.

وكتب ابن الصيرفي سجلاً عظيما أبدع فيه ما شاء بانتقال الإمام المستعلى إلى رحمة الله وولاية ابنه الآمر وقرئ على رءوس الكافة من الأمراء والأجناد وغيرهم.

وأنشد ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنانة يمدح الآمر.

وركب الأفضل فرساً وجعل في السرج شيئاً أركب الآمر عليه لينموا شخص الآمر وصار ظهره في حجر الأفضل.

سنة ست وتسعين وأربعمائة

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدولة ويعرف بالطواشي على عسكر لقتال الفرنج فلقيهم بغدوين على تبنا فكسرت عساكر الأفضل وتقنطر سعد الدولة فمات وأخذ الفرنج خيمه فانهزم أصحابه.

وبلغ الأفضل ذلك فجرد في أول شهر رمضان عسكراً قدم عليه ابنه شف المعالي سماء الملك حسيناً وسير الأسطول في البحر فاجتمعت العساكر بيازور من بلاد الرملة وخرج إليهم الفرنج فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة.

ونزل شرف المعالي على قصر كان قد بناه الفرنج قريباً من الرملة وسبعمائة قومص من وجوه الفرنج فقاتلوه خمسة عشر يوماً فملكهم وضرب رقاب أربعمائة وبعث إلى القاهرة ثلثمائة.

وكان أصحاب شرف المعالي قد رأى بعضهم أن يمضوا إلى يافا ويملكوها ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس.

فبينا هم في ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قمامة فندبهم بغدوين للغزو معه فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالي وامتنع بها وكانت حصينة فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا.

وعاد شرف المعالي إلى القاهرة بعد ما كتب إلى شمس الملوك دقاق صاحب دمشق يستنجده لقتال الفرنج فتقاعد عن المسير واعتذر.

فجرد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم بمن معه عسقلان ونزل ابن قادوس على يافا وبعث يستدعي تاج العجم ليتفقا على الحرب فلم يجبه وتنافرا.

فلما بلغ ذلك الأفضل بعث يقبض على تاج العجم وولى تاج الملك رضوان تقدمة العسكر وسيره إلى عسقلان فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتى قدم شرف المعالي بعساكر مصر.

وفيها مات تنكري ملك الفرنج بالساحل فقام بعده سرجار ابن أخيه.

فيها نازل بغدوين ملك الفرنج وصاحب القدس ثغر عكا وحاصر أهله وألح عليهم حتى ملكه.

وكان فيه من قبل الأفضل يومئذ زهر الدولة بنا الجيوشي ففر إلى دمشق وصار إلى ظهير الدين أتابك فأكرمه وأحسن إليه ثم جهزه إلى الأفضل فأنكر عليه وهدده على تضييع الثغر.

ولم تعد بعدها عكا إلى المسلمين.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

فيها جمع الأفضل جموعاً كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي وكتب لظهير الدين أتابك صاحب دمشق بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى فإن أرتاش بن تاج الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم في البلاد.

فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى وجهز عسكراً إلى شرف المعالي تقويةً له على الفرنج وقدم عليه إصبهبذ صبا وجهارتكين وعدته ألف وثلثمائة فارس من الأتراك وعدة عسكر مصر خمسة آلاف فارس.

وأتاهم بغدوين في ألف وثلثمائة فارس وثمانية آلاف راجل.

فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان ودارت بينهم وبين الفرنج حروب كان ابتداؤها في الرابع عشر من ذي الحجة فيما بين عسقلان ويافا فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين منهم جمال الملك صنيع الإسلام والي عسقلان وأخذ الفرنج رايته وأسر الفرنج زهر الدولة بنا الجيوشي.

وقتل ألف ومائتان من الفرنج ورجعوا وقد كانت الكرة لهم على المسلمين.

وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو على بصرى.

وفيها مات كنز الدولة محمد في ثامن شعبان وقام من بعده أخوه فخر العرب هبة الله.

سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في سادس عشر رجب قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية قتله طائفة من الباطنية وملك الفرنج عكا عنوةً في سلخ شعبان من زهور الدولة بنا الجيوشي فسار إلى دمشق ثم قدم مصر.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله ومدبر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي وليس للآمر معه حل ولا ربط وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة والذي في وفيها بنى الأفضل دار الملك بشاطىء النيل من لدن مصر.

وفيها سار متولي صور فأوقع بالفرنج على تبنين فقتل واسر جماعة وعاد إلى صور فسار بغدوين إليه من طبرية فركب طغتكين من دمشق وأخذ الفرنج حصناً بالقرب من طبرية وأسر من كان فيه منهم.

وفيها ملك قلج بن أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق صاحب قونية الموصل في شهر رجب فقتل في ذي القعدة منها وقام بعده بقونية وأقصرا ابنه مسعود.

سنة إحدى وخمسمائة

فيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصناً مقابل حصن صور على تل المعشوقة.

وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين أحد المماليك الأفضلية فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور.

وفيها أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي علي عمار بن محمد بن عمار من طرابلس وكثير من أمواله وذخائره.

وذلك أن فخر الدولة حاصره الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعه وعجز عن مقاومتهم فخرج من طرابلس في سنة خمسمائة ومعه هدايا جليلة فلقى ظهير الدين طغتكين أتابك بدمشق فأكرمه ووافقه على السير معه إلى بغداد ليستنجد بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه فسارا.

ثم إن أتابك تركه وعاد إلى دمشق فثار في هذه المدة أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الدولة ونادى بشعار الأفضل وأرسل يطلب منه من يتسلم منه طرابلس.

فبعث إليه الأفضل بالأمير مشير الدولة ابن أبي الطيب فدخل إلى طرابلس ونقل منها حريم فخر الدولة وأمواله ففت ذلك في عضد فخر الدولة.

وفيها اتصل أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبي شجاع فاتك بن الأمير مجد الدولة أبي الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبي علي حسن بن تمام المستنصري الأحول الإمامي الشيعي المعروف بالمأمون ابن البطائحي بخدمة الأفضل أبي القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر المستنصري.

وسبب ذلك تغير الأفضل على تاج المعالي مختار الذي كان اصطنعه وفخم أمره وسلم إليه خزائن أمواله وكسواته فسلم لأخويه ما يتولاه واستعان بهما فيه فحصل لهم من الإدلال على الأفضل ما حملهم على مد أيديهم إلى أمواله وذخائره وشاع أمرهم وكتب إلى الأفضل بسببهم فتغير عليهم وأخرج مختاراً إلى الولاية الغربية وخلع عليه.

فلما انحدروا إليها سير صاحب بابه سيف الملك خطلخ ويعرف بالبغل وكان من غلمان أبيه فقبض عليه وعلى إخوته من العشارى وكبل بالحديد ورمى بالاعتقال وأشيع أن مختاراً كاتب الفرنج وجعل فلما جرى لمختار وإخوته ما جرى ألزم الأفضل أبا عبد الله بن فاتك يتسلم ما كان بيد مختار من الخدمة فتصرف فيها.

وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصةً دون الإقطاع وهو مائة دينار في كل شهر وثلاثون ديناراً عن جارى الخزائن مضافا إلى الأصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهةً وحسن عند الأفضل موقع خدمته فسلم له جميع أموره وصرفه في كل أحواله.

ولما كثر الشغل عليه استعان بأخويه أبي تراب حيدرة وأبي الفضل جعفر فأطلق لهما الأفضل ما وسع به عليهما ونعت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد.

فيها فتح ديوان سمي بديوان التحقيق تولاه أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني.

وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف وكان قد كبر وضعف فتحدث ابن أبي الليث مع القائد أبي عبد الله في الدواوين والأموال والمصالح وفاوض في ذلك الأفضل.

واتفق موت ابن الأسقف فتسلم ابن أبي الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وفيها تحدث ابن أبي الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين فأجاب الأفضل إليه وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفي بإنشاء سجل به ثم رأى اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من حسبة ارتفاع إقطاعاتهم وسوء حالهم لقلة المتحصل منها ولأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وزادت عن غيرها وصار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعسف وتتردد الرسل بين الديوان بسببها.

فحملت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد وامر ضعفاء الجند بلزيادة في الاقطاعات التي للاقوياء فتزايد والى ان انتهت الزيارة فكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد.

وأمر الأقوياء أن يبذلوا في الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد ما تحتمله كل ناحية فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه فكتبت لهم السجلات على الحكم المتقدم فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم وحصل للديوان بلاد مفردة بما كان مفرقا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

وفيها فرغ بناء دار الملك وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحول إلى مصر وسكن دار الملك على النيل واستقر بها فقال الشعراء فيها عدة قصائد.

وفيها بانت كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات فانقطعوا عنه واستقروا بالقاهرة في دار القباب التي كانت سكن أبيهم الأفضل وهي الدار التي عرفت بدار الوزارة ولم يبق من أولاده من يتردد إليه سوى سماء الملك فإنه كان يؤثره ويميل إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبد الله بن فاتك الموضع المعروف باللؤلؤة.

وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبة قد تجهز براً وبحراً وعول على قصد البلاد القبلية فسير الأفضل عسكراً إلى قوص وتقدم إلى والي قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة فورد الخبر بوثوب أخير الملك عليه وقتله.

واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة وأجلس صبي في الملك فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم.

فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسير عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة ويبعث إليهم رسولاً يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العادة وهي كل سنة ثلثمائة وستون رأساً رقيقاً بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة.

فلما دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة وكتبوا المواضعات وسألوا في الإعفاء عما يخص السنين وحملوا ما تيسر لهم وعادت العساكر كاسبة.

وفيها كثر خوض الناس في القرآن هل هو محدث أو قديم وتفاقم الأمر فعرف الأفضل فأمر بإنشاء سجل بالتحذير من الخوض في ذلك وركب بنفسه إلى الجامع بمصر وجلس في المحراب بجوار المنبر وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس.

وفيها مات مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان صاحب قونية وأقصرا فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان وقسم أعماله بين أولاده.

في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي منها وقصده بغداد لطلب النجدة لما اشتد حصار الفرنج لها وغلا السعر بها.

وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عند ما كان بالشام في السنة التي كسر الفرنج فيها قد سام ابن عمار تسليمها إليه فامتنع وغلق الباب في وجهه وأقام سماء الملك عليها مدةً بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان.

فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب ومقدم الأسطول وأمره يأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى الثغر المذكور نصرةً للمسلمين.

فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الجوسق وأمهلوا المسلمين فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم وفيهم صالح بن علاق الطائر بعد هروبه من الأفضل وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومصاغه وكان بقيمة كبيرة.

وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر فأكرمهم الأفضل واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود.

وفي العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب.

وفيها جدد حفر خليج القاهرة فإن المراكب كانت لا تدخل فيه إلا بمشقة وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه فإذا أنتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك وأقيم له وال مفرد بجامكية ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئاً.

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان وحدث أن تبجح على الأفضل بخدمته وكان سبعمائة ألف دينار خارجاً عما أنفق في الرجال فجعل في صناديق بمجلس الجلوس.

فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ تفرحني بالمال وتريد أمير الجيوش أن يلقى بئرا معطلة أو أرضاً بائرةً أو بلداً خراباً لأضربن رقبتك.

فقال: وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك فيها بلد خراب أو بئر معطلة.

فتوسط القائد له بخلع فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر.

وفيها وصل بغدوين إلى صيدا ونصب عليها البرج الخشب فوصل الأسطول من مصر للدفع عنهم وقاتلوا الفرنج فظهروا في مراكب الجنوية فبلغهم أن عسكر دمشق خارج في نجدة صيدا فرحل الأسطول عائداً إلى مصر.

وفي شعبان منها نزل الفرنج على طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة ومقدمهم ريمند بن صنجيل وأسندوا أبراجهم إلى السور فضعفت نفوس المسلمين لتأخر أسطول مصر عنهم فكان قد سار من مصر إليها بالميرة والنجدة فردته الريح لأمر قدره الله.

فشد الفرنج في قتالهم وهجموا من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصى فيذكر.

وسلم الوالي لها في جماعة من جندها كانوا قد طلبوا الأمان قبل ذلك وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم واستقهرت ذخائرهم ونزل بهم أشد العذاب.

وتقرر بين الفرنج والجنويين الثلث من البلد وما نهب منه للجنويين والثلثان لريمند ابن صنجيل وأفردوا للملك بغدوين ما رضى به.

ثم وصل أسطول مصر ولم يكن خرج فيما تقدم معه كثرة رحال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس فأرسى على صور في اليوم الثامن من أخذ طرابلس وقد فات الأمر فيها فأقام مدة وفرقت الغلة في جهاتها.

وتمسك أهل صور وصيدا وبيروت به لضعفهم عن مقاومة الفرنج فلم تمكنه الإقامة وعاد إلى مصر.

سنة ثلاث وخمسمائة

فيها سار الفرنج نحو بيروت وعملوا عليها برجاً من الخشب وزحفوا فكسره أهل بيروت.

وقدم الخبر بذلك على الأفضل فجهز تسعة عشر مركباً حربية فوصلت سالمةً إلى بيروت وقويت على مراكب الفرنج وغنيمت ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة فقوي أهلها بذلك.

وبلغ بغدوين الخبر فاستنجد بالجنوبية فأتاهم منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحف على بيروت في البر والبحر ونصب عليها برجين وقاتل

أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال فعظمت الحرب وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم.

فانخذل المسلمون في البلد وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهراً وخرج متولى بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج فقتل من كان معه وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد وسبوا من فيه وأسروا واستصفوا الأموال والذخائر.

فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت فخرج عليها طائفة من الفرنج فانهزموا إلى الجبال فهلك منهم جماعة.

وفيها سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها فاتفق وصول ابن كند ملك الفرنج في عدة مراكب لزيارة القدس والجهاد في المسلمين فزار القدس وسار هو وبغدوين إلى صيدا فنازلاها بجمعهما وعملا عليها برجاً من خشب وزحفا عليها فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها.

في ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويئسوا من النجدة فبعثوا قاضي البلد في عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان فأجابهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق وحلف على ذلك.

فخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى الآخرة.

وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.

وفيها خرج جماعة من التجار والمسافرين من تنيس ودمياط ومصر وأقلعوا في البحر فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار وعاقبوهم حتى افتدوا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.

وفيها أغار بغدوين بعد عوده من صيدا على عسقلان فراسله أميرها شمس الخلافة أسد حتى استقر الحال على مال يحمله إليه ويرحل عنه.

وقرر على أهل صور سبعة آلاف دينار تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة أشهر.

فقدم الخبر بذلك في شوال على الأفضل فأنكر ذلك وكتمه عن كل أحد وجهز عسكراً كثيفاً إلى عسقلان وقدم إليه عز الملك الأعز ليكون مكان شمس الخلافة وندب معه مؤيد الملك رزيق وأظهر أن هذا العسكر سار بدلاً.

فسار إلى قريب عسقلان وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يمده بالرجال ويعده بتسليم عسقلان وأن يعوضه عنها.

فبلغ ذلك الأفضل.

فكتب إليه يطيب قلبه ويغالطه وأقطعه عسقلان وأقر عليه إقطاعه بمصر وأزال الإعتراض عما له بمصر من خيل وتجارة وأثاث.

فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد واستدعى جماعة من الأرمن وأقرهم عنده.

وفي يوم الأحد العشرين من شوال حدثت ريح حمراء بالقاهرة.

وفيها أمر أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله أن يبعث جليسه أبو الفتح عبد الجبار ابن إسماعيل المعروف بابن عبد القوي لعماد الدولة زيادة على إخوته.

وفيها هبت بمصر وأعمالها في هذه الأيام ريح سوداء مظلمةٍ وطلع سحاب أسود أظلمت منه الدنيا حتى لم يبصر أحد يده وسفت رماداً حتى ظن الناس أنها القيامة ويئسوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لهول ما عاينوه ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس.

ثم انجلى ذلك السواد وعاد إلى الصفرة والريح بحالها ثم انجلت الصفرة وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدور إلى الصحراء.

ثم ركدت الريح وأقلع السحاب فعاد الناس إلى منازلهم.

سنة خمس وخمسمائة

في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر نزل بغدوين على صور وبها عز الملك أنوشتكين الأفضلي وبنى عليها أبرجة خشب طول البرج سبعون ذراعاً يسع كل برج ألف رجل وهو موضوع على شيء يسمى اسقلوس وهو فخذان ملقيان على الأرض وفي كل برج من أسفله عشرون فرنجياً يصيح أحدهم بالفرنجية: صند ماريا فيصيح الباقون كذلك ويدفعونه بأجمعهم فيسبح على ألواح عظيمة تجعل بين يديه وكانت ستائر كل برج ومناجيقه كأنها بلد يزحف.

فخرج من أهل صور ألف رجل وحملوا على البرج وطرحوا فيه النار فعلقت بالخشب فلم يتمكن الفرنج من إطفائه وهربوا منه واحترق فتناول المسلمون بالكلاليب ما قدروا عليه من سلاحهم فوصل إليهم ثلاثمائة درع.

وكان هذا البرج كبشا من حديد وزنة رأسه مائة وخمسون رطلاً فظفر به المسلمون.

وكانت الريح على المسلمين ثم صارت معهم وملأوا جراراً بالعذرة ورموها على الفرنج فصاحوا وذلوا ورحلوا فعاثوا ثم عادوا وقد قطعوا النخل أنابيب ورموا بها في الخندق.

وسار طغتكين من دمشق لإعانة أهل صور فنزل على يوم منهم لجولة بانياس وأنفذ إليهم مائتي غلام تركي عليهم جليل من الأتراك فقاتل الفرنج وقتل منهم ألفاً وخمسمائة وأكثر النكاية فيهم.

وأغار طغتكين على بلاد الفرنج فأخذ لهم موضعاً فرجعوا عن صور بغير شيء.

وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين فخلعوا عليهم وأعادوهم إليه في أحسن زي وأخذ أهل صور في رم ما شعثه الفرنج في البلد.

وفيها حدث بمصر وباء مفرط هلك به تقدير ستين ألف نفس.

سنة ست وخمسمائة

فيها حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا فابتدئ في حفره في يوم الثلاثاء السادس من شعبان وأقام الحفر فيه سنتين.

وكان أبو المنجا يهوديا وكان يشارف على الأعمال الشرقية فلما عرض على الأفضل ما أنفقه فيه استعظمه وقال: غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا.

فغير اسمه ودعي بالبحر الأفضلي فلم يتم ذلك ولا عرف إلا بأبي المنجا.

وفيها أعلن شمس الخلافة أسد والي عسقلان بالخلاف فعهد إلى صاحب الترتيب والقاضي فأخرجهما على أنه يرسلهما إلى الباب في خدمة عرضت له وإلى العسكر الذي كان يخاف شوكته فأوهمهم أنه يسيرهم إلى بلاد العدو.

فلما حصلوا خارج الثغر أمرهم بالمسير إلى باب سلطانهم وكان قد سير قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل.

فلما علم أسد المذكور بوصولهم إلى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدو قد تعداهم فامتنعوا من التوجه فلما بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه إليه.

ثم رأى أن إعمال الحيلة أنجع فخادعه وأنفذ الكتب إليه يطمئنه ويصوب رأيه فيما فعله في صاحب الترتيب والبدل ولم يغير مكاتبته عن حالها ولا تعرض لإقطاعاته ورسومه وأصحابه وسير في الباطن من يستفسد الكنانية والرجال المذكورة ويبذل لهم الأموال في أخذه.

ولم يزل يدبر عليه حتى اقتنصت المنية مهجته وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره فوثب عليه طائفة وهو راكب فجرحوه وانهزم إلى داره فتبعوه وأجهزوا عليه ونهبوا داره وماله وتخطفوا بعض دور الشهود والعامة.

فبادر صاحب السيارة إلى البلد وملكه وبعث برأس شمس الخلافة إلى الأفضل فسر بذلك وأحسن إلى القادمين به.

وكان قدوم الرأس في يوم الأربعاء رابع المحرم صحبة ثلاثة من الكنانية فخلع عليهم وطيف بالرأس وزينت البلد سبعة أيام.

وفيه خلع على ولده مختار ولقب شمس الخلافة وأنعم عليه بجميع مال أبيه.

وسير بدله مؤيد الملك خطلخ المعروف برزيق والياً على الثغر.

وفيها وصل يانس الناسخ من الشام فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير في الشهر وثلاث رزم كسوة في السنة والهبات والرسوم.

وفيها كتب إلى عسقلان بمطالبة من نهب دار شمس الخلافة وماله بما أخذه فقبض على جماعة وحملوا إلى مصر فاعتقلوا بها.

وفيها تسلم نواب طغتكين صور من عز الملك أنوشتكين الأفضلي خوفاً من بغدوين أن يأخذها وقام بأمرها مسعود فاستقرت بيد الأتراك وأقروا بها الدعوة المصرية والسكة على حالها.

وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغدوين قد جمع لينزل على صور وأن أهلها استنجدوني فبادرت لحمايتها ومتى وصل من مصر أحد سلمتها إليه.

فكتب يشكره على ما فعل.

وتقدم بتجهيز الأسطول إلى صور بالغلة معونة لها.

سنة سبع وخمسمائة

في أولها خرج الأسطول من مصر بالغلات والرجال إلى صور وعليه شرف الدولة بدر بن أبي طالب الدمشقي وكان متولى طرابلس عند أخذ الفرنج لها فوصل إلى صور سالماً ورخصت بها الأسعار واستقام أمرها.

وأنفذ معه بخلع جليلة إلى ظهير الدين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصه ولمسعود متولى صور.

ثم أقلع في آخر شهر ربيع الأول.

فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود فأجابه وانعقد الأمر بينهما.

في ذي القعدة قفز على الأفضل عند باب الزهومة من دكان صيرفي يعرف بالغار وسلم فأخرجت الصدقات بسبب سلامته وقتل الصيرفي وصلب على دكانه.

وورد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى الفرما فسير الراجل من العطوفية وسير إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر وأن يسير بنفسه فاعتد ذلك ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي.

فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج فخاف بغدوين من يلاحق العساكر فنهب الفرما وأخربها وألقى فيها النيران وهدم المساجد وعزم على الرجوع فأدركته المنية ومات.

فأخفى أصحابه موته وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحاً وشنت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا.

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق بعتبه ويقول له: لا في حق الإسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها أن يتوجه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد.

فلما وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان فتلقاه المقدمون ونزل أعظم منزل وحملت إليه الضيافات.

وحمل إليه من مصر الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام وسيف ذهب ومنطقة ذهب وطوق ذهب وبدنة طميم وخيمة كبيرة معلمة ومرتبة ملوكية وفرشها وجميع آلاتها وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضة.

وجهز لشمس الخواص وهو مقدم كبير كان معه على عدة كثيرة من العسكر خلعه مذهبة ومنطقة ذهب وسيف ذهب وجهز برسم المتميزين من الواصلين خلع مذهبة وحريرية وسيوف مغموسة بالذهب.

فتواصلت الغارات على بلاد العدو وقتل منهم وأسر عدد كبير.

فلما دخل الشتاء وتفرق العسكر والعربان استأذن ظهير الدين على الإنصراف فأذن له وسيرت إليه وإلى من معه الخلع ثانياً فحصل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة ما مقداره عشرة آلاف دينار وتسلم الأمير ظهير الدين الخيمة الكبيرة بفرشها وجميع آلاتها وكان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار.

وذكر أن المنفق في هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار.

ورعشت يد الأفضل وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على الكتب فأقر أخاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامة وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافاً إلى رسمه فعلم عنه.

واستهل شهر رمضان فجرى الأمر في نيابة الأجل سماء الملك ولد الأفضل عنه في جلوسه بمحل الشباك وقرر له على هذه النيابة في هذا الشهر خمسمائة دينار وبذلة مذهبة ورزمة كسوة فيها شقق حرير وغيرها.

ولم يزل هذا الرسم مستقراً إلى أن أخذه عباس بن تميم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند توليته حجبة بابه.

والبذلة وحدها تساوي خمسمائة دينار.

وفيها استخدم ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة والحسبة فظلم وعسف وبنى مسجداً عرف بمسجد لا بالله.

سنة عشر وخمسمائة

سنة إحدى عشرة وخمسمائة

في ذي الحجة خرج أمر الآمر بأحكام الله بنفي بني عبد القوى فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم.

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها وقتل بها رجلا مقعدا وابنة له ذبحها على صدره ورحل وهو مثخن مرضا فمات قبل العريش فشق بطنه ورمى ما فيه هناك فهو يرجم إلى اليوم ويعرف مكانه بسبخة بردويل ودفنت رمته بقمامة من القدس.

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرها بعهده إليه.

وفيها خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء ومضى إلى بجاية.

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

فيها مات الأمير نور الدولة أبو شجاع فاتك والد القائد أبي عبد الله بن فاتك فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور وشققا مزيدي دبيقي ونصافي وطيباً وبخورا وشمعاً وحمل له من القصر أضعاف ذلك.

وخرج الأفضل والأمراء وجميع حاشية القصر إلى الإيوان فخرج الخليفة وصلى عليه ثم أخرج فدفن.

وتردد الناس إلى التربة.

وفرقت الصدقات إلى تمام الشهر.

وكان بيد نور الدين زمر الضاحكية والفراشين وصبيان الركاب والسلاح الخاص بجار ثقيل ورسوم كثيرة.

وهؤلاء الضاحكية كانوا يعرفون بهذه الرسوم قديماً عند وصولهم مع المعز إلى مصر وهم يلبسون المناديل ويرخون العذب ويلبسون الثياب بالأكمام الواسعة وفي أرجلهم الصاجات وفي الأعياد يشدون أوساطهم بالعراضى الدبيقي ولا يتقدمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم في المغرب.

وفيها قفز على الأفضل ثانيا وخرج عليه ثلاثة نفر بالسكاكين فقتلوا وعاد سالما فاتهم أولاده وصرح بالقول فيهم وأخذ دوابهم وأبعد حواشيهم ومنعهم من التصرف وبالغ في الاحتراز والتحفظ.

وفيها وردت التجار من عيذاب ذاكرين أنه خرج عليهم في مراكب شنها قاسم بن أبي هاشم صاحب مكة فقطعت عليهم الطريق وأخذ جميع ما كان معهم.

فغضب الأفضل وقال: صاحب مكة يأخذ تجاراً من بلادي أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة.

ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجار.

وكتب إلى والي قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عيذاب ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكن أحداً من الركوب فيها وأن يتشوف ما يدخل عيذاب من الشواني والحراريق فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية.

وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز.

فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يصل إليها أحد اشتد الأمر عندهم وتحرك السعر فبعثوا رسولا من أميرهم فلما وصل ساحل مصر لم يؤبه له ولا أجرى عليه ضيافة وقيل له: ما يقرأ لك الكتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم.

وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه فالتزم بإحضار جميع أموال التجار وسأل التوقف قبل الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه وأجل لعوده أجلا قريباً.

فأجيب إلى ذلك وسار.

فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرعايا وهم يعلنون بالشكر والدعاء.

واحتاط متولى الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة.

وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل.

ومرض الأفضل بحمى حادة ثم عوفي فدفع للطبيب ثلثمائة دينار.

سنة خمس عشرة وخمسمائة

فيها قتل الأفضل بن أمير الجيوش يوم الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة لأن مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

وكان سبب ذلك أنه لما كان ليلة عيد الفطر جهز ما جرت العادة بتجهيزه من الدواب والآلات لركوب الخليفة وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول على العادة كل سنة والدواب والسلاح ثم عاد وأدى ما يجب من سلام الخليفة فتقدم إلى القائد أبي عبد الله بن فاتك بأن يأمر صاحب السير أن يصف العساكر إلى صوب باب الخوخة.

وركب الأفضل من مكانه والناس على طبقاتهم وخرج من باب الخوخة قاصداً دار الذهب فلما حصل بها وقع التعجب من الناس في نزوله ليلة الموسم ولم يعلم أحد ما قصد وكان قصده أن يكمل تعليق المجلس الذي يجلس فيه.

فصلى بدار الذهب الظهر فلما قرب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنا منهم أنه يبيت فيها.

فسار إلى الزهري فإذا الأمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته وكان قد ضجر وتغير خلقه ولا سيما في الصيام.

فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم فتقدموا ووقفوا عند باب الساحل فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم وبقى في عدة يسيرة وأبعد صبيان السلاح من ورائه فوثب عليه من دكان دقاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلما اشتغل من حوله واحد خرج غيره فرمى من الفرس إلى الأرض وضربوه ثمان ضربات.

وكان القائد بعيدا منه لأخذ رقاع الناس وسماع تظلمهم وتفريق الصدقات على الفقراء بالطريق فلما سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه فوجده قد قضى نحبه.

وحمل على أيدي مقدمي ركابه والقائد راجل وهم يبشرون الناس بالسلامة.

وقتل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا وسلم الرابع وكان اسمه سالماً ولم يعلم به إلا لما ظفر به مع غيره بعد مدة.

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يمكن أحد من الوصول إليه إلى أن دخل به على مرتبته التي كان يجلس عليها أو يمطى.

وقال القائد للخليفة أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه.

وصار أي من لقيه يهنئه بسلامة السلطان ويوهم أهله أن الطبيب عنده ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه.

وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدها قد غصت بالناس فرد عليهم السلام وهنأهم وأظهر قوة عزم ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه متولى المائدة الأفضلية واستأذنه على السماط المختص بالعيد فقال له اذبح ووسع فالسلطان بكل نعمة وهو الذي يجلس على السماط في غد ومع ذلك فكان في قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجري عنهم ما لا يستدرك وتنهب الدار.

فلما أصبح الصباح وركب الخليفة ودخل إلى الدهليز الذي كان يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنكون قال القائد أبو عبد الله للخليفة: عن إذن مولانا أفتح الباب وكان قد منع من الدخول إلى الدار فقال الخليفة: نعم ففتح على الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح

في مدته ويورثه أعمار مماليكه هذا وزيره قد صار إلى الله تعالى وهذا ملكه يتسلمه.

ثم ضربت للوقت المقرمة على الأفضل وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد فدخل الناس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين يدي الخليفة وهو قاعد على الحصير عند المقرمة فقال الخليفة للأمراء: هذا وزيري قد صار إلى الله تعالى ومنكم إلي ومني إليكم وقد كان القائد واسطته إليكم وهو اليوم واسطتي إليكم.

فشكر الحاضرون ذلك هذا والقائد وولده مشدودو الأوساط بالمناطق وصاحب الباب على ما كانوا عليه.

وتقدم إلى الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة أن يكتب إلى الأعمال بذلكن وأمر الأمراء بالانصراف.

ثم قال القائد: يا مولانا الأموال والجواهر على اختلافها في الخزائن الكبار عنده وهي مقفلة ومفاتيحها عندي وختم عليها وهي في بيت المال المصون وكذلك المفضض التي عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصعة والتي بغير ترصيع والبلور التي برسم استعماله جميع ذلك مثبت عند متولي دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التي برسم ملبوسه ما عندي منها خبر فأمر من يدخل ويختم عليها.

فأمر متولي الخزائن الخاص وكان سيف الأستاذين ومتولي بيت المال ومتولي الدفتر وهم كبار الأستاذين المحنكين بأن يدخلوا ويجتمعوا ولا يعترض غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأحد من عياله.

فتوجهوا وقرعوا الباب.

فلما شاهدهم النساء تحققوا الوفاة وقام الصراخ من جميع جوانب المواضع وكانت ساعة أزعجت كل من بمصر والجيزة والجزيرة ثم أسكتوا.

وأنفذت الرسل لختم الخزائن التي بمصر.

فبينما هم على ذلك في الليل إذ وصل إلى الخليفة رقعتان على يد أستاذ من القاهرة من رجلين من جملة الحاشية يذكران فيها أن أولاد الأفضل قد جمعوا عدة وشنعت حاشيتهم أن في بكرة هذه الليلة يستنصرون بالبساطية والأرمن ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر فامتعض الخليفة لذلك وهم بالإرسال إليهم وقتلهم ثم تقرر الأمر على أن يودعوا الخزانة من غير إهانة ولا قيود فتوجه إليهم فإذا جميع حاشيتهم وغيرها عندهم والخيل قد شدت فأودعوا الخزانة.

فلما أصبح الصباح كان قد حمل من القصر في الليل طوافير فيها عدة موائد للفطر في يوم العيد وحمل برسم فطر الخليفة الصواني الذهب وعليها اللفائف الشرب المذهبة.

وكان قد هيئ للخليفة من الليل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل وعين من وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل.

فلما كان السحر من عيد الفطر جئ بين يدي الخليفة بما أحضر من قصوره في مواعينه الذهب المرصعة وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشو والجوارشيات بأنواع الطيب وغير ذلك فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضي إلى باب الحرم لإحضار الأجل المرتضى ابن الأفضل فمضى لذلك فأبت أمه من تمكنهم منه فما زال بها حتى أسلمته إليه بعد جهد.

فأتى به الخليفة فسلم به وضمه الخليفة إليه وقبله بين عينيه وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله وبقية ثم كبر مؤذنو القصر فسمى الخليفة وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد ثم ناول الثانية لولد الأفضل فقام كل منهما وقبل الأرض ولم يجلس.

وتقدم كل من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف.

فاستدعى القائد الفراش الذي معه الصينيتان النحاس وأمر فراشي الأسمطة بنقل ما في الأواني التي بين يدي الخليفة في الصواني لتفرق في الأمراء الذين بالقاعة والدهاليز فنقلت إليها وحملت إلى المقرمة التي الأفضل وراءها وختم المقرئون.

ثم أظهر الخليفة الحزن على فقد وزيره فتلثم وتلثم جميع المحنكين والحاشية وجلس الخليفة على المخدة عند المقرمة وأمر حسام الملك حاجب الباب بإحضار القاضي والداعي والأمراء فدخل الناس على طبقاتهم.

فلما رأوا زي الخليفة اشتد البكاء والعويل وخرق كل أحد ما عليه ورميت المناديل يعني العمائم إلى الأرض وبكى الخليفة وحاشيته ساعة.

ثم سأل القائد الخليفة أن يفطر على ثمرة بحيث يشاهده جميع من حضر ففعل ذلك.

ثم أشار الخليفة إلى القائد أن يكلم الناس عنه: فقال: أمير المؤمنين يرد السلام عليكم وقد شاهدتم فعله وكونه لم يشغله مصابه بوزيره ومدبر دولته ودولة آبائه عن قضاء فرض هذا اليوم وقد أفطر بمشاهدتكم وأمركم بالإفطار.

فمسح الخليفة بيده على الصواني وتقدم القائد إلى الخليفة وصار يناوله من الصواني بيده فأول ما مد إلى القاضي ثم الداعي ونزل الناس للأكل.

ورفعت الصواني فأخذ القائد يد الداعي وقربه من الخليفة فناوله الخليفة الخطبة وكانت على يساره ملفوفة في منديل شرب بياض مذهب فقبلها الداعي وجعلها على رأسه وضمها إلى صدره.

وتقدم القائد لحسام الملك بأن يأخذ الأمراء جميعهم ويطلعون إلى المصلى بالقاهرة لقضاء الصلاة فتوجهوا في زي الحزن والمؤذنون بين أيديهم.

فصلى الداعي بالناس ثم صعد المنبر فوقف على الدرجة الثالثة منه وخطب.

وكانت الخطبة مبيتة فيها الدعاء للأفضل والترحم عليه وعندما توجه الناس إلى المصلى أمر ولد الأفضل بالمضي إلى أمه وإخوته وجهات أبيه ليرد عليهم السلام من أمير المؤمنين ويفطرهم.

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر فقام إلى خزانة كانت قد بنيت برسم الأفضل فوجد بها خيمة ففتحها وأخرج قمطرين عليهما حلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طول كل شرابة شبران بجواهر ما يقع عليها نظر وصناديق فضة مملوءة مضافات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة.

ففتحت كلها فشاهد الخليفة منها ما لا يوصف فسر بذلك سرورا كبيرا وشكر القائد وقال: والله إنك المأمون حقاً مالك في هذا النعت شريك.

فقبل الأرض ويديه.

ولهذا النعت قضية.

وذلك أنه لما كان في الأيام المستنصرية وعمر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة وكان من جملة خاصة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهماته فيجد منه النهضة والأمانة فيقول هذا المأمون دون الجماعة.

ودرجت السنون فذكرها الخليفة الآمر في ذلك الوقت فقال له: أنت المأمون على الحقيقة لأجل ذلك.

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب والداعي وجميع الأمراء من المصلى ومثلوا بين يدي الخليفة.

ووقع حينئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل وتقدم إلى زمام القصور بإخراج ما قد مازجه عرف الأئمة وتقدم إلى ريحان متولى بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم فمضيا.

وتقدم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والاجناد والشهود والقضاة والمتصدرين والمقربين وبنى الجوهري الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن.

فعاد زمام القصور ومتولى بيت المال ومعهما عشرون صينية ملفوفة في عراض دبيقي بياض مملوءة صندلا مطحونا ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا وفي صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطيالسهم.

ووصلت أيضا الموائد على رءوس الفراشين وهي مائة شدة صحبة متولى المائدة الآمرية فمد السماط بين يدي الخليفة ومد سماطان أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء والآخر برسم القاضي والداعي والشهود والمقربين والوعاظ والمؤمنين وحمل إلى الجهات فلما انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة وذكر أنه ختم على الأفضل في هاتين الليلتين واليوم نيف وخمسون ختمة.

فلما انقضى معظم الليلة الثاني من شوال تقدم الخليفة بإحضار داعي الدعاة ولي الدولة ابن عبد الحقيق وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه وكفن بما حضر من القصر وأخرج للداعي بذلتان مكملتان مذهبة وحرير عوضا عما كان على الأفضل من ثياب الدم فإنها لم تنزع عنه وعند كمال غسله دفع للداعي ألف دينار.

فلما كان في الثالثة من نهار يوم الثلاثاء ثاني شوال خرج التابوت بالجمع الذي لا يحصى والناس بأجمعهم رجالة وليس وراءهم راكب إلا الخليفة بمفرده وهو ملثم.

فلما خرج التابوت من بلد مصر أمر الخليفة بركوب القائد والمرتضى ولد الأفضل وذكر أن الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة ركب حماراً فلما وصلت الجنازة إلى باب زويلة ترجل القائد والمرتضى ومشيا وبعث الخليفة خواصه إلى أخويه أبي الفضل جعفر وأبي القاسم عبد الصمد وأمرهما إذا وصل التابوت إلى باب الزهومة أن يخرجا بغير مناديل بعمائم صغار وطيالس فإذا قضيا ما يجب من حق سلام الخليفة سلما على القائد أبي عبد الله بمثل ما كانا يسلمان على الأفضل ويمشيان معه وراء التابوت.

فاعتمدا ذلك.

فاستعظم الناس هذه الحالة والمكارمة ولم يزالا مع الناس وراء التابوت إلى أن دخل من باب العيد.

فلما صار التابوت في وسط الإيوان هم الخليفة بأن يترجل فسارع إليه القائد والمرتضى وصاح الناس بأجمعهم: العفو يا أمير المؤمنين.

عدة مرار.

فترجل الخليفة على الكرسي وصلى عليه ورفع التابوت فمشى وراءه وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه ونزل التربة ظاهر باب النصر ووقف على شفير القبر إلى أن حضر التابوت.

واستفتح ابن القارح المغربي وقرأ: " وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ " الآية.

فوقعت من الناس موقعا عظيما وبكوا وبكى الخليفة وهم بنزول القبر ليلحده بيده ثم أمر الداعي فنزل وألحده والخليفة قائم إلى أن كملت مواراته ثم ركب من التربة والناس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأخرج من قاعة الفضة بالقصر ثلاثون حسكة وثلاثون بخورا مكملة وخمسون مثقال ند وعود وشمع كثير فأشعلت الشموع إلى أن صلى الصبح وأطلق البخور واستقر جلوس الناس فصلى القاضي بالناس وفتح باب مجلس الأفضل المعلق بالستور الفرقوبي الذي لم يكن حظه منه إلا جوازه عليه قتيلا.

ورفعت الستور وجلس الخليفة على المخاد الطرية التي عملت في وسطه وسلم الناس على منازلهم وتلي القرآن العظيم.

وتقدمت الشعراء في رثائه إلى أن استحق الختم فختم.

ثم خرج القائد والأمراء إلى التربة فكان بها مثل ما كان بالدار من الآلات وكان عمر الأفضل يوم مات سبعاً وخمسين سنة ومدة ولايته ثمانية وعشرون عاماً ويقال إن الآمر وافق المأمون على قتله فرتب له من قتله.

ثم أمر أن يكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعيه وإشعارهم بصرف العناية إليهم ومد رواق العدل عليهم وتفريقه على نسخ تتلى على رءوس الأشهاد وبسائر البلاد.

فكتب ما مثاله: هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوة على كافة من بمدينة مصر حرسها الله تعالى من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة

على اختلاف طبقاتهم فارسهم ومترجلهم وراجلهم والقضاة والشهود والأماثل وجميع الرعايا بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها وجرت به الأقدار على عادتها ومألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته قدس الله روحه ونور ضريحه وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحه الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمال أثقالها وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها وتخطى الحمام إليه واخترام المنية إياه وتسلطها عليه وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتئامها وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه الأمور بنظره السعيد ومباشرته إياها بعزمه الشديد ورأيه السديد واهتمامه بمصالح الكافة وإسباغ ظل الإحسان عليهم والرأفة حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظليلة المناكب منيرة الكواكب محروسة الأرجاء والجوانب.

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم والنظر في مصالحكم والإحسان إليكم وتأمين سربكم وإعذاب شربكم ومد رواق العدل عليكم وإنصاف مظلومكم من ظالمكم وضعيفكم من قويكم ومشروفكم من شريفكم وكف عوادي المضار بأسرها عنكم وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم جارين على رسمكم وعادتكم من غير اعتراض عليكم رأى ما خرج به عالي أمره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم لتثقوا به وتسكنوا إليه وتتحققوا جميل رأى أمير المؤمنين فيكم وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل وأن باب رحمته مفتوح لمن قصده وإحسانه عميم شامل وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة وفي إحسان سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة.

والله تعالى يمده بحسن الإرشاد ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد بمنه وعونه.

فاعلموا هذا من أمير المؤمنين ورسمه وانتهوا إلى موجبه وحكمه وليعتمد الأمير متولى المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه ويصل علم مضمونه إلى من لم يحضر قراءته ليتحققوا ما ذكر فيه وأودعه وليحمل الناس على ما أمرتهم فيه وليحذر من مجاوزته وتعديه.

ثم أمر الخليفة بإنشاء منشور يتلى مضمونه: خرج أمر أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بإنشاء هذا المنشور بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة قاصيها ودانيها قريبها ونائيها إمضاء ما كان السيد الأجل الأفضل قرره وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علامته في الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال إذ أمر أمير المؤمنين راض بأفعاله محقق لأقواله حامد لمقاصده ممض لأحكامه عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه على أوضاعها وأحكامها وتقريراته في كل منها.

فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة نصرهم الله وأظفرهم وجميع النواب والمستخدمين والكتاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأول فيه أو تعقيد بغير شيئا من أحكامها على ما قرره وأمر به.

وليجلد هذا المنشور في ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته في جميع الدواوين وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم تثبيتا لهذا الأمر المذكور المحتوم إن شاء الله تعالى وفي السادس والعشرين من شوال عمل تمام الشهر على تربة الأفضل كما عملت الصبحة والثالث.

فلما انقضى الختم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه.

ونزل إلى التربة وترحم عليه وعاد.

ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي في تاريخه.

وقال ابن ميسر: وأقام الخليفة في دور الأفضل وفي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوما والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فيما وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم ورقاً وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الألوان وتسعمائة ثوب ديباج ملونة وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة ومن الطيب والآلات ما لا يحصى عدده ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبان ونتاجه في سنة نحو أربعين ألف دينار ودواية يكتب منها مرصعة بالجواهر قوم جوهرها باثني عشر ألف دينار وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية.

قال: وأخذ الآسر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر وهو يرتب ما يحمل بنفسه هو وأصحابه واستمر ذلك مدة شهرين وأيام والأموال تحمل على بغال وجمال إلى القصر والآمر وذكر متولي الخزابة بالقصر أن مما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة ومن براني الصيني الكبار المملوء بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منثور شيء كثير.

وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب وبينها البراني المملوءة بالجواهر فإذا أحب فرغب البرنية في الصينية فتكون ملئها.

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقي وشرب عمل تنيس ودمياط على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه.

وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا فيها العود وغيره مكتوب على كل سفط وزنه وجنسه وبراني بها المسك والكافور وشيء كثير من العنبر.

ووجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوار متقابلات أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر قيام في المجلس عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى بأيديهن مذاب من أعظم الجوهر فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رءوسهن خدمة له بحركات قد أحكمت فإذا جلس في صدر المجلس ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج والدبيقي الحريري والذهب على اختلاف الأجناس أربع حجر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس.

ووجد له عدة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال.

ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة ملبسة بالذهب والفضة مرصعة بالجوهر وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظية لكل واحدة حجرة وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الذهب والفضة من كل صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال والغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط وستون حملا طنافس وخمسمائة قطعة بلور وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل وألف عدل من متاع اليمن والمغرب وتسعة آلاف سرج.

قال ابن ميسر: وكان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيرا ولم يعرف أحد صودر ولا ضبط عليه.

ولما حصر الاسكندرية كان به يهودي يبالغ في سبه وشتمه ولعنه فلما دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدمه للقتل وقد عدد عليه ذنوبه فقال اليهودي: إن معي خمسة آلاف دينار خذها مني وأعتقني واعف عني.

فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا.

وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقتله فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان فإنه كان إذا اعتقل أحداً نسيه ولا يرى بإخرابه.

وكانت محاسنه كثيرة.

وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة وأمر بحفظها لأربابها فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت له.

واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقها من شرق الدنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار فرفع إليه قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرأس عيني لما ولى أن قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع فإن لها السيرة الطويلة لم يطلب شيء منها.

فوقع رقعته: إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لا نستحقه فاتركه على حاله لمستحقيه ولا تراجع فيه.

فأخذها هذا القاضي غرفاً.

وبلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه لسنة خمسة آلاف ألف دينار ومتحصل الأهراء ألف ألف إردب.

وبنى في أيامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة بالجرف المعروف بالرصد والمسجد المعروف بالجيوشي على سطح الجبل.

وبنى مئذنة جامع عمرو بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة.

وعمل خيمة الفرح التي سميت بالقاتول اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب وقائم ارتفاع العمود الذي لها خمسون ذراعا بذراع العمل وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار.

وللشعراء فيها عدة مدائح.

وكان الأفضل يقول الشعر.

فمن شعره في غلامه تاج المعالي:

أقضيب يميس أم هو قدّ ** أو شقيق يلوح أو هو خدّ

أنا مثل الهلال خوفاً عليه ** وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه.

اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق فأمر بضرب عنقها.

فلما وضعت الرأس بين يديه أنشد:

نظرت إليها وهي تنظر ظلّها ** فنزّهت نفسي عن شريك مقارب

أغار على أعطافها من ثيابها ** ومن مسك لها في الذّوائب

ولي غيرةٌ لو كان للبدر مثلها ** لما كان يرضى باجتماع الكواكب

قال: وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين في عزاء الأفضل أربعمائة وعشرين شخصاً فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا الصغير مثل الكبير فقال ابن أبي قيراط: يا مولانا هذا مال كثير.

فقال: إنفاذ أمرنا هذا من بعض حقه علينا.

فجاء مبلغ ما دفع نحواً من أربعة وثلاثين ألف دينار.

قال: والأفضل هو الذي أنشأ بستان البعل والمنتزه المعروف بالتاج والخمس وجوه والبستان الكبير والبستان الخاص بقيلوب وجدد بستان الأمير تميم ببركة الحبش وأنشأ الروضة بحرى الجزيرة وكان يمضي إليها في العشاريات الموكبية رحمه الله.

في مستهل ذي القعدة خلع على القائد أبي عبد الله بن فاتك بذلة مذهبة بشدة الخليفة الداعية وحلت المنطقة من وسطه وخلع على ولده بذلة مذهبة وحلت منطقته أيضا وعلى جميع إخوته بمثل ذلك.

واستمر ينفذ الأمور لا يخرج شيء عن نظره إلى مستهل ذي الحجة ففي يوم الجمعة ثانيه خلع عليه من ملابس الخاص الشريف في فرد كم مجلس العيد وطوق بطوق ذهب مرصع وسيف ذهب مرصع وسلم على الخليفة فأمر الخليفة الأمراء وكافة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه.

ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه وخرج بتشريف الوزارة ودخل على باب العيد راكباً ووصل إلى داره فضاعف الرسوم وأطلق الهبات.

وفي خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة فحضر بالسجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده فقبله وسلمه لزمام القصر وأمر الخليفة المأمون فجلس عن يمينه وقرئ السجل على باب المجلس وهو أول سجل قرئ بهذا المكان وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان.

ورسم للشيخ أبي الحسن أن ينقل نسبة الأمراء والمحنكين والناس جميعهم من الآمري إلى المأموني ولم يكن أحد قبل ذلك ينتسب للأفضل ولا لأمير الجيوش.

وقدمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة وتقدم للأمراء والأجناد فقبلوا الأرض وشكروا هذا الإحسان.

وأحضرت الخلع فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك وطوق بطوق ذهب وسيف ذهب ومنطقة ذهب وخلع على الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست وعلى الشيخ أبي البركات بن أبي الليث وعلى أبي الرضا سالم بن الشيخ أبي الحسن وعلى أبي المكارم أخيه وعلى أبي محمد أخيهما وعلى أبي الفضل يحيى بن سعيد الميمذي ووصل بدنانير كثيرة بحكم أنه قرأ السجل.

وخلع على أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب مغفر المجلس.

ثم استدعى غذى الملك سعيد ابن عمار الضيف متولى أمور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ أقلامه على التوقيعات فخلع عليه.

وفي الأيام الأفضلية لم يكن أحد يدخل مجلسه ولا يصل لعتبته لا من الحجاب ولا غيرهم سوى غذى الملك هذا فإنه كان يقف من داخل العتبة وكانت هذه الخدمة إذ ذاك من أجل الخدم وأكبرها.

قالوا أتاه النّعت وهو السيد ال - - أمون حقّا والأجلّ الأشرف ومغيث أمة أحمد ومجيرها ما زادنا شيئا على ما نعرف وذلك أنه نعت في سجله المقروء على الكافة بالأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين.

ثم تجدد له في نعوته بعد ذلك الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين والدنيا.

ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل وهو السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي رعاة المؤمنين.

ولما استمر نظر المأمون للدولة بالغ الخليفة في شكره فقال له المأمون: ثم كلام يحتاج إلى خلوة.

فأمر بخلو المجلس.

فقال: يا مولانا امتثال الأمر متعب ومخالفته أصعب وما تتسع خلافة قدام آمر الدولة وهو في دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده وما في قواي ما يرومه ويكفيني هذا المقدار وهيهات أن أقوم به والأمر كبير.

فتغير الخليفة وأقسم: إن كان لي وزير غيرك! فقال المأمون: لي شروط وقد كنت مع الأفضل وكان اجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل وكان أولاده يكتبون إليه بكوني قد خنته في المال والأهل وما كان والله العظيم ذلك مني يوما قط ومع ذلك معاداة الأهل جميعهم والأجناد وأرباب الطيالس والأقلام وهو يعطيني كل ورقة تصل إليه منهم وما يسمع كلامهم.

فقال الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته إيش يكون فعلي أنا فقال: يعرفني المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط ألا يكون عليه زائداً.

فأول ما ابتدأ به أن قال: أريد الأموال لا تبقى إلا بالقصر ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور إلا إليه ولا تفرق إلا منه وتكون أسمطة الأعياد فيه وتوسع في رواتب القصور من كل صنف وزيادة رسم منديل الكم.

فقال المأمون: سمعا وطاعة أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصور وأما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الأمر وأما منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين دينارا يكون في كل يوم مائة دينار ومولانا سلام الله عليه يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها.

ففرح الخليفة.

وقال المأمون: أريد بهذا مسطوراً بخط أمير المؤمنين ويقسم لي فيه ألا يلتفت لحاسدٍ ولا ينقبض ومهما ذكر عني يطلعني عليه ولا يأمر فيّ بأمر سراً ولا جهراً يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي فإذا توفيت تكون لأولادي ولمن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة وكتب ذلك جميعه وأشهد الله في آخرها على نفسه.

فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه وكان الخط نسختين فلما قبض على المأمون في رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة كما سيأتي إن شاء الله أنفذ الخليفة طلب الأمان فأنفد إليه نسخة منهما فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فأعدمت.

في هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان.

سنة ست عشرة وخمسمائة

في المحرم كان المولد الآمري.

وتقرر السلام على الخليفة في يومي الاثنين والخميس فأما في يومي السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجية إلى القصر ويركب الخليفة إلى ضواحي القاهرة للنزهة وأما الأحد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون في داره على سبيل الراحة.

في صفر سب أحد صبيان الخاص الآمري صاحب الشرع وشهد عليه فضربت عنقه وصلب.

فيه وصل فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار صاحب طرابلس.

وكانت الدولة قد حولت الثغر في أيديهم على سبيل الولاية فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يدها ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولاتهم.

ومضى ذلك السلف وخلفهم القاضي فخر الملك هذا في الأيام الأفضلية فجرى على تلك الوتيرة ودفع إلى محاصرة الفرنج له مدة سبع سنين فضاق خناقه وأيس فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجداً فلم يجد ناصراً.

واختلت أحواله وعاد إلى دمشق وقد ملك الفرنج طرابلس فسار إلى مصر.

وقال في: كتابه والمملوك لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها فإن خرج الأمر بذلك فمنة كريمة وإن خفف عنه فتخليده في السجن أحب إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدوله.

فلما عرض هذا بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن استفظع كل من الحاضرين أمره وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود.

فقال المأمون للخليفة: قد أجل الله عواطف مولانا ورحمته من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه فإن العفو زكاة القدرة عليه ويشمله ما شمل أمثاله.

فأعجب الخليفة الآمر ذلك وخرج الأمر بأن تعدد على ابن عمار ذنوبه وذنوب أسلافه ويقال له: قد أذهبت مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك.

فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: قد غفر ذنبك وأنت مخير بين أمرين إما أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد ويصحبك من يوصلك إلى مأمنك وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعنيك وتقنع بما ينعم به عليك وتقبل على شأنك وتترك التعرض للمخالطات وتتجنب جميع المكروهات.

فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه وكلما خوطب في رفعه قال لست أرفعه حتى أتلقى كلمات العفو عن إمام زماني وتمتلئ مسامعي بألفاظ مغفرته.

فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه وحصل له الأمن وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر وحملت إليه الضيافات الكثيرة وجرد برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين.

فأقام أياما يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظير لها ووصله من المواهب ما أربى على أمله.

وقرر له راتبا في كل شهر ستون دينارا مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان.

وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم ورفع عنه الحاجب والمستخدمون وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه عن أمثاله.

ولزم طريقة حمدت منه فاستمر إليه الإحسان وصار يركب في يومي الركوب ويومي السلام وغيرهما.

وفيه أفرج عن الأمير عضب الدولة عز الملك أبي منصور بنا وكان له في الاعتقال ثلاث عشرة سنة لأنه كان والي عكا وسلمها إلى الفرنج فلما وصل رماه الأفضل في الاعتقال فلما أفرج عنه أعيد عليه نظير ما كان قبض عنه للاصطبلات والخزائن وولي البحيرة.

وأفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين منهم أبو المصطفى جوهر ودخل السجن وهو شاب فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة الذي حضر في الأيام الأفضلية بسبب أموال التجار ومعه كتاب بتهنئة المأمون فجهز إلى الأعمال القوصية بالاهتمام بالجناب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى

المرمة وتجديد عوض ما تلف وأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون إردباً برسم مكة وتخوت ثياب وخلع ومال وبخور.

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج فكتب المستخدمون في الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفي المشاهد عوضاً عن الزيت الطيب الزيت الحار فخرج الجواب بالتحذير من ذلك وبألا يطل إلا الزيت الطيب ولا يلتفت إلى غلو السعر في الخدم التي هي من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا بنقص من المطلق شيء.

وبلغ المأمون أن مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبراً وخلطه بالزيت لمنع القومة من التعرض لشيء منه فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يقوم من ماله بثمن الزيت الذي فيه الصبر ويطلق الزيت المستقر إطلاقه على تمامه.

وقيل له: قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلا من فضلات وقود كنائسهم ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرم عليهم البيع.

وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالي والخراجي على جملتين إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة والثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها.

فلما حضرت أمر بكتابة سجل بالمسامحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة ومبلغ ما سومح به من البواقي ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينارا ومن الورق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم ومن الغلة ثلاثة آلاف الف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردبا ومن الأرز والكتان وحرق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والفود والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرادلي شيء كثير ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلثمائة وخمسة رءوس ومن البسر والنخيل والجريد والسلب والأطراف والملح والأشنان والرمان وعسل النحل والشمع وعسل القصب شيء كثير ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا ومن الدواب والسمن والجبن والصوف والشعر شيء كثير.

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السجل عند ذكر الخراج من هذا الكتاب.

وقرئ منشور بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع مما يعتمد في الدواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات وإعفاء الكافة من المعاملين والضمناء من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم.

فيه تحول الخليفة الآمر إلى اللؤلؤة وأقام فيها مدة النيل على الحكم الأول وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها وتحول معه الوزير المأمون بن البطائحي والشيخ أبو الحسن ابن أبي أسامة كاتب الدست وحاجب الحجاب وحسام الملك ورتبت الرهجية والحرس وأطلق لهم ما يقوم بهم.

وصار الخليفة يمضي في السراديب من اللؤلؤة إلى القصر في يومي السلام فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواص ويحضر الوزير على عادته ويحمل الأسمطة ويحضر الناس على العادة ويركب في يومي الثلاثاء والسبت إلى المتنزهات.

فيه تقدم الوزير بتجديد المشاهد التسعة التي بين القرافة والجبل.

وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية في آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ويحذر من بيع الخمر فرأى الوزير أن يكون ذلك في سائر الأعمال فكتب إلى ولاة الأعمال وأن ينادي بأن من تعرض لبيع شيء من هذين الصنفين أو لشرائهما سرا وجهراً فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها.

لما كان مستهل رجب عملت الأسمطة على العادة فقال الخليفة الآمر لوزيره المأمون: قد أعدت لدولتي بهجتها وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها وهي ليالي الوقود الأربع.

فامتثل الأمر وعملت.

واستجد في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصين الآمري والمأموني قنطار سكر ومثقالا مسك ودينارات برسم المؤن ليعمل خشكنان وتشد في قعاب وسلال صفصاف وكان يسمى بالقعبة ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون.

ووصلت كسوة الشتاء فكانت أربعة آلاف قطعة وثلثمائة وخمس قطع.

ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار وكان عندهم الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجميع وفي غيره للأعيان خاصة.

وعمل الختم في آخر شهر رمضان بالقصر وعبئ سماط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر فكان سماطاً جميعه من حلاوة الموسم.

وصلى الخليفة الآمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب وكان ذلك قد بطل في الأيام الجيوشية والأفضلية.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة خارجاً عن التوسعة المطلقة أصنافاً برسم الخليفة وجهاته وخارجا عن العطية وخارجاً عن رسم القراء والمسحرين وخارجاً عن الأشربة والحلاوات من ألعاب ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا.

وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان بما تقدم شرحه والتوسعة والصدقات والفطرة وكسوة الغرة والعيد مائة ألف دينار عينا.

وضرب في خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خروبة وكانت العادة أن يضرب في كل سنة خمسمائة دينار.

وفي شوال هذا وصل شاور من أسر الفرنج وكان مأسوراً من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره وبذلت عشيرته في افتكاكه جملةً كبيرة فلم يقبل منهم وطلب فيه أسير من الفرنج فلم يجبهم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرا أبداً.

فلما ولي المأمون الوزارة وميز رديني مقدم العربان الجذاميين وقبيلته وشاور من بني سعد فخذ من جذام وقف مجير أخو شاور وإخوته للمأمون وما زالوا به حتى أطلق الأسير فأطلق الفرنج شاوراً في شوال وأثبت في الطائفة المأمونية وكان هذا ابتداء حديث شاور.

وفيه تنبه ذكر الطائف النزارية وقرر بين يدي الخليفة بأن يسير رسولاً إلى صاحب ألموت بعد أن جمعت فقهاء الإسماعيلية والإمامية وهم لي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة وجميع دعاة الإسماعيلية وأبو محمد بن آدم متولى دار العلم وأبو الثريا ابن مختار فقيه الإسماعيلية ورفيقه أبو الفخر والشريف ابن عقيل وشيوخ الشرفاء وقاضي القضاة وأولاد المستنصر وجماعة من بني عم الخليفة وأبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست وجماعة من الأمراء وقال لهم المأمون: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا خرج عن المذهب وحل ووجب قتله وإن كان والده المستنصر نعته ولي عهد المسلمين ونعت إخوته منهم أبو القاسم أحمد بولي عهد وذكر حسين بن محمد الموصلي أن اليازوري لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله: ضربت في دولة آل الهدى ومن آل طه وآل ياسين مستنصرا باللّه جل اسمه وعبده الناصر للدّين في سنة كذا ولم يقم بعد ذلك إلا دون الشهر فاستعيدت وأمر ألا تسطر.

ودليل يعضد ذلك أنه لما جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسير أولاده وهم: الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش ثم أتبعه أبي علي والأمير أبي القاسم والد الحافظ إلى عسقلان وسير نزاراً إلى ثغر دمياط سير الأعلى إلى ولم يسمح بسفر الإمام المستعلى ولا خروجه من القصر لما أهله له من الخلافة ولا أبعده خوفاً من حضور المنية فلما وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها ورغب الإمام المستنصر في عقد نكاح ولده الإمام المستعلى على ابنته أخت الأفضل وعقد النكاح بنفسه سماه في كتاب الصداق مولى عهد أمير المؤمنين وعلم عليه بخطه.

ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمام المستعلى بما شاهده كل حاضر وبما ذكرته السيدة ابنة الإمام الظاهر شقيقه الإمام المستنصر في صحة إمامته.

فكتب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب ألموت مضناً بشهادة الجماعة بذلك.

ثم وصل في أثناء ذلك كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قد قويت شوكتهم واشتدت في البلاد طمعتهم وأنهم يسيرون المال مع التجار إلى قوم يخبرون أسماءهم وأنهم سيروا لهم الآن ثلاثة آلاف دينار برسم النجوى وبرسم المؤمنين الذين ينزل الرسل عندهم ويختفون في محلهم فتقدم المأمون بالفحص عنهم والاحتراز التام على الآمر في ركوبه ومتنزهاته وحفظ الدور غيرها.

ولم يزل البحث التام في طلبهم إلى أن وجدوا عند قوم من أهل البلد فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال من البلاد المشرقية فراموا قتلهم فأشار المأمون بتركهم.

وأحضر الشيخ أبو القاسم بن الصيرفي وأمر بكتب سجل يقرأ على رءوس الأشهاد وتفرغ منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفي نزار عن الإمامة وشهر الجماعة المقبوض عليهم وصلبوا وامتنع الآمر من قبض الألفي دينار الواصلة للنجوى وأمر بحملها إلى بيت المال وأن تنفق في السودان عبيد الشراء خاصة.

وأمر بأن يحضر من بيت المال نظير المبلغ وتقدم بأن يصاغ قنديلين ذهباً وقنديلين فضة وأن يحمل قنديلان ذهبا وفضة إلى مشهد الحسين بعسقلان وقنديلان كذلك إلى التربة.

وأطلق المأمون من ماله ألفي دينار وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحضر من عسقلان وأن يصاغ على المصحف الذي بخط علي بن أبي طالب وأطلق من حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجاري برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في

الجوامع الثلاثة: الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة وعلى فقراء المؤمنين وعلى أرباب القصور.

وأطلق من الأهراء ألفا إردب قمحاً وتصدق عدة من الجهات بجملة كثيرة.

واشتريت عدة جوار من الحجر وكتب عتقهن وأطلق سراحهن.

قال ابن ميسر وقد ذكر هذا المجلس: وقد كانت أخت نزار في قاعة بجانب الإيوان من القصر وعلى الباب ستر وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين.

فلما جرى هذا الفصل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء هذا الستر فعرف بها إخوتها وبنو عمها وأنه ليس غيرها وراء الستر.

فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا علي يا جماعة الحاضرين وبلغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزاراً لم يكن له إمامة وأنني بريئة من إمامته جاحدة لها لا عنة لمن يعتقدها لما علمته من والدي وسمعته من والدتي لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحرارة والبرياصة للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجرة في ولديهما فأحضرهما المستنصرين يديه وأنكر عليهما وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر صاحبه معروف في وقته.

وشاهدت والدي المستنصر في مرضته التي توفى فيها وقد أحضر المستعلى وأخذه معه في فراشه وقبل بين عينيه وأسر إليه طويلاً وقد دمعت عيناه وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا ومد يده إليها فقبلها وعاهدها وأشهد الله تعالى معلناً ومظهراً.

فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحتها الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد ووقف بظاهر المقرمة ثم جلس وكلهم قيام وأخذ في التعزية ثم قال: يا مولاتنا من ارتضاه للخلافة فقالت: هي أمانة قد عاهدني عليها وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد.

فحضر وبايعته عمتي وبايعه أخوه الأكبر عبد الله فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه وأمر بالتوكيل على نزار وتأخيره فأخر إلى مكان لا يصلح له.

واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين.

وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة ووالله ما مضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالإسكندرية لطلب إمامة ولا لادعاء حق ولكن طالب بالزوال للأفضل وإبطال أمره لما فعله معه.

والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه.

فشكرها الناس على ذلك.

وكان سبب حضور أخت نزار في هذا المجلس أن المأمون قال للآمر: قد كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله وأما القصر فما لي فيه حيلة.

ولوح أن أخت نزار وأولادها لا يمكنني كشف أمرهم.

فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت إلى الخليفة الآمر لتبرئ نفسها ورغبت أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له.

فاستحسن الآمر ذلك منها وأحضر المأمون وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلى واتفقوا على يوم يجتمعون فيه.

فلما كان في شوال عمل المجلس المذكور.

وأما النزارية فإنها تقول إن المستنصرمات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة والجند جنده وغلمان أبيه لا يعرفون سواه وكان نزار لما يرى من غلبة الأفضل على الدولة يتكلم بما بلغه فينكره فلما مات المستنصر والأفضل متخوف من شر نزار أقام أحمد ابنه المستعلى لأنه زوج أخته ولأنه صغير.

وفيها أراد الآمر أن يحضر إلى دار الملك في يوم النوروز الكائن في جمادى الآخرة ويركب إليها في المراكب على ما كان عليه الأفضل فمنعه المأمون من ذلك وقال: يا مولانا الأفضل لا يجري مجرى أمير المؤمنين.

وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة.

وفي شوال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا ومنية زفتى ليس فيهما جامع فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه فسار وبنى جامعا على شاطىء النيل بمنية زفتى وقرر فيه خطيباً وإماماً ومؤذنين وفرش وأطلق برسمه نظير ما للجوامع.

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي من الإسكندرية بالكتاب الذي حمله: سراج الملوك فأكرمه وأمر بإنزاله في المجلس المهيأ للإخوة وتقدم برفع أدوية الكتاب وأوطئة الحساب وسلام الأمراء وعمل السماط وسارع إلى البادهنج واستدعى بالفقيه.

فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة وجلس بين يديه ثم انصرف ومعه أخو المأمون إلى مكان أعد له وحمل إليه ما يحتاج له وأمر مشارف الجوالي أن يحمل له في كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب فامتنع الفقيه وأبي أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية.

وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته ويبالغ في كرامته ويقضي شفاعاته.

وكان السبب في حضوره أنه تكلم في الأيام الأفضلية في أمور المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام وهو ربع العشر وأمر توريث الابنة النصف فلم يقبل ذلك ففاوض المأمون فيه وقال: هذه قضية وجدتها وما أحدثتها وهي تسمى بالمذهب الدارج ويقال إن أمير الجيوش بدر هو الذي استجدها وهي أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه وقد مر على ذلك سنون وصار أمراً مشروعا فكيف يجوز تغييره.

فقال له الفقيه: إذا علمت ما يخلصك من الله غيرها فلك أجرها.

فقال أنا نائب الخليفة ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصبة ولا بيت مال ويتمسكون بأنه من كتاب الله كما يتمسك غيرهم وأبو حنيفة رحمه الله يوافقهم في القضية.

فقال الفقيه: أنا مع وجود العصبة فلا بد من عدتها.

فقال المأمون أنا لا أقدر أن أرد على الجماعة مذهبهم والخليفة لا يرى به وينقضه على من أمر به بل أرى بشفاعة الفقيه أن أرد الجميع على رأى الدولة فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه ولا أمر به الرسول عليه السلام.

فأجاب إلى ذلك.

وأمر الوزير أن يكتب به وأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عما يقتضونه من ربع العشر بتقرير جار لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية وأخذ الفقيه في ذكر بقية حوائج أصحابه وكتب منه توقيع فرغت

منه نسخ منها ما سير إلى الثغور وكبار الأعمال وشملته العلامة الآمرية وبعدها العلامة المأمونية.

ونسخته بعد البسملة: خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش ونعوته والدعاء وهو الخالصة أفعاله في حياطة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين والهمة الموقوفة على الترقي إلى درجات المتقين والعزائم الكافلة بتشديد أحوال الكافة أجمعين شيمة خصه الله بفضيلتها جبلة أسعد بجلالها وشريف مزيتها.

والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة وأنحاء الميامن كافلةً ضامنة من أمر المواريث وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم وما دخل عليها منهم من الفساد والخروج بها عن المعهود المعتاد وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه: " وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ".

ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهن ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهن بعدهم عدولاً عن محجة الدولة وخروجاً عما جاء به العباد من الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة فهم قراء القرآن وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان وإليهم سلم المؤمنون وعلى هديهم وإرشادهم يعول الموقنون فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول بعيدة من التحقيق خالية من المحصول ولم ير إلا العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين وأسلافه العلماء المهديين صلوات الله عليهم أجمعين.

وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة الملك النائب في الحكم عنه بتحذيره والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال دانيها وقاصيها قريبها ونائيها من الاستمرار على تلك السنة المتجددة ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة وأسلافه الكرام البررة وإعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها والإفراج عنها برمتها لمستحقيها من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها وأن يضربوا عما تقدم صفحا ويطووا دونه كشحا منذ تاريخ هذا التوقيع وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى ولا متعقب لما ذهب وانقضى.

وليوف الأجل المأمون عضد الله به الدين بامتثال هذا المأمور والاعتماد على مضمون هذا المسطور وليحذر كلا من القضاة والنواب والمستخدمين في الباب وسائر الأعمال من اعتراض موجود أحد ممن يسقط الوفاة وله وارث بالغ رشيد حاضر أو غائب ذكرا كان أو أنثى من سائر الناس على اختلاف الأديان بشيء من التأولات أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات إلا ما أوجبته بينهم المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات نظراً إلى مصالح الكافة ومدا لجناح العاطفة عليهم والرأفة ومضاعفة للأنام وإبانةً عن شريف القصد إليهم والاهتمام.

فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب فموجوده لبيت المال بأجمعه على الأوضاع السليمة والقوانين المعلومة القويمة إلا ما يستحقه خرج إن كان له أو دين عليه يثبت في جهته.

وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكميا وقانونا شرعيا مصوناً من الاصطلام محروساً من التفريط والاختزام فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد يقبضه عليه.

وكذلك نمى إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام والتعرض إلى الممنوع الحرام اصطلاحاً استمروا على فعله واعتماداً لم يجر الأمر فيه على حكمه فكره ذلك وأنكره.

واستفظعه وأكبره واقتضى حسن نظره في الفريقين ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جارياً يقام لكل منهم من الإنعام وأمر بوضع هذا الرسم وتعفيته وإبطاله وحسم مادته.

فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب وليصدر الإعلام إلى سائر النواب سلوكاً لمحجة الدين وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتقين بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رءوس الأشهاد ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال وليجلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمري وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده.

وكتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة.

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة.

وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر.

وأما المسجد الذي بالمحجة فإن المؤتمن عند مقامه بالثغر بناه.

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا ليس بها جمعة تقام فأمر ببناء جامع بها ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم.

وقيل إن الذي أنشأه المأمون في وزارته وفي أيام الأفضل أحد وأربعون مسجداً مع ما أمر بتجديده بعد وزارته بالقاهرة ومصر وأعمالهما ما يناهز مائتي مسجد.

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة ودار وكالة.

وفي ذي القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر والي قوص.

وركب المأمون إلى الجامع الأزهر فلما كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الراسعيني وصلى فلما قرأ الفاتحة لحقه زمع شديد وارتعد فلحن في الفاتحة وقرأ: " والشَّمْسِ وَضُحَاهَا " فلما قال: " نَاقَةَ اللّهِ وَسُقْيَاهَا " أرتج عليه فرد المؤتمن حيدرة أخو المأمون عليه فاشتد زمعه فكرر عليه الرد فلم يهتد وقال: " وسقناها " بالنون: فقرأ المأمون بقية السورة وسجد الناس.

وقام في الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه بشيء فقرأ المأمون الفاتحة " قُلْ هُوَ اللّه أَحَدٌ " وقنت وهو معه يلقنه.

فلما انقضت الصلاة اشتد غضب المأمون وأمر متولى الباب بأن يختم المقرئون.

وتخيل المقام وخرج من الجامع فوكل بالقاضي من يمضي به إلى داره ويأمره بالمقام بها من غير تصرف حتى يحفظ القرآن وقرر له راتباً فيما بعد ولزم داره.

وأنفذ للوقت إلى القاضي أبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي من قضاة الغربية فأحضره وخلع عليه في القصر بذلة مذهبة وسلم به على الخليفة وسلم إليه السجل في لفافة مذهبة بنيابته في الكم العزيز والخطابة

والصلاة وديوان الأحباس ودور الضرب بسائر أعمال المملكة ونعت فيه بالقاضي جلال الملك تاج الأحكام فقبله ووضعه على رأسه.

وتلى على منابر القاهرة ومصر.

وكان يحضر في يومي الاثنين والخميس إلى مجلس المظالم بين يدي المأمون ويستعرض القصص ويناقش فيها ويباحث مباحثة الفقهاء العلماء فزاد المأمون في إكرامه ورد إليه وكالة الخليفة وكتبت له الوكالة وشرف بالخلع.

وتولى قوص الأمير مؤيد الملك وخلع عليه وأمر أن يبنى بقوص دار ضرب وجهز معه مهندسين وضرابين وسكك العين والورق وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم فضة فضربت هناك وصار ما يضرب باسم الآمر في ستة مواضع: القاهرة ومصر وقوص وعسقلان وصور والإسكندرية.

وقرر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف الإسرائيلي الأصل لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم وأقطع داراً بالقاهرة وكتب له منشور نسخته بعد البسملة.

ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره وأنفس ما وشحت الدول بجميل أثره تخليد الفضائل وإبداء ذكرها وإظهار المعارف وإيضاح سرها لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع.

لقوله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو همته من إنماء العلوم وإشهارها
واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها ليبقى جمال ذلك شاهداً لها على مر الأيام متسقاً بما أفشاه لها من المآثر الجمة والمفاخر الجسام لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه أيده الله لصرف رعايته إلى شرح كتب أبقراط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاها وأكثرها إغماضاً وأبقاها وإلى التصنيف في غير ذلك من أنحاء العلوم مما يكون منسوباً إلى الأوامر العالية ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له وحمل ما يكمل أولاً أولاً إلى خزائن الكتب وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه فمن كملت عنده صناعته فليجره على رسمه ومن كان مقصراً فليستنهضه.

واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزاً في البراعة في العلوم متصرفاً في فنونها مقدماً في بسطها وإظهار مكنونها ولأنه يبلغ الغرض المقصود في شرح هذه الكتب ويوفى عليه ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه وفي جميع ما شرع له.

فليشرع في ذلك مستعيناً بالله منفسح الأمل بإنهاضنا له وجميل رأينا فيه بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى.

وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة فانتصب لطالبي علم الطب وأقبل أطباء البلدين إليه واجتمع في أيدي الناس من أماليه كثير وجعل له يومين في الجمعة يشتغل فيهما ويتوفر في بقية الأسبوع على التصنيف وحمل ذلك إلى الخزائن واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه.

ولما أهل ذو الحجة جرى الحال في الهناء ومدائح الشعراء في القصر بين يدي الخليفة وبالدار المأمونية على الحال المستقرة واستقبله المأمون بالصيام وأخرج من ماله ما زاد عن المستقر في كل عام برسم الأطفال من الفقراء والأيتام من أهل البلدين وغيرهم ولم يتعرض لطلب ذلك من المميزين بحكم ما يعملونه من السنين المتقادمة.

ومما ابتكره ولم يسبقه إليه أحد أن استعمل ميقاط حرير فيه ثلاث جلاجل وفتح باب طاقة في الروشن من سور داره فصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشي طرت السلسلة ودلى الميقاط من الطاق وعلى هذا المكان جماعة مبيتون بحقه من المغاربة فمن حضر من الرجال والنساء بتظلمه سدد قصة في الميقاط بيده ويحركه بعد أن يقف من حضره على مضمون الرقعة فإن كانت مرافعةً لم يمكنوه من رفعها وإن كانت ظلامةً مكنوه من ذلك ويعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصد بعمل ذلك أنه من حدث به ضرر من أهل الستر أو كانت امرأة من غير ذات البروز ولا تحب أن تظهر أو كانت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاط.

وحضرت كسوة عيد النحر وفرقت الرسوم على من جرت عادته بها خارجاً عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته فكان منها سبعة عشر ألفا وستمائة دينار برسم القصور جميعها وجملة ما نحر وذبح الخليفة خاصة دون الوزير في ثلاثة أيام النحر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأساً منها نوق مائة وثلاثة عشر وبقر ثمانية عشر رأسا وجاموس خمسة عشر والبقية كباش ومبلغ المصروف على أسمطة الثلاثة أيام خارجاً عن أسمطة الوزير ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا ومن السكر ثمانية وأربعون دينارا.

وعمل عيد الغدير على رسمه.

وركب الخليفة إلى قليوب ونزل بالبستان العزيزي لمشاهدة قصر الورد على العادة المستقرة والسنة المتقدمة وفرقت الصدقات في مسافة الطريق وضربت الخيم وقدمت الأسمطة.

ثم عاد في آخر النهار إلى قصره.

وفي هذه السنة سير المأمون وحشي بن طلائع إلى صور فقبض على مسعود بن سلار واليها لمخالفته وأحضره.

وفيها تجهز الأسطول وسارت المراكب فيها خمسة عشر ألف أردب قمحا وأقوات كثيرة إلى صور.

فلما وصل خرج إليه سيف الدولة مسعود واليها من جهة طغتكين فلما سلم عليهم سألوه النزول إليهم فلما حصل في المركب اعتقل وأقلع الأسطول به إلى مصر فأكرم وأنزل في دار وأطلق له ما يحتاج إليه وسبب القبض عليه كثرة شكوى أهل صور منه.

وفيها وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

في غرتها عمل برسم أول العام ثم حزن عاشوراء فالمولد الآمري على ما جرى به الرسم.

وخلع على المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبي تراب حيدرة أخي الوزير المأمون بدلة مذهبة خاص من لباس الخليفة وطوق ذهب وسيف ذهب بغير منطقة وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه وسلم إليه تقليد في لفافة مذهبة بولاية الإسكندرية والأعمال البحرية وشدت له الأعلام القصب والفضة والعماريات وحمل بين يديه الأكياس برسم التفرقة.

وحجبه الأمراء والأستاذون وقبل أبواب القصر ومضى إلى داره وأطلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسمائة دينار.

وثار اللواتيون وغيرهم بالصعيد الأدنى وقتلوا زين الدولة علي بن تراب الوالي وعاثوا في البلاد وأفسدوا.

فخرج إليهم المؤتمن أخو الوزير وتاج الدولة بهرام زنان الأرمن في عدة وافرة فانهزموا بين يديه وأحاط بما خلفوه من المواشي.

وبلغه نزول مراكب الروم والبنادقة وهي بضع وعشرون مركبا على الإسكندرية فبادر إليها المؤتمن فلما شاهده العدو أقلع فأخذ منهم عدة قطع.

وقدم على المؤتمن مشايخ اللواتيين والتزموا بحمل ثلاثين ألف دينار في نظير جنايتهم وأن يعفى عنهم فأجابهم الوزير إلى ذلك وحمل المال مع الرهائن.

وكان المؤتمن لما قدم إلى الثغر خيم بظاهره وقبل من القاضي مكين الدولة أبي طالب أحمد بن الحسن بن حديد بن أحمد بن محمد بن حمدون المعروف بابن حديد متولى الأحكام والإشراف بها ما حمله إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيام ثم أمره بإنفاقها بعد ذلك إلا ما يقتضيه رسمه خاصة.

وأظهر كتاب أخيه الوزير بأن الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يحمل ويساق وتكتب به الوصول على ما جرت به العادة.

وأمره ألا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولا هدية.

وأظهر كتاباً آخر إلى مكين الدولة بأن يطلق في كل يوم من ارتفاع الثغر من العين ما يبتاع به جميع ما يحتاج إليه من الأصناف برسم الأسمطة للعساكر.

وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود.

وكان تجار الثغر قد حملوا ثلاثة آلاف دينار فأبى المؤتمن قبولها وأمر بإعادتها إلى أربابها فأخذ مكين الدولة يتلطف في أن يكون عوض ذلك طرفاً وطيبا فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئا.

واستمرت الأسمطة في كل يوم ولم يقبل لأحد هدية.

واتفق أن المؤتمن وصف له الطبيب دهن شمع والقاضي مكين الدولة حاضر فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي إلى داره ليحضر الدهن المذكور فلم يكن أكثر من مسافة الطريق حتى أحضر صراً مختوماً فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مجاوم مذهب على مداف بللور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قتد ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر بيت دهن بمسك وبيت دهن بكافور وبيت دهن بغير طيب ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته.

فلما رآه المؤتمن والحاضرون عجبوا من علو قيمة القاضي وجليل رئاسته وسعة نفسه وحلف القاضي الحرام إن عاد إلى ملكه.

فقال المؤتمن قد قبلته منك ليس لحاجة إليه ولا نظر في قيمته بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها.

وذكر أن قيمة المداف المذكور خمسمائة دينار.

وخلع المؤتمن على القاضي بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير وقدم له دابة بمركب حلى ثقيل ثم خلع عليه في اليوم الثاني والثالث كذلك.

وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزمة فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء.

وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه.

وعاد إلى القاهرة فمدحه عدة من الشعراء.

وورد رسل ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب بالحث على غزو الفرنج وكبيرهم علي بن حامد الحاجب.

فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك وأوقفا عند باب البحر قدر ما جلس الخليفة.

فجهز عسكر في البر مقدمه حسام الملك النرسي وسار الأسطول في أربعين شينياً فوصلوا إلى عسقلان وخرجت الغارات وعادت بالغنيمة.

فاجتمعت طوائف الفرنج وكتب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر ويلقى الفرنج عليه ولا يتعداه فخالف ذلك وتوجه مخفاً بغير ثقل ونزل على يافا فقتل وأسر.

فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى تبنى فلقيهم هناك فانهزم العسكر من غير قتال وقتل الراجل بأسره وعاد من بقي مهزوما إلى عسقلان.

ووصل الخبر بذلك فأهم الآمر والمأمون واشتد الحنق على حسام الملك لسوء تدبيره فآل أمره بعد أمور إلى أن قتل.

فيها خرج أمر المأمون إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً.

ولذلك ألزم أصحاب القرب وتقرر أن يبيتوا على باب المعونة ومعهم عدة من الفعلة بالطواري والمساحي وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما.

وعمل بعض التجار لابنته فرحا في إحدى الآدر المعروفة بالأفراح فتسور ملاك الدار على النساء وأشرفوا عليهن والعروس في المجلى فأنكر عليهم ذلك فأساءوا وأفسدوا على الرجل ما صنعه فخرج مستغيثا فخشوا عاقبة فعلهم فما زالوا به حتى كف عن شكواهم.

فلما حضر والي مصر بالمطالعة في الصباح إلى الوزير على عادته قيل له: لم لا ذكرت في مطالعتك ما جرى للتاجر الذي عمل فرح ابنته فاعتذر بأن

المرسوم له ألا يذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ولم يتصل به ما جرى في الفرح.

فأسمعه ما أمضه وبين عجزه وتقصيره وقال له والسلامة والعافية فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها فمن رغب في استمرار ملكه على حاله فليزل التطرق إليه ويكتب عليه حجة بالقسامة بذلك.

ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة بألا يوجد ملكه للأفراح ويتصرف فيه على ما يريد.

فامتثل ذلك.

وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة.

وكتب لجميع الأعمال خلا قوص وصور وعسقلان بمطالعة كل وال منهم في مستهل كل شهر بمن حواه السجن والموجب لاعتقاله ويبين كل منهم ذلك ويعتمد فيه الحق.

وسبب ذلك أنه رفع إلى المأمون أن بعض الولاة يعتقل من لا يجب عليه اعتقال لطلب رشوة فتطول مدته.

وفيه قرر برسم رش ما بين البلدين مصر والقاهرة في كل يوم من اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة مما يصرف للسقائين دينار واحد فاستمر ذلك يطلق لهم إلى الأيام الحافظية.

وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رفع للوزير المأمون أن واليي القاهرة ومصر يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش ما بين البلدين سخرةً بغير أجرة.

وفي جمادى الآخرة أعيد ثغر صور إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق وكتب له بذلك وفخم فيه وعظم ونعت بسيف امير المؤمنين وجهزت إليه الخلعة وهي بدلة طميم منديلها طوله مائة ذراع شرب فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقي وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي سلف المنديل والثوب ألف دينار وثوب دبيقي وسطاني وثوب سقلاطون داري وثوب عتابي وشاشية دبيقي ولفافة وجميع ذلك في تخت مبطن عليه لفافة دبيقي وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه.

وجهز الأمين الدولة جمشتكين صاحب صلخد بذلة مذهبة ومنديلها وعدة ثياب وغيرها.

في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين وقد غنموا شينيين من شواني الفرنج وبطشة كبرى وعدة من النساء والرجال.

وذكر للمأمون أن الأسرى المذكورين يؤخذ منهم في الفداء ما يزيد عن عشرين ألف دينار عينا فقال: والله لا أبقي منهم أحدا قد قتل لنا خمسمائة رجل يساوون مائة ألف وقد أظفر الله بما يكون ديةً عنهم لا يشاع عنا أنا بعنا الفرنج وربحنا أثمانهم عوضا عن رجالنا.

وركب الخليفة بما جرت به العادة واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة وعاد وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرؤساء.

وحضرت الحجاب المندوبين لقتل الفرنج بأنهم لما شاهدوا الحال بذلوا في خلاص أنفسهم ثلاثين ألف دينار وأنه يرجى منهم أكثر من ذلك فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السيف فيهم فقتل الرجال بأسرهم وقد اجتمع الناس وضجوا بالتهليل والتكبير عند قتلهم فكان أمراً مهولاً.

وقد ذكر هذا اليوم عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في أسمطة شهر رمضان والركوب إلى الجمع وفي كسوة غرة شهر رمضان على العادة.

وفيه سير هلال الدولة سواراً رسولاً إلى حرة اليمن وصحبته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة وما زج عرقه من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النفوسى والمغربي المقصور والإسكندراني المطرز جملة كثيرة في تخوت مدهونة مبطنة وسلال مملوءة من لحم الناقة التي نحرت بالمصلى واثنى عشر مجلساً من المساطير التي تقرأ كل خميس وعليها علامة الخليفة وكثير من النحاس القضيب والمرجان.

وكتب إليها كتابا في قطع الثلثين أوله: من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلى الله عليهما إلى الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن سيدة ملوك اليمن عدة الإسلام خالصة الإمام نصيرة الدين عصمة المسترشدين كهف المستجيرين ولية أمير المؤمنين وكافية أوليائه الميامين أدام الله تمكينها ونعمتها وأحسن توفيقها ومعونتها.

وفي آخره: وأمير المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك ومعرفة أنبائك فتواصلى بإنهاء المتجدد منها إن شاء الله.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ويطوى مدوراً ويختم بحرير وأشرطة ذهب وعنبر ويجعل في خريطة.

فيه قرئ بالجامع العتيق منشور نسخته بعد التصدير: بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة صلوات الله عليها الأمور وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور وردت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها وفوضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها وعبيدها ورعيتها في محاسن الأفعال ناظرين وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرين وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين وبمراشده الهادية مسترشدين فلا ندع وجهاً من دعوة البر إلا قصدناه ولا باباً من أبواب الخير إلا ولجناه ولا نعلم أمراً فيه قربى إلى الله سبحانه إلا وتقع المرتبة إلا أتيناه ولا شيئاً يعود بثواب الله وحسن الأحدوثة إلا اعتمدناه شيمة خصنا الله تعالى بميزتها وسجية أسبغ علينا جلاليب أمنها وسعادتها وعملاً في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة صلوات الله عليها وجميل سيرتها واستمراراً على منهج الدولة الزاهرة خلد الله ملكها وكريم عادتها وذهاباً في ذلك مع سجيتها الحسنى ونشراً لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى.

والله تعالى المسئول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين ويقضى لنا بالفوز المبين ويصلح لنا وبنا كل فاسد وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه.

ولما كان أحسن ما تطرز به محاسن السير وتتناقل ذكره ألسنة البدو والحضر وتجنى ثمرته في الدنيا والآخرة وتحمد مغبته في العاجلة والآجلة التقرب إلى الله تعالى في كل أوان وابتغاء ثوابه في كل زمان لا سيما شهر رمضان الذي تزكوا فيه أفعال البر والصلاح وتتضاعف فيه الحسنات في الغدو والرواح رأينا ما خرج به أمرنا من كتب هذا المنشور بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والموانيت والمعاصر والأخونة والطواحين والعرس وجميع ما يجري في الرباع خارجاً من ريع الأحباس وريع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيما يجري هذا المجرى من وجوه البر بأجرة شهر رمضان من كل سنة لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها إحسانا يسير ذكره كل مسير وتعظيماً.

لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير الذي فضله الله على جميع الشهور وأنزل فيه قرآنه المجيد وفرض صيامه على أهل التوحيد وحضهم فيه على الأفعال المزلفة لديه ووعد من عمل فيه خيراً بمضاعفة الجزاء عليه.

فليعتمد العمل بما تضمته هذا المنشور وحطيطة أمره شهر رمضان عن جميع سكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدم منسوباً ذلك إلى القرب الصالحة والتجارة الرابحة ويفسح في جميع الدواوين حجة بمودعه وليجلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر منعاً لمن يروم المطول فيه أو يفض شيئا فلما قرئ هذا المنشور ضج العامة بالدعاء ونظم فيه عدة من الشعراء وجرى الرسم في وصول كسوة العيد وهي العدة الكثيرة وتفريقها على العادة.

وعمل الختم في آخر الشهر بالقصر والجوامع والمساجد وحصل الاهتمام بالعيد وركب الخليفة إلى المصلى على العادة وصلى بالناس صلاة العيد وخطب وحضر السماط.

وجرى الحال في يوم عاشوراء وفي المولد الآمري على المألوف.

فيه كان المولد العيسوي ففرق ما جرت به العادة من الجامعات القاهرية والجامات السميذ وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية والبورى على أصحاب الرسوم.

وعمل في شهر ربيع الأول المولد الكريم وفرق المال على الرسم.

وفيها وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز ابن باديس صاحب المهدية يخبر بانحيازه للدولة وأن رجار بن رجار صاحب صقلية تواصلت أذيته وقد استعد لمحاربته وسأل أن يسير لرجار يمنعه من ذلك.

فسير إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد فأصلح بينهما.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة.

وفيها توفى ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم وكان يدعى بالقاضي لأبوته وسنه واشتهاره بالعلم.

فبعث الآمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن يستخدم أبا الفخر صالحاً فذكر المأمون أن أكثر المجالس التي كانت تعمل في أيام النعمان بخط أبيه وأن أبا الفخر حدث السن ولا يماثل المذكور في العلم وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع قراءته الكتب.

وورد الخبر بأن الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار وثلاثين أسيراً من المسلمين.

وكان صاحب حلب قد أسره في وقعة له مع الفرنج.

وعمل ما جرى به الرسم في مواسم السنة.

وفيها جرت عمارة سور الإسكندرية.

وفيها حمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستمائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطمية.

وكان أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة وتقاصر المأمون عن نجدتهم وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان فخرج أهلها بما خف حمله وتفرقوا في البلاد.

وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر خليج القاهرة بالكراء.

وذلك أن الناس عند كسر الخليج كانوا يصنعون أخشاباً متراكبةً بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج ولم يكن هناك غير دار الأمير أبي عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر.

ولم تزل هذه الأدر الثلاثة إلى أن احترقت في نوبة شاور.

فيها مات بألموت الحسن بن صباح كبير الإسماعيلية وقد تقدم أنه ورد مصر في أيام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته واستولى على قلعة ألموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر وأنكر إمامة المستعلى وإمامة الآمر.

وانتدب عدة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلما تقلد المأمون البطائحي وزارة الآمر بعد قتل الأفضل بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا بموت الأفضل وأنهم تطاولوا لقتل الآمر والمأمون وأنهم بعثوا طائفةً لأصحابهم بمصر بأموال.

فتقدم المأمون إلى والي عسقلان بصرفه وإقامة غيره وأمره بعرض أرباب الخدم بها وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد وأكد عليه في الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم وأنه لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرق بينهم ويبالغ في الاستقصاء.

ومن يصل ممن لم تجر عادته بالمجيء إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله وما معه من البضائع ولا يمكن جمالاً من دخول مصر إلا أن يكون معروفا متردداً إلى البلاد ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدم كتابه إلى الديوان بعدة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر أصناف

البضائع ليقابل بها في مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب وأنه يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم.

ثم تقدم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعاً شارعاً وحارةً حارةً وزقاقاً زقاقاً وخطاً خطاً ويكتبا أسماء سكانها ولا مكنا أحداً من النقلة من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره بما يعتمد في ذلك.

فمضيا لذلك وحررا الأوراق بأسماء جميع سكان القاهرة ومصر وذكر خططهما والتعريف بكنية كل واحد وشهرته وصناعته وبلده ومن يصل إلى كل خط وحارة من الغرباء.

فلما عرف ذلك المأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعته بجميع ما يشاهدنه فيها فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه ولا يكاد يخفى عنه منها شيء ألبتة.

فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالآمر وبالمأمون لكفهم ثم إنه مع ذلك أركب العسكرية وفرقهم في جهات البلدين وأمرهم بالقبض على جماعة عينهم فقبض على جماعة كثيرة منهم رجل كان يقرئ أولاد الخليفة الآمر ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيرهم بمال لينفق على من بمصر ممن يرى رأيهم.

فكان هذا معدوداً من عظيم الحزم وقوة التدبير.

ومع ذلك كان له القصاد والجواسيس وأصحاب الخبر في كل قطر فإذا خرج الباطني من قلاع ألموت لا تزال أخباره ترد عليه شيئاً بعد شيء منذ يخرج من مكانه حتى يرد بلبيس فيسير إليه من ينقض عليه في مكانه الذي نزل فيه ويأتيه به فيقتله.

وصار من أجل ذلك وبسببه يرد عليه أخبار كل جليل وحقير من سائر مملكته حتى كان يرى ويسمع كل ما يتفق في ليل أو نهار.

وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعد ما ملك من الشام جبل عاملة وحصن العليق والكهف ومصياث والخوابي وحصن الأكمة وقلعة العيدين ثم امتدت مملكته بعد موته إلى حد شرقي آذربيجان وبحر طبرستان وجرجان.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون في ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلاً من أهله وخواصه واعتقله.

فوجد له سبعون سرجا من ذهب مرضع ومائتا صندوق مملوءة كسوة بدنه.

ووجد لأخيه المؤتمن أربعون سرجا بحلى ذهب وثلثمائة صندوق فيها كسوة بدنه ومائتا سلة ما بين بلور محكم وصيني لا يقدر على مثلها ومائة برنية مملوءة كافور قنصوري ومائة سفط مملوءة عوداً ومن ملابس النساء ما لا يحد.

حمل جميع ذلك إلى القصر وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين.

ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلى أخي الآمر يعزيه بقتل أخيه الخليفة ووعده أنه يعتمد مكانه في الخلافة فلما تعذر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل أبا الحسن علي بن أبي أسامة كاتب الدست وكان خصيصا بالآمر قريبا منه وكان المأمون يؤذيه كثيرا.

فبلغ الخليفة الحال وبلغه أيضا أن بلغ نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها: الإمام المختار محمد بن نزار.

ويقال إنه سم مبضعاً ودفعه لفصاد الخليفة فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع.

ومولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وقيل في سنة تسع.

وكان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول كريما واسع الصدر سفاكا للدماء شديد التحرز كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامة فكثر الواشون والسعاة بالناس في أيامه ويقال إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق وأنه مات ولم يخلف شيئا فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق بمصر وأنه دخل مع الحمالين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفاً رشيقاً حسن الحركة حلو الكلام فأعجب به فاستخدمه مع الفراشين بعد ما عرف بأنه ابن فلان فلم يزل يتقدم عنده حتى كبرت منزلته وعلت درجته.

وهذا ليس بصحيح فإنه من أجناد المشارقة وقد تقدم أن أباه مات في زمن الأفضل بعد ما ترقت أحول ولده وأنه كان ممن يعد من أماثل أهل الدولة.

ورثى بعدة قصائد.

وتقدم أن المأمون كان ممن يخدم المستنصر وأنه الذي لقبه بالمأمون.

على أن المشارقة زادوا في التشنيع وذكروا أنه كان يرش الماء بين القصرين وكل ذلك غير صحيح.

وكان المأمون شديد المهابة في النفوس وعنده فطنة تامة وتحرز وبحث عن أخبار الناس وأحوالهم حتى إنه لا يتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عند المأمون ولا سيما أخبار الولاة وعمالهم.

ومشت في أيامه أحوال البلاد وعمرت وساس الرعايا والأجناد وأحسن سياسته إلا أنه اتهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعدهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يداً عند الخليفة الآمر ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الآمر ما يكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلةً عند الأفضل ومتحكما في جميع أموره.

وكان مع ذلك محببا إلى الناس لكثرة ما يقضيه من حوائجهم ويتقرب به من الإحسان إليهم ويأخذ نفسه بالتدبير الجيد والسيرة الحسنة بحيث لو قدر موته لزار الناس قبره تبركاً به.

واتهم أيضا بأنه هو الذي قتل أولاد الأفضل وأولاد أخيه الأوحد وأولاد أخيه المظفر وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير فقتلوا بأجمعهم ولم يبق منهم سوى صغير نحيف يسمى أحمد أبا علي ويلقب بكتفيات فيقال إنه احتقره لما كان يرى فيه من العي والانقطاع فكان منه ما يأتي خبره إن شاء الله تعالى.

واتهم أيضاً بقتل الأمير حسام الملك أفتكين صاحب الباب في أيام الأفضل لتخوفه منه وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الآمر للسلام فلما خرج قال الآمر: والله إنك لأمير حسن فإنه كان جميلا تام القامة وفيه عجب وتيه.

فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته وأخذ في العمل عليه حتى أخرجه في العساكر التي يقال إن عدتها عشرون ألفاً فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ما كان وقتل من أصحابه يومئذ ما يزيد على عشرة آلاف وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودس عليه من قتله.

قال ابن الطوير: ولما دفن الأفضل استعمل الآمر هذا الرجل وكان يخاطب بالقائد من خدمة الأفضل في الوساطة دون الوزارة ونعته بجلال الإسلام.

واستمر على ذلك ثم كمل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور فباشرها وكان متيقظاً قد حذق الأمور ودربها من صحبة الأفضل وطول خدمته إياه.

وكان بالدار التي بالسيوفيين بالقاهرة وهي اليوم مدرسة للحنفية وأخذ يصب على تغلب الأفضل مع الآمر فصار يتغلب على الآمر في واحدة بعد واحدة من الجفاء والإقدام والآمر يملى له ويحتمله حتى استوحش كل منهما من الآخر.

وكان له أخ ينعت بالمؤتمن أبي تراب حيدرة فرأى من الرأي أن يولي أخاه جانباً عظيما من ديار مصر ويجعل معه عسكر النجدة ردءاً إذا قصده الخليفة بضرر فإنهما دام أخوه يكون حاميا له فيكون هو من داخل وأخوه من خارج.

وجرد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم وأضاف إليهم أمثالهم مثل علي بن السلار وتاج الملوك قايماز وسيف الملك الجمل ودرى الحرون وحسام الملك بسيل وكل واحد من هؤلاء جيش بمفرده والخليفة يعلم ذلك ولا يرده عليه.

وزاد في معناه حتى قيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك.

ثم إنه سير إلى اليمن الموفق علي بن نجيب الدولة وكان من أهل الأدب فصيحاً داهية ليحقق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته فلما قيل للآمر هذا ما شك فيه وأخذ يتحيل في الإيقاع به بعد عود أخيه من ولايات الإسكندرية والغربية والبحيرة والجزيرتين والدقهلية والمرتاحية فاختلق الآمر قضية يلتمسها من الإسكندرية وهو مقيم بها فسير أستاذاً من ثقاته ظاهره فيما ندبه إليه وباطنه في العلم على المأمون وأخيه وقال له: أحرص على اجتماعك بعلي ابن السلار في المسايرة وسلم عليه عنا وقل له وقل له إننا ما زلنا نلتفت إليه وندخره لمهماتنا ونتحقق فيه الموافاة لنا وإنا بحمد الله قادرون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا وقد تلونت أحوال المأمون وبالغ في عقوقنا بأشياء لا يتسع لها ذكرنا.

ومقصودنا أن تكتم عنا ما نقول لك.

فلما بلغه الأستاذ ذلك عن الآمر قال: السمع والطاعة لمولانا وأنا مملوكه وأذل نفسي في خدمته.

فقال الأستاذ: هكذا والله قال عنك.

قال ابن السلار: فما يأمر به قال: تحد رجالك بأجمعهم في الانفصال عن المؤتمن أنت ومن تثق به.

فلما تقرر ذلك اتفق علي بن السلار وهو وقايماز ودرى الحرون وكانوا أمراء الجماعة فتفرقوا عنه وتبعهم الباقون فانفرد المؤتمن واستوحش وكاتب أخاه المأمون بذلك فما اتسع له أن يتتبع الأمراء ولا ينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيه لعلمه بتغير الخليفة عليه مخافة أن يفسد أمره ظاهرا وباطنا.

فحضر إلى الخليفة يوم سلام على عادة الوزراء وتقدم وقال: يا مولانا صلوات الله عليك وصل كتاب أخي يتذمم من طول مقامه خارج القاهرة وأسفه على ما يفوته من خدمة مولانا بالمباشرة ويسأل الفسحة له في العودة إلى بابه الكريم فقال: مرحبا وأهلا وهذا كان رأينا ونحن مشتاقون إليه وإنما قصدنا رضاك فيما رتبته له.

يقدم على بركة الله.

فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتب في ولاياته من يرضاه.

فامتثل ذلك.

ودخل القاهرة فجلس الخليفة له في غير وقت الجلوس فمثل بين يديه وأكرمه وأدناه وخلع عليه بالتشريف المفخم.

فلما دخل شهر رمضان وفيه السماط كل ليلة بقاعة الذهب ويحضر الوزير وإخوته وأصحابه فحضر المأمون وأخوه المؤتمن السماط أول ليلة فأكرمهما الآمر بما أخرجه لهما مما كانت يده فيه وأرسل رسالة إلى المؤتمن ليستأنس بحضوره السماط مع أخيه فلم يتسع لهما مع هذه المكارمة الانقطاع.

وحضرا ثاني ليلة فزاد في إكرامهما ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصة دون أخيه فدخل إليه ولم يتقدمه أحد من الوزراء بمثل ذلك يعنى بهذه المنزلة.

وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعا وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدارية.

ثم حضرا ثالث ليلة فاستدعى المأمون إلى الخليفة فلما جلس معه على المائدة قال قد جفونا المؤتمن واستدعاه فدخل وصارا في قبضته.

وكان قد رتب لهما من يأخذهما فعند خروجهما للمضي قبض عليهما واعتقلهما عنده في خزانة وسير بالحوطة على دورهما.

ثم أمر بإحضار الشيخ الأجل أبي الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست لينشيء شيئاً في شأنهما يقرؤه على المنبر غداً فوجد الشيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض فتقدم إلى والي القاهرة في الليل بأن يمضي إلى مصر لإحضاره.

فظن والي القاهرة أنه طلب لغير ذلك وكان يقال له سعد الدولة الأحدب فمضى إليه وأزعجه من مكانه وسبه أقبح سب وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشياً.

فأحضره إلى الخليفة وهو ميت لا حراك به فقال له ما هذا فأخبره بقضيته مع الوالي فغضب على الوالي وأمر بخلع أخفافه من رجليه وصفعه بهما حتى تقطعا على قفاه وصرفه من الولاية.

وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه فقال يا مولانا: هما نشو أيامك ومماليك دولتك.

فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشيخ وصوبه إلى المذكورين لينظرهما في اعتقالهما وينقطع رجاؤه منهما.

فأدخله إليهما فرآهما مكبلين في الحديد وعليهما احتياط عظيم فأنشأ للوقت سجلاً كان من استفتاحه: أما بعد فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح واستصلح فما صلح وجهل رفع قدره فغدا لهبوط وقابل الإحسان إليه بدواعي القنوط.

وكل ذلك في تلك الليلة.

فلما أصبح الصباح جلس الخليفة في الشباك بالإيوان ونصب كرسي الدعوة أمامه وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام فلم ينتطح فيها عنزان.

ويقال إن الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ما جرى منه في حق صور وإخراجها من يد الإسلام إلى الكفر.

وبقيا في الاعتقال هما وأميران اتهما في خزانة البنود.

وسير لإحضار الذي كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا.

وتفرغ الآمر لنفسه ولم يبق له فعل ولا مزاج وبقي بغير وزير.

وأقيم صاحبا ديوان الاستخراج بما يجب من زكاة ومقس أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري يقال له أبو يعقوب إبراهيم وأقيم معهما مستوف لهاتين المعاملتين وكان راهبا فكانوا

يستخرجون ذلك من أربابه ويدخل صاحبا الديوان إلى الآمر في كل وقت ومعهما المصحف والتوراة فيحلفان له أنهما لا يتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حق.

فيحملها في ذلك على الصدق وربما اشتطا على الناس وزاد عليهم ما لا يجب زيادته فتأذى بسببهما جماعة والآمر لا يطلع على ذلك ولا أشاربه.

واستمرا على ذلك مديدة.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها جهز الآمر المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي صاحب الموصل فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته فرجع بما معه إلى الآمر.

وفيها قدم الأمير الرئيس مهران بن عبد الرحيم مصنف سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الإسلام في هذه السنين برسالة من صاحب حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب.

وذلك أن راهباً من النصارى يعرف بأبي نجاح ابن فنا كتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها وضمن أنه يحقق في جهاتهم ما يملأ بيوت الأموال.

فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على ما يخرجه من الحسبانات ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية ثالث عشر الحواريين.

وكان الآمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون وبقي بغير وزير دانت له الدنيا.

وكان معظماً كثير الجود إلى الحد الذي لا مزيد عليه فكثر الخير في تلك الأيام وفرح الناس بالفوائد وتردد المسافرون والتجار وجلبت البضائع وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافاً إلى ما كان فيها وحسنت السيرة في الرعية وأباح للناس والجنود ما كان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وضمن في جهاتهم الأموال وحملها أولاً فأولاً وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون ما يزيد عن الوصف.

فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ما فيها ركب الآمر لينظر جوسق البغدادي أبي الحسن علي بن محمد بن سعدون بالقرافة فإنه كان من أحسن جواسق القرافة وأفخرها بناء فلما قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهنئ بالسلامة وقيل في ذلك عدة أشعار.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها أحضر الموفق في الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة داعي اليمن الذي سيره الوزير المأمون بن البطائحي فدخل في يوم عاشوراء على جمل بطرطور ومعه مشاعلية بهيئة ملائكة وخلفه قرد يصفعه وهو يقول بقوة نفس: والله لا ألتفت.

فأدخل خزانة البنود وسجن مع المأمون.

فيها كثرت مصادر الراهب للكتاب والعمال وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق.

وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم.

وفيها مات قاضي القضاة جلال الملك تاج الأحكام أبو الحجاج يوسف بن أيوب ابن إسماعيل المغربي الأندلسي وكان أولا قد أقرأ المؤتمن أخا المأمون القرآن والنحو فولاه قضاء الغربية ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرسعني بوساطة المؤتمن.

واستقر بعد وفاته في قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسراني.

وكان أبو الحجاج عاقلا.

عرض عليه الآمر أن يلي الدواوين مضافاً إلى ما يتولاه من قضاء القضاة والمظالم فاستشار في ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول فقال: إني لا أحسن صنعة الكتابة فقال له: تجعل بين يديك من يوضح لك الأمر والتدبير ويدلك على سر الصناعة.

فقال: ألا ترى إلا أني قد رضيت أن أكون من الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلة وعائد واستحضرت من يدلني على ما أجهل فكيف أصنع بين يدي السلطان لقد حكمت إذاً على نفسي بحكم حيف وأوردتها خطة خسف.

وحمد الله.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها وصلت رأس بهرام الباطني.

وكان طغتكين أتابك الملقب ظهير الدين قد وهب له بانياس خوفاً من شره فأفسد جماعةً بالشام وجرت له خطوب آلت إلى قتله وحملت رأسه إلى الآمر.

وفيها رتب قاضي القضاة أبا عبيد الله محمد بن ميسر مشارفاً على ثقة الدولة ابن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس وعمل مصالحة فاستمر إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل فلم ينظر أحد في هذه المشارفة.

وفي رجب عمل للآمر في الخاقانية وكانت من خاص الخليفة قصر من ورد فسار إليها وحده بضيافة عظيمة.

فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن أخي المأمون في سفره في البلاد التي كان يتولاها وتخاذل مع ابن السلار عنه وهو لابس لأمة حربه والتمس المثول بين يدي الخليفة.

فاستثقل ما جاء به في ذلك الوقت لأنه مناف لما فيه الخليفة من الراحة والنزهة فمنع من ذلك وصد عنه فقال لجماعة من حواشي الخليفة: أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه وهو يطالبكم بذلك ويعاقبكم عليه.

فأطلعوا الخليفة على أمره فأمر بإحضاره.

فقال: يا مولانا لمن تركت أعداءك يعني المأمون وأخاه هذا والعهد قريب أأمنت الغدر فما أجابه إلا وهو على ظهور الرهاويج من الخيل فلم تمض ساعة إلا وهو بالقصر يمضي إلى مكان إعتقال المأمون أخيه فوجدهما على حالهما فزادهما وثاقاً وحراسة.

فلما كان في ليلة العشرين منه قتل المأمون وصالح بن الضيف وكان من نشو المأمون وقد سجن معه وعلي بن إبراهيم بن نجيب الدولة المحضر من اليمن وأخرجوا إلى سقاية ريدان في الرمل قبالة البستان الكبير خارج باب الفتوح فصلب أبدانهم بغير رءوس وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه.

فبلغ الأمر الناس فشكوا فيهم وقالوا: هم غير المذكورين.

فأمر بإخراج رءوسهم وأقيمت على أبدانهم.

فيها كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة على ما ذكر بعضهم وقيل بل كانت كما تقدم ولقب بثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك شرف

الأحكام قاضي القضاة عمدة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر.

فلازم الانتصاب والجلوس واعتمد التثبت في الأحكام وعدل جماعة فبلغت عدة الشهود في أيامه مائة وعشرين شاهداً وكانوا دون الثلاثين.

ثم وردت إليه المظالم فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بهم الآمر وكان فيهم عدة قد يئسوا من الفرج فاستأذن الخليفة وأفرج عنهم.

وتكلم مع الآمر في أمر التجار وما نزل بهم من المصادرات فأمر الخليفة بكتابة منشورهم في معناهم قرئ على المنابر.

فيها كثرت وقائع أهل القسر على الناس وتقرب كثير من الكتاب الظلمة بعورات الناس إلى الخليفة فاشتدت مطالبات الناس بالأموال وقبل قول كل رافع شيئاً على أحد وأخذ الناس بما رموا به وضمن عدة من الناس أشياء لم تجر عادة بضمانها وأحدثت رسوم لم تكن فيما تقدم.

وذلك أنهم لم يقدروا على تصريح القول بالمصادرة فعملوا ما ذكر فحصلت الشناعة وخرج من بالبلد من التجار.

وكثرت مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة وعظم قدر ما حمل من أموال هذه الجهات.

فاتسع عطاء الخليفة حتى وهب يوماً لغلامه برغش المنعوت بالعادل ثمانين ألف دينار ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيما وهبه فقال: يا مولانا تصدقت ووهبت أكثر.

فأعجب ذلك الآمر وفرح وشكره على فعله.

ووهب مرة لغلامة هزار الملك جوامرد المنعوت بالأفضل مثل ذلك.

وكانا أخص غلمانه وأقربهم منه وأشرفهم عنده منزلة وكانا أسمح خلق الله وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر لا بمصر ولا بالقاهرة فإن هزار الملوك كانت صدقته في كل يوم جمعة راتباً قد قرره بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة على يد الثقة ابن الصعيدي وغزال الوكيل وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً ولا يخلو ركوبه إلى القصر وعوده منه من أحد يقف له ويطلب منه.

وكان برغش يعطي الجمل الكبار التي يغني بها الطالب من المائة دينار إلى المائتين وأكثر.

وبلغ علم التي يقال لها جمعة مكنون الآمرية أن الآمر سيدها قد وهب لكل من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار وكان الآمر يحبها وأصدقها أربعة عشر ألف دينار وولدت منه ابنة سماها ست القصور فلما دخل عليها عشية اليوم الذي وهبهما فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصورتها وقالت: ما تدخل إلي أو تهب لي ما وهبت لكل منهما.

فقال: الساعة.

وأحضر الفراشين وحمل كل عشرة كيساً فيه عشرة آلاف دينار عينا.

فلما صار إليها هذا المال ومبلغه مائتا ألف دينار ذهباً فتحت الباب له ودخل.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب بحيث لم يبق أحد إلا وناله مه مكروه إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال.

وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ويستدعي الناس للمصادرة.

فطلب في بعض الأيام رجلا يعرف بابن الفرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانه وأخرق به فخرج إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: يأهل مصر انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصراني من المسلمين.

فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة فاتصل ذلك بخواص الخليفة فأبلغوه إياه وخوفوه عاقبة ذلك وطالعوه بما حل بالخلق.

وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جديحو سبعين ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار فصار يشكو وكان كثير البضائع والتجارات والمقارضين فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ من أستاذى القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة يقال له لامع وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ما حج غير مرة وأنشأ جلبة بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج فاتفق جواز الآمر على مكانه فسأل عنه فقيل له: إنه لا يستطيع النهوض إلى خدمتك.

فدخل إليه وسأله عن حاله فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي.

فقال له الآمر: لأي شيء فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس قد تم عليهم من الشدة ما لا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك.

وشرح له أمر الراهب ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي قيراط وأبي يعقوب إبراهيم السامري الكاتب وما أخذوه من هذا الخادم.

فحلف الآمر إنه ما علم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقتٍ ويحلفهما على المصحف وعلى التوراة وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفياً لما يستخرج من الأموال وليس له معهما حديث ألبتة.

فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين إنهم قد اتفقوا على أذى الناس وقد جعلك الله خليفةً في الأرض واسترعاك على عباده وكل راع مسئول عن رعيته.

فشق على الخليفة وعمل فيه كلام الأستاذ وخرج فمات بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما ليستعيد منهما ما أخذاه للناس ظلماً واستدعى الراهب وكان بحضرته رجل من الأشراف إنّ الذي شرّفت من أجله يزعم هذا أنّه كاذب فقال الآمر للراهب: يا راهب ماذا تقول فسكت.

فأمر حينئذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت.

فمضى به إلى شرطة مصر وما زال يضرب بالنعال حتى مات فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر مسحوباً وسمر على لوح وطرح في بحر النيل فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح واشتهر ذكره وسارت الركبان بهلاكه.

وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن وزير ابن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الأرض ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنا بن أبي الليث كاتب المجلس.

فلما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الآمر وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى مائة ألف دينار فأطلق يده فيهم واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد.

وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج ويتطيب بعدة مثاقيل مسك في كل يوم فكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة.

وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ويجلس بقاعة ولما قتل وجد له في مقطع ثلثمائة طراحة سامان محشوة جدداً لم تستعمل قد رصت إلى قرب السقف وهذا من نوع واحد فكيف ما عداه!

ولما قتل وعرف الآمر ما كان يعمل في الناس من أنواع الأذى خشي من الله واستحيا من الناس وكره مساءلة الفقهاء من الإسماعيلية عن ذلك وعن كفارة هذا الذنب لأنه إمام وشرط الإمام أن يكون معصوماً.

فسير إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلى وكان خليفة الحكم مع من يثق به يستفتيه في أمر الراهب وما يكفر عنه فقال: يرد ما صار إليه من الأموال إلى أربابها.

فرد عليه: إني والله ما أعرفهم ولا أقدر على ذلك ولكن أعتق الرقاب وأتصدق.

فقال الفقيه: الخليفة قادر على أن يعتق ويتصدق ولا يتأثر لذلك ولكن يصوم فإنه عبادة شاقة على مثله.

فقال: أصوم الدهر.

فقال: لا ولكن الصوم الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم صوم يوم وفطر يوم.

فقال: لا أقدر على ذلك.

فقال: يصوم رجب وشعبان ورمضان.

ففعل ذلك وتحرم في صومه وبره هذه الأشهر من كل ما ينكر في الديانة.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للآمر ولد سماه أبا القاسم الطيب فجعل ولي عهده وأمر فزينت القاهرة ومصر وعملت الملاهي في الإيوانات وأبواب القصور وكسيت العساكر وزينت القصور.

وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشاً ومصاغاً ما بين آلات وأواني من ذهب وفضة وجوهر فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح.

واستمر الحال على هذا أربعة عشر يوماً.

وأحضر الكبش الذي يعق به عن المولود وعليه جل من ديباج وفي عنقه قلائد الفضة فذبح بحضرة الخليفة الآمر.

وجيء بالمولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله ونثرت الدنانير على رءوس الناس.

ومدت الأسمطة العظيمة بعد ما كتب إلى الفيوم والقيلوبية والشرقية فأحضرت منها الفواكه وملئ القصر منها ومن غيرها من ملاذ النفوس وبخر بالعنبر والعود والند حتى امتلأ الجو من دخانه.

فيها تواترت الأخبار بتخويف الآمر من اغتيال النزارية وتحذيره منهم وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله فتحرز احترازاً كبيرا بحيث إنه كان لا يصل أحد من قطر من الأقطار إلا ويفتش ويستقصى عنه.

وأقام عدةً من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كشفاً جليا.

وكلما اشتد الأمر كثر الخوف.

واتصل به أن جماعةً من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر فاحترز وتحيل في قبضهم فلم يقدر لما أراده الله وفشا في الناس أمرهم وكانوا عشرة فخافوا أن يظفر بهم فاجتمعوا في بيت وقالوا إنه قد فشا أمرنا ولا نأمن أن يظفر بنا واشتوروا.

فقال أحدهم: الرأي أن تقتلوا رجلاً منكم وتلقوا برأسه بين القصرين لتنظروا إن عرفها الآمر وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما وما زال محكوما عليه حتى قتل الأفضل فتزايد أمره عما كان عليه أيام الأفضل.

فلما قبض على وزيره المأمون استبد بالأمور وتصرف في سائر أحوال المملكة وأكثر من الركوب ورتب لركوبه ثلاثة أيام من كل أسبوع وهي يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء فإذا لم يتهيأ له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره.

فكان يمضي أبداً في يومي الثلاثاء والسبت إلى النزهة في بستان البعل والتاج والخمس وجوه وقبة الهواء من ظاهر القاهرة أو إلى دار الملك بمصر أو بالهودج الذي أنشأه بجزيرة مصر التي يقال لها اليوم الروضة.

وكان يتجول في أيام النيل في القصر بخدمه ويسكن في اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة.

وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد.

وصار الناس مدة أيامه التي استبد فيها في لهو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه لا سيما غلامه بزغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد حتى إنه لا يكاد يوجد في مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسعهم في العطاء.

ثم تنكد عيش الناس بقيام الراهب وكثرة مصادراته وشره حينئذ الآمر في أخذ أموال الناس فقبحت سيرته وكثر ظلمه واغتصابه لأملاك كثيرة من أملاك الناس مع ما فيه من التجرؤ على سفك الدماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل البلاد الشامية فملكت عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وعرقة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين فتيقنوا أن حلاكم قد ذكرت له فتعملوا الحيلة في فراركم من مصر وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أن القوم في غفلة.

فقالوا: ما يتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا وما بذاك أمرنا.

فقال: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته وما دللتكم إلا على نفسي.

وأسرع بسكين فذبح بها نفسه فمات وأخذوا رأسه ورموها في الليل بين القصرين وأصبحوا ينظرون ما سبق فلما رئيت الرأس واجتمع الناس عليها لم يقل أحد إنه عرفها فحملت إلى الوالي فأحضر عرفاء الأسواق على أرباب المعايش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحد.

فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات فلم يعرفوها.

ففرح النزارية واطمأنوا بالإقاقة في مصر لقضاء مرادهم.

وكان الآمر كثير الفرج محبا للهو فركب في يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة يريد أن يجيء إلى الهودج الذي بناه بجزيرة مصر لمحبوبته البدرية ومن العادة في الركوب أن يشاع في أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لا يتفرقوا عنه فعلم النزارية أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فرناً قبالة الطالع من الجسر إلى البر ودفعوا إلى الفران دراهم ليعمل لهم فطيراً بسمن وعسل فبينما هم في أكله وإذا بالخليفة الآمر قد عبر من كرسي الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر.

فلما طلع من ذا الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين وواحد منهم صار خلفه على كفل الدابة وضربه عدة ضربات.

فأدركهم الناس وقتلوهم وكانوا تسعة وحمل الآمر في عشاري إلى اللؤلؤة وكانت أيام النيل فمات من يومه وحمل من اللؤلؤة وهو ميت إلى القصر.

وخمسمائة وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة منها.

وملكوا قلعة تبنين في سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتسلموا مدينة صور في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وكثرت المرافعات في أيامه.

واستخدم عدة من الكتاب الظلمة الأشرار وضمن أشياء لم تجر العادة بتضمينها وأخذ رسوماً لم تكن فيما تقدم.

وعمل دكة عليها خركاة في بركة الحبش وعمر في بركة الحبش مكاناً سماه تنيس وموضعاً آخر سماه دمياط.

وجدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية فكان يجلس في أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدامه والشمع موقود والمجامر تعبق بالبخور والأسمطة تمد بكل صنف لذيذ من الأطعمة والحلوى.

وفرق في ليلة عند تواجد ابن الجوهري الواعظ وتمزيق رقعته على من حضر وعلى الفقراء ألف نصفية ونثر عليهم من الطاق ألف دينار تخاطفوها.

وبنى الهودج لمحبوبته العالية البدرية في جزيرة الروضة.

ولهذه البدرية وابن مياح من بني عمها مع الآمر أحاديث صارت كأحاديث البطال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب.

وكان المنفق في مطابخه وأسمطته شيء كثير فكان عدة ما يذبح له في كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة سوى ما يذبح مما سوى ذلك وثمن الرأس منها ثلاثة دنانير.

وكان أسمر شديد السمرة يحفظ القرآن وخطه ضعيفاً.

وكانت نفسه تحدثه بالسفر إلى الشرق والغارة على بغداد وأعد لذلك سروجاً مجوفة القرابيص وبطنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء وعمل لها فماً فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس

فكان كل سرج منها سبعة أرطال من ماء وعمل عدة من حجال الخيل من الديباج وقال في ذلك: دع اللّوم عني لست مني بموثق فلا بدّ لي من صدمة المتحقّق ومن شعره أيضا: أما والذي حجّت إلى ركن بيته جراهيم ركبانٌ مقلدةٌ شهبا لأقتحمنّ الحرب حتّى يقال لي ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا وينزل روح اللّه عيسى بن مريم فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحباً وكانت وزارة الأفضل بن أمير الجيوش وكان حاجراً عليه ليس له معه أمر ولا نهي ولا تعود له كلمة إلى أن قتل ثم وزر له المأمون محمد بن فاتك البطائحي فصار له في وزارته أمر ونهي وعادت الأسمطة على ما كانت عليه قديما وكان الأفضل قد نقلها فصارت تعمل أيام الأعياد والمواسم في دار الملك بمصر حيث كان يسكن.

فلما قتل المأمون استبد ولم يستوزر أحداً ودامت له الدنيا.

وقضاته: ابن ذكا النابلسي تم ولى أبو الفضل الجليس نعمة بن بشير فطلب الإقامة فولى بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي ومات فاستقر بعده الجليس نعمة بن بشير النابلسي مرة ثانية ثم صرف بأبي الفتح مسلم بن الرسعني وعزل بأبي الحجاج يوسف بن أبي أيوب المغربي فلما مات استقر من بعده أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني وقتل الآمر وهو قاض.

وكتاب الإنشاء في أيامه: سناء الملك أبو محمد بن محمد الزيدي الحسيني والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي أسامة الحلبي والشيخ تاج الرئاسة أبو القاسم ابن الصيرفي وابن أبي الدم اليهودي.

وكان نقش خاتمه: الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين.

وفي أيامه نزع السعر فبلغ القمح كل أردب بدينار.

وكان الناس قد ألفوا الرخاء في أيام الأفضل والمأمون وبعد عهدهم بالغلاء فقلقوا لذلك.

ومن نوادر الآمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين وهو العاشر في النسب أيضا ولم يل عشرة على نسق واحد ليس بينه أخ ولا عم ولا ابن عم غير الآمر.

وعرض عليه فصل في التوحيد من جملته: وهو المحذر بقوارع التهديد من يوم الوعد والوعيد فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر من الوعيد فما الفرق بينهما وأمر أن يقال: المحذر بقوارع التهديد من هول يوم الوعيد.

واستدرك في فصل آخر في ذكر علي رضي الله عنه قوله: وهو السابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابته فقال: إن قوله السابق غير مستقيم لأنه إن أراد التخصيص فذلك غير صحيح إذ كانت خديجة

سبقت إلى الإسلام والسابق منهم جائز أن يكون واحداً وأن يكون جماعة والله تعالى يقول: " والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ " وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقين وذكر مثالا فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لا يخرج فيها واحد عن واحد قيل لها السبق وقيل لكل واحد منها سابق.

وأمر أن يقال: أول سابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابته.

الحافظ لدين الله

أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع وقيل سنة ثمان وستين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلاني ابن عم مولانا.

ولما قتل النزارية الآمر كان كبار غلمانه العادل بزغش وهزار الملوك جوامرد وينعت بالأفضل فعمدا إلى الأمير أبي الميمون عبد المجيد وكان أكبر الجماعة الأقارب سنا وقالا: إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته بأسبوع عن نفسه: المسكين المقتول بالسكين وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولداً ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للأمير عبد المجيد أبي الميمون.

فجلس المذكور كفيلاً ونعت بالحافظ لدين الله في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة يوم قتل الآمر بأحكام الله وتقرر أن يكون هزار الملوك وزيراً وأن يكون الأمير السعيد أبو الفتح يانس الحافظي متولى الباب أسفهسلاراً وقرئ سجل في الإيوان بهذا التقرير والحافظ في الشباك جالس تولى قراءته قاضي القضاة ابن ميسر على كرسي نصب له أمام الحافظ بحضور أرباب الدولة.

وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة وقد اجتمع في بين القصرين خمسة آلاف فارس وراجل وفيهم رضوان بن ولخشي أحد الأمراء المميزين أرباب الشجاعة وهو رأس الجمع وفي داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بزغش وقد شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة فنظر إلى أبي علي أحمد بن الأفضل الملقب كتيفات وهو جالس فقال: يا مولاي الأجل أنا أشح عليك أن تطيل الجلوس حتى يخرج هذا الفاعل الضانع وزيراً فتخدمه ويسومك المشي في ركابه اخرج إلى دارك وإذا قضى الله مضيت منها لهنائه.

وكان ظاهر هذا القول مكارمة أبي علي وباطنه أنه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لا يرغبون وزارة هزار الملوك فدبر أنهم إذا وقعت أعينهم على أبي علي تعلقوا به وأقاموه وزيراً فيفسد أمر هزار الملوك.

فقام أبو علي ليخرج فمنعه طغج أحد نواب الباب وكان فطناً ذكيا فقال له بزغش: لم تمنع هذا المولى من الخروج فقال: كيف لا أمنعه من الخروج إلى هذا الجمع ولا يؤمن تعلق العسكرية فيقع له ما وقع للآخر.

فهزه بزغش وقال له: دع عنك الفضول.

وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهاليز القصر فما هو إلا أن خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشي والجماعة وقد علموا أن هزار الملوك قد خلع عليه للوزارة وأنه سيخرج إليهم فتواثبوا إلى أبي علي وقالوا هو الوزير بن الوزير بن الوزير.

وأراد أن ينفلت منهم واعتذر أنه شرب دواء فلم يقبل منه وطلب له في الحال خيمة وبيت صدار فضربت في جانب من بين القصرين وأدخلوه فيها.

وقام الصالح وثار العسكر بموافقتهم على وزارته والرضا به وصاحوا أن لا سبيل أن يلي علينا هذا الصانع الفاعل وأعلنوا بشتمه.

فغلقت أبواب القصر كلها واشتد الأمر فأحضر ضرغام وأصحابه سلالم وأقاموها إلى طاقات المنظرة وأطلقوا عليها أميراً يقال له ابن شاهنشاه فلما أشرف على طاق المنظرة جاء أستاذو الخليفة وأنكروا عليه فعله فقال هذه فتنة تقوم ما تسر فما الذي خلعتم عليه! ويحصل من ذلك على الخليفة من العوام وسوء أدب جهال العسكر ما لا يتلافى وما هذا شيء والله إلا نصيحة لمولانا فإنني قد علمت من رأى القوم ما لا علمتم.

أخبروا مولانا عني بهذا.

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ما قال ابن شاهنشاه وهزار الملوك بين يديه بخلع الوزارة يسمع القول فقال له الحافظ: ها أنت ذا تسمع ما يقال.

فقال: يا مولانا أنا في مجلسك ووزارتي بوصية خليفة قبلك فاتركني أخرج لهؤلاء الفعلة الصنعة.

فقال: لا سبيل لفتح باب القصر في مثل هذا الوقت وقد فعلنا في أمرك ما رتب لك وهذه الخلع عليك ولكن قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لا رأى لمن لا يطاع.

واشتد الأمر وكثر تمويه العسكر.

فقيل لابن شاهنشاه: قد أجبتم إلى وزارة أبي علي وما نحن له كارهون.

فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه فقالوا: قل له يسلم لنا هزار الملوك.

فامتنع من ذلك وقد تكاثر القوم على سور القصر وعزموا على طلب المذكور ولا بد.

فقال الحافظ له.

قم واحتجب في مكان عسى ندبر في قضيتك أمراً نصرف به هذا الجمع عنا وعنك.

فنزعت الخلع عنه وأحيط به فصار إلى مكان قتل فيه قتلةً مستورة وألقيت رأسه إلى القوم فسكنوا.

واستدعي بالخلع لأبي علي فأفيضت عليه في يوم الأربعاء خامسه وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه.

فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرف.

وكان قد اصطفاه الآمر لنفسه هو وبزغش قبل موته بمدة ورد له المظالم والنظر في أحوال الجند وهو نوع من الوزارة وكان ينعت بالأفضل.

ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة ونهبت القيسارية وكان فيها أكثب ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ومذ بنيت لم يكن فيها أمر يكره فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع.

وطيف برأس هزار الملوك على رمح.

واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي وكان يلقب بكتيفات في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة.

فأول ما بدأ به أنه أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد.

ويقال إن رضوان بن ولخشي دخل إليه وقيده فقال له الحافظ: أنت فحل الأمراء.

فنعت بذلك.

وتمكن أبو علي واستولى على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر وحمل الجميع إلى دار الوزارة بعد أن فرق أكثر ما كان الآمر جمعه من الغلال في الناس على سبيل الإنعام.

وكان السعر غاليا يباع القمح بنحو الدينار كل إردب فأراد أبو علي أن يحسن سمعته فأمر أن تفتح المخازن وأطلق أكثر ما كان فيها وكانت مئي ألوف أرادب.

ورد على الناس الأموال التي فضلت في بيت المال من مال المصادرة التي كان قد أخذها الآمر في أيام مباشرة الراهب وما كتبت به الخطوط قبل ذلك وكان الذي وجد خمسين ألف دينار.

فاستبشر الناس به وفرحوا فرحاً ما ثبتت منه عقولهم وضجوا بالدعاء له في سائر أعمال الديار المصرية وأعلنوا بذكر معايب الآمر ومثالبه وأقطع الحجرية البلاد وظهر فرح الناس وابتهاجهم.

وأكرم بزغش العادل الذي أشار عليه بالخروج من القصر إكراماً كثيرا.

وكانت قد ضربت ألواح على عدة أملاك في أيام الآمر فأعيدت إلى أربابها.

وكان إماميا متشدداً فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي وتزايد الأمر فيه إلى التأذين فانفعل بهم وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر فضرب الدراهم باسمه ونقش عليها: الله الصمد الإمام محمد.

وخطب بنفسه في يوم الجمعة وكان أكثر خلق الله تخلفا وأقلهم علماً فغلط في الخطبة غلطة فاحشة صحفها فلم ينكر عليه أحد.

واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الآمر وعلى يانس صاحب الباب وعلى صبيان الخاص الآمرية.

وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الآمر من إخوته.

وكان الآمر لما احتاط على موجود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام في حقه يستقبح ذكره فأقام عليهم الحجة عندما مثلوا بحضرته وقال: أبوكم الأفضل غلامي ولا مال له.

فسفه عليه أحدهم فغضب وقتلهم.

فأراد أبو علي بتفتيشه على الحمل الذي ذكر أنه من الآمر أن يظفر به ليقتله بإخوته فلم يظهر الحمل ولا قدر أيضا على قتل الحافظ ولا خلعه فاعتقله كما تقدم وخطب للقائم المنتظر تمويها.

فنفرت قلوب أهل الدولة منه وقامت نفسوهم منه.

وتعصب قوم من الأجناد من خاص الخليفة بترتيب يانس لهم وفيها قبض على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط وعلى أبي يعقوب ابراهيم السامري ونهب الجند دورهما وحبسا في حبس المعونة ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة فصار كل قاض يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه فكان قاضي الشافعية سلطان بن إبراهيم بن المسلم بن رشا وقاضي المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللبني المغربي وقاضي الإسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد القاضي فخر الأمناء الأنصاري المعروف بابن الأزرق وقاضي الإمامية القاضي المفضل أبو القاسم ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل.

ولم يسمع بمثله هنا في الملة الإسلامية قبل ذلك.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم ركب أبو علي أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليعرق فرساً في الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة وللعب بالكرة على عادته فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الذين تحالفوا على قتله متى ظفروا به جميعاً أو فرادى فصاح أبو علي عادة من يسابق بخيل: راحت فقال العشرة: عليك وحملوا عليه وطعنوه حتى قتل.

فأدركه أستاذ من أستاذيه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عناناً واحداً وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس وكان مستوحشاً من أبي علي فخرجوا الحافظ من الخزانة التي كان معتقلاً بها وفكوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصة الخلافة وقالوا: ما حركنا على هذا إلا الأمير يانس.

فاجتمع الناس وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه.

ونهب في هذا اليوم كثير من الأسواق والدور والحوانيت وصار ذلك عادة مستقرة وشيئاً معهوداً في كل فتنة.

وحمل رأس أبي علي إلى القصر.

وكان قد أسقط منذ أقامه الجند ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الإسماعيلية.

وأزال من الأذان قولهم فيه: حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة واخترع لنفسه دعاءً يدعى به على المنابر وهو: السيد الأجل الأفضل سيد ممالك أرباب الدول المحامي عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق في حالي غيبته وحضوره والقائم في نصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاته المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده مولى النعم رافع الجور عن الأمم مالك فضيلتي السيف والقلم أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أبي القاسم شاهنشاه أمير الجيوش.

وكانت مدة تحكه سنة وشهراً وعشرة أيام ثم حمل بعد قتله ودفن بتربة أمير الجيوش ظاهر باب النصر.

وخلع على السعيد أبي الفتح يانس الأرمني صاحب الباب خلع الوزارة وكان من غلمان الأفضل بن أمير الجيوش العقلاء وله هيبة وعنده تماسك في الأمور وحفظ للقوانين.

فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال واستقرت الخلافة للحافظ وحمل جميع ما كان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر.

ولم يحدث يانس شيئا إلا أنه تخوف من صبيان الخاص وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك وأنه ربما غضبوا منه ففعلوا به ما فعلوه بغيره وأحسوا منه بذلك فتفرقوا عنه.

فلما تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب في خاصته وغلمانه وأركب العسكر والتقوا قبالة باب التبانين بين القصرين فقتل ما يزيد عن ثلثمائة فارس من أعيانهم فيهم قتلة أبي علي أحمد بن الأفضل.

وكانوا نحو خمسمائة فارس فكسر شوكتهم وأضعفهم فلم يبق منهم من يؤبه له ولا وكانت له في النفوس مكانة فثقل على الحافظ وتخيل منه فأحس بذلك وصار كل منهما يدبر على الآخر.

فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الفخر صالح بن عبد الله بن رجاء وأبي الفتوح بن قادوس فقتلهما.

وبلغه شيء يكرهه عن أستاذ من خاص الخليفة فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ واعتقله بخزانة البنود وضرب عنقه من ليلته.

فاستبدت الوحشة بينه وبين الحافظ وخشى من زيادة معناه فقال الحافظ لطبيبه: اكفني أمره بمأكل أو مشرب.

فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة.

ويقال إن الحافظ توصل إلى أن سم يانس في ماء المستراح فانفتح دبره واتسع حتى ما بقي بقدر على الجلوس.

فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك فلو أن مولانا عاده في هذه المرضة اكتسبت حسن الأحدوثة وهذا المرض ليس دواؤه إلا السكون ولا شيء أضر عليه من الحركة والانزعاج وهو كما يسمع بقصد مولانا تحرك واهتم بلقائه وانزعج وفي ذلك تلاف نفسه.

فقبل ذلك وجاء لعيادته.

فلما رآه يانس قام للقائه وخرج عن فراشه فأطال الحافظ جلوسه عنده ومحادثته فلم يقم حتى سقطت أمعاؤه ومات من ليلته في سادس عشري ذي الحجة.

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما.

وترك ولدين كفلهما الحافظ.

وكان يانس هذا قد أهداه باديس جد عباس الوزير الآتي ذكره إن شاء الله تعالى إلى الأفضل بن أمير الجيوش فترقى في الخدم إلى أن تأمر وتقدم وولى الباب وهي أعظم رتب الأمراء وكنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الإسلام.

وكان عظيم الهمة بعيد الغور كثير الشر شديد الهيبة.

وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله وبويع له بيعة ثانية لما عمل الحمل.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني: رأيت صغيراً في القرافة الكبرى ويسمى قفيفة سألت عنه قيل هذا ولد الآمر: لما ولى الحافظ ولي عهده من يولد استولى على الأمر وولد هذا الولد فكتم حاله وأخرج في قفة على

وجهها سلق وكرات وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك ووشى به فأخذ وقتل.

ولما تمكن الحافظ قرئ سجل بإمامته وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء في ثالث ربيع الأول ورفع عن الناس بواقي مكس الغلة.

وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء وهو: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره وأعززت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر عن قضاء القضاة في أول ربيع الأول وقرر مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر وأضيفت إليه الدعوة فقيل له قاضي القضاة وداعي الدعاة وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة.

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحداً وأحسن السيرة.

ويقال إن يانس لما قتل القاضي أبا الفخر سلم الحكم إلى سراج الدين أبي الثريا نجم بن جعفر.

وفيها جهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثاب بن مسافر الغنوي رسولاً في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك صاحب دمشق وأصحبه الخلع السنية وأسفاط الثياب والخيل المسومة ومالاً متوفراً.

فوصل إلى دمشق وتلقى أحسن تلق وقبلت الألطاف منه وقرئ كتابه.

وأقام إلى أن أعيد من القابلة.

وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعاً كثيرة وعاد.

فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم.

فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه فانفض جمعه.

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب.

وفيها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان المعروف بابن العساف وصرف يوحنا بن أبي الليث لأشياء نقمها

عليه وسعوا فيه عنده بأنه كان سبباً فيما عمله أبو علي أحمد بن الأفضل من تفريق ما فرقه من الأموال لأهله وأقاربه.

واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدولة في نقابة الأشراف وجعله جليسا وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك وكان الحافظ يحب هذا العلم.

وفيها قبض على ابن عبد الكريم تربية الآمر فوجد له ثلثمائة وستون منديلا مذهبة وعلى مثالها ثلثمائة وستون بذلة مذهبة فكان يلبس كل يوم بذلة.

وكل منديل وهي العمامة على مسمار فضة.

ووجد له خمسمائة نرجسية ذهبا وفضة ومائتا صندوق فيها ثياب ملونات ومائة حسكة ذهبا وفضة ومن الجوهر ما يعجز عن وصفه.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها عهد الحافظ إلى ولده سليمان وكان أسن أولاده وأحبهم إليه وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه في أوامره ونواهيه فمات بعد ولاية العهد بشهرين فحزن عليه مدة.

ثم جعل ابنه حيدرة ولي عهده ونصبه للنظر في المظالم فشق ذلك على أخيه حسن لأنه كان يروم ذلك لكثرة أمواله وتلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد.

وما زالت عقارب العداوة تدب بينهما حتى وقعت الفتنة بين الطائفية الجيوشية والطائفة الريحانية وكانت شوكة الريحانية قوية والجند يشنئونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين وصاح الجند: يا حسن يا منصور يا للحسنية.

والتقى العسكران فقتل بينهم ما يزيد على خمسة آلاف رجل.

فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المقس.

واستظهر حسن وصار الأمر إليه فانضم له أوباش العسكر وزعارهم وفرق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد وصاروا لا يفارقونه ويحفون به إذا ركب ويلازمون داره إذا نزل.

فقامت قيامة الناس وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة وجد في طلب حيدرة.

وهتك بالأوباش الذين اختارهم حرمة القصر وخرق ناموسه من كونه نغص على أبيه وأخيه وصاروا يحسنون له كل رذيلة ويحرونه على أذى الناس.

فأخذ الحافظ في تلافي الأمر مع حسن لينصلح وعهد إليه بالخلافة في يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان وأركبه بالشعار ونعت بولي عهد المؤمنين.

وكتب له بذلك سجلاً قرئ على المنابر فكان يقال على المنابر: اللهم شيد ببقاء ولي عهد المؤمنين أركان خلافته وذلل سيوف الاقتدار في نصره وكفايته وأعنه على مصالح بلاده ورعيته واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدوراً لا يغيرها المحاق وقمعت ببأسهم كل مرتد من أهل الشقاق والنفاق وشددت بهم أزر الإمامة وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة.

فلم يزده ذلك إلا شراً وتعديا فضيق على أبيه وبالغ في مضرته.

فسير الحافظ وفي الدولة إسحاق أحد الأستاذين المحنكين إلى الصعيد ليجمع ما قدر عليه من الريحانية فمضى واستصرخ على حسن وجمع من الأمم ما لا يعلمه إلا الله وسار بهم.

فبلغ ذلك حسناً فجهز إليه عسكراً عرمرماً وخرج فالتقى الجمعان.

وهبت ريح سوداء في وجوه الواصلين وركبهم عسكر حسن فلم يفلت منهم إلا القليل وغرق أكثرهم في البحر وقتلوا وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر.

فلما وصل بين القصرين رمى بالنشاب حتى مات ورمي إليهم من القصر الغربي أستاذ آخر فقتلوه وقتل الأمير شرف الأمراء.

فلما اشتد الأمر على الحافظ عمل حيلة وكتب ورقة ورماها إلى ولده حسن فيها: يا ولدي أنت على كل حال ولدي ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه.

ولا يحملني قلبين وقد انتهى الأمر إلي أن أمراء الدولة فلاناً وفلاناً وسماهم له وأنك قد شددت وطأتك عليهم وخافوك وأنهم معولون على الفتك بك فخذ حذرك يا ولدي.

فلما وقف حسن على الورقة قامت قيامته.

فلما اجتمع أولئك الأمراء في داره للسلام عليه أمر صبيان الزرد الذين اختارهم وصار يثق بهم فقتلوهم بأجمعهم وأخذ ما في دورهم.

فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة وهم أصحاب الرأي والمعرفة فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكفاة.

ومن حين قتل حسن الأمراء تخوفه باقي الجند ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئا عنيفاً بحاثاً عن الناس يريد إقلاب الدولة وتغييرها لتقدم أصحابه فأكثر من مصادرة الناس وقتل سراج الدين أبا الثريا نجماً في يوم الخميس ثامن شوال.

وكان أبو الثريا في أول أمره خاملاً في الناس ثم سمع قوله في العدالة أيام الآمر.

فلما قبض أحمد بن الأفضل علي أبي الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة وقد كان الداعي أيام الآمر طلب من يكون داعيا فاستخدم نجماً هذا داعياً ولم يقف على ما كان عنده من الدهاء.

فلما كان في وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدعوة فلما مات يانس وانفرد الحافظ بالأمر بعده حظي نجم عنده ورقاه إلى أعلى المراتب وصار يدبر الدولة.

وحسن عنده نصرة طائفة الإسماعيلية والانتقام ممن كان يؤذيهم في أيام أحمد بن الأفضل فتأذى بهذا خلق كثير وأثبت طائفة سماهم المؤمنين وجعل لهم زماماً قتله حسن بن الحافظ.

ولما قتل الشريف بن العباس وأخذ نجم يعادي أمراء الدولة ورؤساءها ولا ينظر في عاقبة وكانوا قد حسدوه على قربه من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لا يعمل شيئا إلا برأيه فلما تمكن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة.

ورد القضاء لابن ميسر وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وفيها مات القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكناني قاضي الإسكندرية بثغر رشيد وقد عاد من القاهرة في جمادى الآخرة ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

وكانت له مدة في القضاء وهو الذي كان سببا في اغتيال أبي الصلت أمية الأندلس.

وقد ذكره السلفي وأثنى عليه ورثى بعدة قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبي الفضل بن الحسين الزاهد الناطق بالحكم المعروف بابن بشرى الجوهري الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ في جمادى الأولى.

وكان حلو الوعظ إلا أنه تعرض في آخر عمره لما لا يعنيه فنفاه الحافظ إلى دمياط وذلك أن الآمر لما مات ترك جارية حاملاً فقام الحافظ بعده في الخلافة على أن يكون كفيلاً للحمل حتى يكبر فاتفق أنه ولد وخافت أمه عليه من الحافظ فجعلته في قفة من خوص وجعلت فوقه بصلاً وكراثاً وجزراً حتى لا يفطن به وبعثته في قماطه تحت الحوائج في القفة إلى القرافة وأدخل به إلى مسجد أبي تراب الصواف وأرضعته المرضعة وخفي أمره عن الحافظ حتى كبر وكان يعرف بين الصبيان بقفيفة.

فلما حان نفعه نم عليه ابن الجوهري هذا إلى الحافظ فأخذ الصبي وفصده فمات وخلع على ابن الجوهري ثم نفاه إلى دمياط فمات بها.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها عظم أمر حسن بن الحافظ وقويت شوكته وتأكدت العداوة بينه وبين من بقي من الأمراء والأجناد واشتد خوفهم منه وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة وخلع ابنه حسن من ولاية العهد وعزله عن الأمر.

فاجتمعوا بين القصرين وهم نحو العشرة آلاف ما بين فارس وراجل وبعثوا إلى الحافظ فشكوا ما فيه من ابنه حسن وأرادوا إزالته عنهم.

فعجز حسن عن مقاومتهم ولم يبق معه سوى الراجل من الجيوشية ومن يقول بقولهم من العسكر الغرباء.

فتحير ولم يجد بدا من الفرار منهم إلى أبيه فصار إليه وكان قد نزل بالقصر الغربي ففتح سردابا بين القصرين ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقي من تحت الأرض وتحصن بالقصر.

فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيده وأرسل إلى الأمراء يخبرهم بالقبض على حسن فأجمعوا على طلبه ليقتلوه.

فبعث إليهم يقبح مرادهم منه أن يقتل ولده وأنه قد أزال عنهم أمره وضمن لهم أنه لا يتصرف أبدا ووعدهم بالزيادة في الأرزاق والإقطاعات.

فلم يقبلوا ذلك وقالوا: إما نحن وإما هو.

وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر وبالغوا في الجرأة على الحافظ.

فلم يجد من ينتصر به عليهم لأنهم أنصاره وجنده الذين يستطيل بهم على غيرهم فألجأته الضرورة إلى أن استمهلهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل.

فرأى أنه لا ينفك من هذه النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لتنحسم المباينة بينه وبين العسكر التي لا يأمن إن استمرت أن تأتي على نفسه هو فإنهم لم يبرحوا من بين القصرين.

فاستدعى طبيبيه أبا منصور وابن قرقة فبدأ بأبي منصور اليهودي وفاوضه في عمل سقية لابنه فتحرج من ذلك وأنكر معرفته كل الإنكار وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنه لم يقف على شيء من هذا.

فتركه وأحضر ابن قرقة وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح والسروج وفاوضه في ذلك فقال: الساعة ولا يتقطع منها الجسد بل تفيض النفس لا غير.

فأحضرها من يومه وألزم الحافظ ابنه حسنا بمن ندبه من الصقالبة فأكرهوه على شربها فمات في يوم الثلاثاء ثالث عشري جمادى الآخرة.

ونقل للقوم سراً: قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم.

فلم يثقوا بذلك وقالوا لا بد أن يشاهده منا من نثق به وندبوا منهم امرأ يعرف بالجرأة والصر يقال له المعظم جلال الدولة محمد ويعرف بجلب راغب الآمري فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ فإذا هو مسجى بثوب ملاءة فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكينا وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت وانصرف إلى أصحابه وأخبرهم فتفرقوا.

وكان تاج الدولة بهرا الأرمني قد انفلت من حسن بن الحافظ وولي الغربية فلما علم أن النفوس جميعها من البدو والحضر قد انحرفت عن حسن جمع مقطعي الغربية والأرمن والعربان وطلب القاهرة ويقال كان ذلك بمباطنة من الحافظ فما وصل إلى القاهرة حتى غابت حشوده في القرى والضياع ونهبوها.

وعندما وصل إلى القاهرة يوم الخميس وقت العصر الحادي عشر من جمادى الآخرة التف عليه من بها من الأمراء والأجناد وأبادوا أكثر الجيوشية والإسكندرية والفرحية ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء.

ونهب أوباش الناس ما قدروا عليه.

ولما قتل حسن وسكنت الدهماء قبض الحافظ على الطبيب ابن قرقة وقتله بخزانة البنود وارتجع جمع أملاكه وموجوده وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح والسروج.

وأنعم على أبي منصور الطبيب وجعله رئيساً على اليهود وصارت له نعم جليلة.

وفيها كانت وزارة بهرام الأرمني النصراني الملقب تاج الدولة.

وكان السبب في ولايته الوزارة أنه جرت فتنة بين الأجناد والسودان عندما قتل حسن بن الحافظ قوي فيها السودان على الأجناد وأخرجوهم من القاهرة فإن السودان كانوا مع حسن دون الأجناد فإنهم الذين حملوا أباه الحافظ على قتله.

وقدم بهرام بالحشد كما تقدم فوجد حسناً قد مات فمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ لدين الله في يوم الخميس بعد العصر الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة فخلع عليه في يوم الأحد رابع عشره ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشره خلع الوزارة ونعت بسيف الإسلام تاج الخلافة وهو نصراني مع كراهة الحافظ لذلك لتسكن الفتنة ولم يرد إليه شيئاً من الأمور الشرعية.

فلم يدخل في مشكل لأنه كان عاقلا سيوساً حسن التدبير.

وتقدم كثير من حواشي الحافظ إليه ينكرون عليه ولاية بهرام مع كونه نصرانيا وقالوا: لا يرضى المسلمون بهذا ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزررة الحاجزة بينه وبين الناس والقضاة نواب الوزير من زمن أمير الجيوش ويذكرون دائماً النيابة عنه في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة.

فقال: إذا رضينا نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا فشق على الناس وزارته وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين.

وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية وأدى الطاعة للخليفة وأنفق في الجند جملةً من الأموال ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال وراسله الملوك وزال ما كان في البلد من الفتن فلم ينكر عليه سوى أنه نصراني.

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصلاة فلا يحضر بل يعدل إلى دكان بمفرده حتى يصلي الخليفة بالناس.

وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار بها منهم عالم عظيم.

ووصل إليه ابن أخيه وكان يعرف بالسبع الأحمر فكثر القيل والقال وأطلق أسيراً من الفرنج كان من أكابرهم فأنكر الناس ذلك ورفعوا فيه النصائح للحافظ وأكثروا من الإنكار.

وكان رضوان بن ولخشى حينئذ صاحب الباب وهو شجاع كاتب فبلغ بهرام أنه يهزأ به في قوله وفعله فثقل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة وولى أخاه الباساك قوص وفيها توفى الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجذامي الإسكندراني المعروف بالحداد بمصر.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها أخرج بهرام الأمير رضوان بن ولخشى من القاهرة لولاية عسقلان وقيل بل كان خروجه في سلخ رجب من السنة الماضية.

فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا في البحر يريدون القاهرة فناكدهم ومنع كثيراً منهم فبلغ ذلك الوزير بهرام فشق عليه وصرفه عن عسقلان واستدعاه فقدم إلى القاهرة.

وشكره الناس على منعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة فلم يطق بهرام إقامته معه فولاه الغربية في صفر إبعاداً له عنه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية جربة ونازل طرابلس الغرب فانهزم عنها سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فيها تكاثر حضور أقارب بهرام وإخوته وأهله وقومه ومجيئهم من ناحية تل باشر وكانوا مقيمين بها ولهم فيها كبير منهم يتولى أمرهم وقدموا أيضا بلاد الأرمن حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان.

فعظم ضررهم بالمسلمين وكثرت استطالتهم واشتد جورهم وتظاهروا بدين النصرانية وأكثروا من بناء الكنائس والديارات وصار كل رئيس منهم يبني له كنيسةً بجوار داره.

وتفاقم الأمر.

فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الإسلامية ويغلبوا على البلاد فيردوها دار ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك أخا بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم وبالغ في أذيتهم وظلمهم فاشتد ذلك على الناس وعظم على الأمراء ما نزل بالمسلمين فبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن ولخشى وكان مقدماً فيهم لكثرة نعوته بفحل الأمراء وهو يومئذ يتولى بالغربية يشكون إليه ما حل بالمسلمين ويستحثونه على المصير وإنقاذهم مما نزل بهم.

فلما وصلت إليه كتب الأمراء تشمر لطلب الوزارة ورقى المنبر خطيبا بنفسه فخطب خطبة بليغةً حرض فيها الناس على الجهاد في سبيل الله والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النصارى من الأرمن.

وكان حينئذ بمدينة سخا ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفا فأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام إذ تبين أن ليس من أهل الملة.

وسار بهم إلى دجوة وبهرام لا ينزعج.

فلما قرب رضوان جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم: اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا وما كنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا فلما بلغني الكبر أقاتلهم لا ضربت في وجوههم بسيف أبدا.

سيروا.

وأخذ أمراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئاً بعد شيء إلى رضوان.

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه في أمره فقال تحلبني الإسلام عليك.

فأيس حينئذ وجمع الأرمن وكانوا كلهم منقادين إليه لا يخالفونه في شيء من الأشياء وسار بهم نحو بلاد الصعيد يريد أخاه الباساك بقوص قاصداً أنه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكونهما ويتقوون بالنوبة أهل دينهم.

وقد ذكر أن بهرام خرج يريد محاربة رضوان في عساكر مصر.

فلما وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوا المصاحف قد رفعها رضوان فوق الرماح فصاروا بأجمعهم إلى رضوان باتفاق كان بينهم وبينه من قبل ذلك فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ما خف حمله وخرج من باب البرقية يوم الأربعاء وقت العصر حادي عشر جمادى الأولى وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه.

فعندما رحل اقتحم رعاع الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها وعملوا كل مكروه فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة.

وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح فنهبوها ونهبوا كنيسة الزهري ونبشوا قبر البطرك أخي بهرام.

وطار خبر انهزام بهرام في سائر إقليم مصر فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلباً ميتا وألقوه على مزبلة.

فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام في طائفة الأرمن وهم نحو الألفي فارس رماة فرأى أخاه على المزبلة كما ذكر فقتل جماعةً من أهل قوص ونهبها.

وسار عنها إلى أسوان فنزل بالأديرة البيض وأما رضوان فإنه لما وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله فأشار بنزوله في دار الوزارة فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل.

فاستدعى بالأموال من الخليفة وأنفق في الجند ومهد الأمر.

ورضوان أول وزير لقب بالملك.

فلما كن في اليوم الثالث من استقراره في الوزارة سير أخاه الأوحد إبراهيم ومعه العسكر شرقاً وغرباً والأسطول بحراً في طلب بهرام وبيده أمان له ليعود مكرماً وطائفته على إقطاعاتهم.

فسار إلى الأديرة وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها وذلك أن أسوان امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها فاضطر إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه أكثر الأرمن فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين فسأل لهم مواضع يسكنونها فأفردت لهم جهات منها سمالوط وإبوان وأقلوسنا والبرجين في صعيد مصر وضيعة أخرى بأعمال المحلة.

وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده.

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن ميسر عن قضاء القضاة في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم والوزير إذ ذاك بهرام ونفي إلى تنيس فأقام بها إلى يوم الاثنين ثاني ربيع الأول وقتل.

وهو من قيسارية وقدم منها مع أبيه وهو صغير في وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر في سني الشدة وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال واليسار وكان من جملة من أحضر والد القاضي وكان له مال جزيل ففوض إليه خطابة الجامع بمصر وفتح دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات.

فترقى ولده إلى أن ولي القضاء عدة مرار وكان له أفضال ومكارم وحصلت له وجاهة ورتبة جليلة وضرب دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الآمر.

وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى فإنه بلغه أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي عمل الكعك الذي يقال له افطن له وعمل عوضاً من حشو السكر دنانير فلما مد السماط في يوم العيد قال أحد الخدام لصديق له كان على السماط: افطن له ففهم عنه وتناول من ذلك وصار يخرج الذهب من فمه ويخفيه حتى تنبه الناس لذلك فتناولوا بأجمعهم منه.

فأرادوا القاضي ابن ميسر أن تشبه بأبي بكر المادرائي في ذلك فعمل صحناً منه لكن جعل فستقا قد لبس حلوى وذلك الفستق من ذهب وأباحه أهل مجلسه ولم يقدر على علم ذلك سوى مرة واحدة.

ثم إنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفراني فنم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم علي بن عباد الإسكندري وأنه أنشد قصيدة يذم فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم منها في ذم هذا سليمانكم قد ردّ خاتمه واسترجع الملك من صخر بن إبليس فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عرضيته طرباً بهذا البيت.

فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر وقال: أنشدني قصيدتك: فأنشدها إلى أن بلغ فيها إلى قوله: ولا ترضوا عن الخمس المناحيس.

يعني الحافظ وابنيه وأباه وجده فأمر الغلمان بلكمه فلكموه حتى مات بين يديه.

وقبض على ابن ميسر ونفي ثم قتل.

وكان ينعت بجلال الملك وكانت علامته الحمد لله على نعمه.

وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهري في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة.

وفيها ولي قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل ونعت بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم.

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم وادعى النبوة فاستجاب له خلق كثير وأملى عليهم قرآنا منه: إنما الناس بالناس ولولا الناس لم يكن الناس والجميع رب الناس.

ثم تلاشى أمره وانحل عنه الناس.

وفيها جلس الوزير رضوان في ذي القعدة لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى.

واستجد ديوان الجهاد واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج وأظهر من الاعتناء بذلك ما لا يوصف.

وكان قد مهد الأمور وأعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته وكثرة عدله وعمارته البلاد وقوة نفسه وشجاعته.

وأحضر جميع الدواوين وكتبها ورثبها ورتب الأمور أحسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال في ضمانه فكتب له في المجلس: أنا شاعرٌ وصناعتي الأدب وضمان مثلي المال لا يجب أنا مستميحكم وليس علي من جاء يطلب رفدكم طلب وإذا الباقي عليّ فما من حاصلٍ ورقٌ ولا ذهب فسامحه فيما عليه من الباقي.

وفيها أحضر من الصعيد الأعلى في رمضان جماعة تقدمهم رجل.

بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله فصلبوا.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلي صاحب باب بهرام من الاعتقال وولاه الإسكندرية.

فيها تشدد رضوا على الأنصاري من أصحاب بهرام وصادره وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم.

وتطلع إلى تقديم أرباب المعارف من أرباب السيوف والأقلام وأحسن إليهم وزاد في أرزاقهم.

ووجد نصرانياً قد توصل في أيام بهرام إلى ديوان النظر يعرف بالأخرم وبذل في كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات فآذى المسلمين وشق عليهم فصرفه رضوا واستخدم بدله رجلاً يقال له المرتضى المحنك بغير ضمان.

وتقدم إلى ديوان الإنشاء بانشاء سجل في الوضع من النصارى واليهود فأنشأه أبو القاسم ابن الصيرفي منعوا فيه من إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالسة وأمر النصارى بشد الزنانير المخالفة لألوان ثيابهم وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركبانا فما رئي في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع راكباً لكنه ينزل ويقود دابته.

وأمر أن يؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها.

ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر وأن يبيضوا قبورهم.

وضمن ذلك كله السجل فعمل به.

وفيها نزع السعر لتوقف النيل فنال الناس مجاعة فأمر الحافظ بفتح الأهراء والبيع منها على الناس بأوساط الأثمان فلم يمض الوزير بذلك وأخذ يهين حواشي الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح في مذاهبه لأنه كان سنيا وكان أخوه الأوحد إبراهيم إماميا.

فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يظهر تغيراً وأخذ يعمل في الخلاص منه فتنافر كل منهما من الآخر.

وكان رضوان خفيفا طائشا لا يثبت فهم بخلع الحافظ وقال ما هو بخليفة ولا إمام وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح.

وأحضر الفقيه أبا الطاهر ابن عوف وابن أبي كامل فقيه الإمامية وابن سلامة داعي الدعاة وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص عينه لهم وألزم كلاً منهم أن يقول ما عنده.

فقال ابن عوف: الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعا.

وقال ابن أبي كامل: السلطان أبقاه الله يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة.

قال: لأجل عمل مذهبك فقال: مذهبي معلوم يعني أن الإمامية للحاضر من إخوته ولأنه لا ينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع.

فخلص من هذا وقال الداعي: أنا داعي ومولىً لهم وما يصح لي خلعه فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق فأكون قد كذبت نفسي فلا أقبل الآن وأستخصم بذلك ولا يؤثر قولي فيما تريدون ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى نأتي به.

فقابله على هذا القول بالسب وإقامته أقبح قيام.

فقال الفقيه النحاس وكان حاضراً كل عظيمة وحمله على خلع الحافظ فبلغ ذلك المجلس الحافظ.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير ثديين في موضع ثدييها مثل الحلمتين فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع ما يعمل باليدين من رقم وخط وغير ذلك.

فجاء لها في المجلس بدواة فتناولت برجلها اليسرى الأقلام قلماً قلماً ثم تناولت السكين برجليها وبرت قلماً واستدعت ورقةً وأمسكتها برجلها اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء وحمدت الله في آخرها وناولتها الوزير فإذا فيها سؤال بأن يزاد في راتبها.

فوقع لها خلف الرقعة بما تسأل وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة به في ثغر الإسكندرية وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها زاد السعر وبلغ القمح ثلاثة دنانير للإردب فبيعت الغلال التي كان الأفضل خزنها وقد تغيرت وأرادوا رميها في النيل فكانت تقطع بالفئوس وتباع بأربعين ديناراً كل مائة إردب فيها كثر سعي الوشاة بين الحافظ والوزير فتخوف كل منهما من الآخر وقبض الوزير على عدة من خواص الحافظ منهم أبو المعالي بن قادوس وابن شيبان المنجم ورئيس اليهود وجماعة فقتلهم.

فسير الحافظ من أحضر إليه بهرام في رمضان فلما حضر أسكنه عنده بالقصر وأكرمه وشق ذلك على رضوان.

وكان الحافظ قد تلطف برضوان في أمر بهرام وقرر معه أ يستدعيه وينزله في القصر وحلف له أنه لا يوليه أمراً ولا يمكنه من تصرف فتسامح رضوان في أمره.

واستدعى فحضر بأهله وأنزل في دار بالقصر قريبة من المحول وهو قريب من سكن الحافظ فكان يستحضره في غالب الليالي ويستشيره ويعمل برأيه.

ولما كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس ما لم يلبسه أحد من الوزراء في مثل ذلك اليوم وعاد إلى القصر وفي نفس الحافظ منه أشياء تبينها رضوان في وجه الحافظ وعلمها منه فاشمأزت نفسه مع ما كان فيه من الطيش فركب في تاسع شوال وزحف إلى القصر فكلمه الخليفة من بعض طاقات المنظرة التي تطل على باب الذهب وجرى بينهما كلام اجترأ فيه على الخليفة.

وعاد إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب فانتفض الناس لذلك بالقاهرة ومصر وكثرت الأراجيف.

وفي تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هارباً إلى رضوان وكان شيخا ومعه ولد له ليقيمه خليفة فلم يكترث به وأحضر إسماعيل بن سلامة الداعي وقال له: ما تقول في هذا الرجل هل يصلح لما التمسه فقال: الخلافة لها شروط ونواميس ما في هذا منها شيء وتحتاج إلى نصوص ولولا أنم مولانا الآمر نص على مولانا الحافظ وأودعه سر الخلافة لما ثبتت فيه ولا استجاب له الناس.

فلم يحصل سوى أنه كان مشئوماً على نفسه وأهله فإن الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقتل جماعة منهم كثيرة.

ثم إن الحافظ لما رأى فعل رضوان وتعديه وكثرة من انضم إليه من العسكر عمل في التدبير عليه وأرسل إلى صبي من الجند يعرف بشومان وكانت فيه شهامة وجرأة وهو من صبيان الخاص فأحضره إليه من أحد السراديب سراً وأرسله إلى علي بن السلار أحد أمراء الدولة يأمره بالتدبير على رضوان وأنفذ معه مالاً إليه ليستعين به على ذلك.

وكان علي بن السلار عاقلاً صاحب حزم ويقظة وحسن تأت مع قوة وصرامة.

فلما جاءه القاصد بالمال وبلغه عن الخليفة ما قال انتهز الفرصة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاص وقرر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا واحداً وهم يصيحون: الحافظ يا منصور وفرق فيهم ما أرسله إليه الخليفة.

فلما كان يوم الاثنين الثالث عشر من شوال اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون: يا للحافظ الحافظ يا منصور فما وصلوا إلى الشرايحيين الذي يعرف اليوم بالشوايين حتى صاروا نحو الخمسمائة وما وصلوا بين القصرين إلا والعسكر جميعه من فارس وراجل معهم ولم يبق من الصبيان والعوام أحد حتى خرج النساء وأشرف النساء من الطاقات وصاروا بأجمعهم يصيحون: يا للحافظية.

فلما سمع رضوان الضجيج أراد أن يركب فمنعه بعض غلمانه فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبمن معه وخرج وحده بغير سلاح ليس معه سوى سيف فلقي الناس بنفسه وطردهم يميناً وشمالا وظهر منه شجاعة تعجب منه من شاهدها فإنه لقي ألوفاً من الناس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حملةً بعد حملة إلى أن قتل منهم عدة.

وكان أخوه إبراهيم قد بلغه الخبر فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك وشدت الريحانية ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمي ودرب الفرنجية.

فلما طال عليه وتيقن أن القوم بأجمعهم قد تمالئوا على حربه وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الريح من أعالي القصر يرشقونه بالنشاب ويرمونه بالطوب تحير.

وكان ابن أخته والي مصر فبلغه الخبر فقام بجميع غلمانه وسار لنجدة خاله فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنه لا يقدر على الوصول إليه فسار من ناحية باب البرقية ومعه بوقات وطبول فسمع إبراهيم أخو رضوان أصوات البوقات والطبول من جهة باب البرقية فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له: قد تفرق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشوك وقد قاطع الراجل علينا من ناحية باب النصر.

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف فما زال يتأخر قليلاً قليلاً حتى صار في رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء وبعث إلى داره التي هي دار الوزارة من أخذ له شيئاً منها على سبيل الخطف وأوصى إلى أخيه فانضم إليه هو ومن معه من أصحابه وفيهم أبي الفوارس وقدارة بن أبي عزة وشاور بن مجير السعدي وجماعة من خواصه وخرجوا من باب النصر.

فما هو إلا أن صار بظاهر القاهرة اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئاً.

وما وصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش إلا وقد تلاحق كثير من المغافرة وكان قد أسلف عند العرب أيادي وأفاض عليهم نعماً وأحسن إليهم إحساناً كثيرا في مدة وزارته فأدركه رجل من العرب يقال له سالم بن المحجل أحد شياطين الإنس وحسن له المسير إلى الشام.

واشتغل الناس بنهب دار الوزارة وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال فانتهب جميع ذلك وأحرقت أخشاب تعب وطلب رضوان الشام فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقله وتوجه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك ولم يزل عندهم إلى أن مات.

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد فنزل على أمين الدولة كمشتكين صاحبها فأكرمه وأبره وأقام عنده ثلاثة أشهر.

ثم أنفذ إلى دمشق واستفسد من الأتراك بها من قدر عليه.

وفيها خربت الأثارب من زلزلة وزلزلت دمشق أيضا.

وفيها مات الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل في شعبان فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر ثم اختير

الفقيه أبو العباس أحمد ابن الحطيئة في ذي القعدة فاشترط ألا يحكم بمذهب الدولة فلم يمكن من ذلك.

وكان الوزير رشوان قد تقدم إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المولى بن عبد الله محمد بن عقبة اللخمي المعروف بابن اللبني المغربي المالكي أن يعقد الأنكحة.

فلما كان في الحادي عشر من ذي القعدة قرر الحافظ في قضاء القضاة القاضي فخر الأمناء أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن محمد الأنصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق.

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخشي من صلخد في جمع فيه نحو الألف فارس وكان الناس في مدة غيبته يهتفون بعوده فبرزت له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح فلم يطق مقابلتهم فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجرف المعروف اليوم بالرصد وذلك يوم الثلاثاء مستهل صفر.

فاهتم الحافظ بأمره وبعث إليه بعسكر من الحافظية والآمرية وصبيان الخاص عدتهم خمسة عشر ألف فارس مقدم القلب تاج الملوك قايماز ومقدم الآمرية فرج غلام الحافظ.

فلقيهم رضوان في قريب ثلثمائة فارس فانكسروا وقتل كثير منهم وغنم معظمهم وركب أقفيتهم إلى قريب القاهرة.

وعاد شاور إلى موضعه فلم يثبت وأراد العود إلى صلخد فلم يقدر لقلة الزاد وتعذر الطريق فتوجه بمن معه من العربان إلى الصعيد.

فأنفذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال في عسكر ومعه أمان فسار خلفه وما زال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر فعفا عنه الحافظ ولم يؤاخذ أحداً من الأتراك الذين حضروا معه من الشام.

واعتقله عنده بالقصر قريباً من الدار التي فيها بهرام.

وفيها أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري في سابع عشر جمادى الآخرة تدريس دار العلم بالقاهرة فمضى إليها وكان مدرسها أبو الحسن علي بن إسماعيل فجرت بينهما مفاوضات أدت إلى الخصام الشنيع فخرج القاضي إلى القصر ماشياً وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته.

فعظم على الحافظ خروجه في الأسواق على هذه الهيئة وغضب لذلك فصرفه ورسم عليه وغرمه مائتي دينار وألزمه داره.

وأمر بطلب أبي الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري فخلع عليه وقرره مكانه ونعته الموفق في الدين ولم يكتب له سجل فأقام إلى آخر ذي الحجة ولم يتناول على القضاء معلوماً وكان جاري الحكم في كل شهر أربعين ديناراً وقنع بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون ديناراً في الشهر.

وفيها ولي الحافظ لدين الله الأمير المفضل نجم الدين أبو الفتح سليم بن مصال المالكي تدبير الأمور.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها هلك بهرام الأرمني بالقصر وكان الحافظ لما أقدمه من الصعيد إلى عنده أنزله في القصر ولم يمكنه من التصرف وكان يشاوره في تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله.

فلما مات في العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزناً كثيراً ظهر بسببه على القص غمة وهم أن يغلق الدواوين ولا يفتحها ثلاثة أيام.

وأحضر بطرك الملكية وأمره أن يجهز بهرام فقام بتجهيزه.

وأخرج نصف النهار في تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر ومن حوله النصارى يبخرون باللبان والصبار وخرج الخليفة علة بغلة شهباء وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان فسار خلف التابوت وسار والناس تبكي والأقساء يعلنون بقراءتهم والخليفة سائر إلى دير الخندق من ظاهر القاهرة.

فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديداً.

وكان عاقلاً مقداماً في الحرب حسن السياسة جيد التدبير وكان أولاً يقوم بأمر الأرمن وسكناهم يومئذ في ناحية تل باشر فتعصب عليه جماعة منهم وولوا غيره فخرج مغضباً وقدم إلى القاهرة فترقى في الخدم إلى أن ولي المحلة فقام بولايتها.

ومنها سار في زي حسن إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله فاستوزره الحافظ.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

في ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن منارة الجامع العتيق.

في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير فبلغ القمح كل إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين للحملة والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم والويبة من الشعير إلى سبعة دراهم والزيت الطيب إلى سبعة دراهم للرطل والجبن إلى درهمين للرطل والبيض إلى عشرين درهماً للمائة والزيت الحار إلى درهم ونصف للرطل والقلقاس كل رطلين بدرهم وعدم الفرخ والدجاج فلم يقدر على شيء منه.

وعم الوباء وكثر الموتان.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد بن أبي الخليل الصقلي الشاعر المعروف بتلميذ ابن سابق وكان فاضلاً ذكيا يتصرف في عدة فنون وله رسائل حسنة وشعر جيد.

وكان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في إطالة القصائد حتى صار الإنشاد يؤدى إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم فيه لطول مثولهم بالخدمة فخرج الأمر إليهم بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار.

فقال أحمد بن مفرج يخاطب الخليفة: أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً لم لا أمرت ندى كفّيك يختصر واللّه لا بدّ أن تجرى سوابقنا حتى يبين لنا في مدحك الأثر فأمروا بالاستمرار على ما هم عليه من الإطالة في الإنشاد.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها عظم الوباء بديار مصر فهلك فيه عالم لا يحصى عدده كثرة.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولاً إلى رجار ملك صقلية لمحاربته أهل صقلية وكان رجار فيه فضيلة وأمر فصنفت له تصانيف وكان عنده محبة للأدب ومدحه ابن قلاقس الشاعر وغيره.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بنواحي البحيرة فاجتمع له عدد كثير من الناس فخرج إليه طلائع بن رزيك وهو يومئذ والي البحيرة فكانت بينهما حروب قتل فيها.

وفيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير رسولاً إلى اليمن بسجل يقرؤه عليهم فخرج في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين ابن المستنصر إلى الأمير خمارتاش الحافظي صاحب الباب وقال له: اجعلني خليفة وأنا أوليك الوزارة فطالع الحافظ بذلك فأمر القبض عليه فقبض واعتقل.

وفيها قدم في جمادى الآخرة من دمشق الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وإخوته وأهله ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير صاحب دمشق معاضدين له فأكرم مثواهم وأنزلوا سنة أربعين وخمسمائة فيها أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختار يطلب الوزارة بأرض الصعيد فندب إليه عسكراً عليه سلمان مؤنس اللواتي فمضى إليه وحاربه فانهزم وهو من ورائه حتى أدركه وأخذه أسيراً وقتله.

وفيها قدم صافي الخادم أحد خدام المتقي من بغداد فاراً في ثالث عشري جمادى الأولى خوفاً فأكرمه الحافظ.

وفيها منع من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جرائد المستخدمين وأن يكون ما نسب منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر حلب بعد أبيه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية مدينة طرابلس الغرب وولى عليها رجلا من بني سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فيها صرف أبو الكرم التنيسي في ربيع الآخر وأعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى المحنك.

وفيها سير الحفاظ لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعاً وتحفاً.

وفيها خرج رضوان من ثقب نقبه بالقصر.

وذلك أن الحافظ لما اعتقله بالقصر أرسل يسأله في أشياء من جملتها زيارة نجم الدين بن مصال له في الوقت بعد الوقت فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال.

فحضر في يوم من الأيام ابن مصال لخدمة الخليفة وبدأ بزيارة رضوان فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بجوائج الناس ليعرضها على الحافظ

وكانت عادته ذلك فاحتاج إلى الخلاء فترك مشدته عند رشوان ودخل الخلاء.

فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كلها بما يسوغ التوقيع به وأتر بها وطواها في المشدة.

وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا فقال: على غاية من الشكر لنعمة مولانا وجواره.

وأخرج رقةً من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان فأمسكها وأخرج غيرها فإذا هي موقع عليها أيضاً.

وكان الحافظ يراه فقال: ما هذا فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان.

فقال له الحافظ: يا نجم الدين ما زلت مباركاً علينا والله يشكر لك ذلك لقد فرجت عنا غمة.

فقال: كيف يا مولانا قال: رأيت البارحة رؤياً مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا فالحمد لله إذ كان هذا.

وكتب على الرقاع أمضاها بخطه وخلع على ابن مصال.

فلما طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لا يعلم به إلى أن انتهى النقب من موضعه الذي هو فيه إلى تجاه فندق أبي الهيجاء وخرج النقب عن سور القصر.

وكان قياس ما نقبه خمسةً وثلاثين ذراعاً فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء ثالث عشري ذي القعدة في الجيزة فالتف عليه جماعة من لواتة وعدة من الأجناد وسمع به الطماعون وكان للناس فيه أهوية.

فندم الحافظ على تركه بغير حارس وأخذ في العمل.

فلما كان ثالث يوم عدي رضوان من اللوق وسار إلى القاهرة فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون فهزمهم وسار في إثرهم إلى القاهرة فدخلها في الرابعة من نهار الجمعة سادس عشريه ونزل بالجامع الأقمر.

فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به.

فأحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين وأمر ديوان الجيش بعرض الأجناد وأخذ أموالا كانت خارجة من القصر وأنفق في طوائف العسكر.

وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا فسير إليه صندوقاً فيه مال وقال له: هذا الحد الذي أراده الله فاسترض على نفسك.

وأتت هتافات الناس إلى رضوان فاستدعى الحافظ أحد مقدمي السودان سراً وقال له: إني بكم واثق.

فقال: ما ادخرنا هذا إلا لمولانا.

فقال: كم أصحابك قال: عشرة.

قال: لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجي علينا وعليكم فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا.

فقالوا: يا مولانا السمع والطاعة.

ورتبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأقمر: الحافظ يا منصور.

فلما فعلوا ذلك قلق وقال لمن حلوه: ما كل مرة يصح لهؤلاء الكلاب مرادهم.

فحسنوا له الركوب ظناً منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحد عليه.

فعندما ركب ضربه واحد من السودان في فخذه ضربة شديدة وتداركه آخر بضربة وتوالت عليه الضربات فقتل في الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ.

فسكنت الفتنة وهدأت الغوغاء.

ثم إن الحافظ بعث بالرأس إلى امرأة رضوان فلما وضعت في حجرها قالت: هكذا يكون الرجال.

وكان رضوان سنياً حسن الاعتقاد شجاعاً مقداماً قوي الغلب شديد البأس.

ولد ليلة عيد الغدير من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

إلا أنه كان مع حسن عبارته وغزارة أدبه طائش العقل قليل الثبات لا يحسن التدبير ولا يتأتى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته وكان أخوه الأوحد أثبت عقلا منه.

ومن جملة ما كتب له في تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبي القاسم ابن الصيرفي:

لأنك أذهبت عن الدولة عارها وأمطت من طرق الهداية أوعارها واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها.

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحداً وأعاد النصراني المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة على ما تقدم ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله وطلب منه المال فلم يسمح بشيء.

فركب الحافظ يوماً ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر وأمر به فأحضر إليه.

وقال له: كم تتجالد أريد منك مالي على لسان صاحب الستر.

فبينا الخليفة يخاطبه إذ أخذ كفاً من تراب وجعله في فيه فقال له الحافظ: ما هذا مالا ينبغي نقله إلى مولانا صلوات الله عليه.

فغضب عليه وأمر بإحضار أبيه وأخيه وكانا معتقلين فأخرجا وقتل الأخرم وأخاه وأبوهما ينظر قتلهما ثم قتل الأب.

وأحاط بأموالهم فحصل منهم ما يزيد على عشرين ألف دينار عينا.

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي الكاتب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

وكان أبوه صيرفياً وجده كاتباً وأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش.

ثم انتقل معه إلى ديوان الإنشاء.

ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزيدي الحسيني ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده.

وله الإنشاء البديع والشعر الرائع والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها توجه العسكر في ثالث صفر لقتال لواتة وقد تجمعوا وعقدوا الأمر لرجل قدم من المغرب وادعى أنه ولد نزار بن المستنصر.

فسار إليهم العسكر وواقعهم على الحمامات وانهزم منهم العسكر فجهز الحافظ عسكراً آخر ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلا ووعدهم بالإقطاعات فغدروا بابن نزار وقتلوه وبعثوا برأسه إلى الحافظ.

ورجعت العساكر في ربيع الأول.

وفيها صرف القاضي المكين الموفق في الدين أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري عن القضاء لسبع خلون من المحرم واستقر على الدعوة الموفق الأمير كمال الدين واستخدم في وظيفة القضاء وكان كريم الأخلاق حليما عليه سكينة ووقار مليح الشيبة ظريف الهيئة.

وفيها توفى أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي القرشي المعروف بجوامرد خطيب القدس.

وفيها بلغ النيل تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع ففاض الماء حتى بلغ إلى الباب الجديد أول الشارع خارج باب زويلة فكان الناس يتوجهون من مصر إلى القاهرة على ناحية المقابر لامتلاء الطريق بالمياه.

فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر له الحزن والانقطاع فسأله بعض خواصه عن ذلك فأخرج له كتاباً وقال: انظر هذا السطر فإذا فيه: إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد.

ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها.

فاتفق أنه لم تنسلخ هذه السنة حتى مرض الحافظ مرضة الموت.

وفيها انقرضت دولة بني باديس.

وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وخلت القرى ولحق كثير من الناس بجزيرة صقلية.

فاغتنم رجار متملكها الفرصة وبعث جرج مقدم أسطوله على نحو مائتين وخمسين شينيا فنزل على المهدية ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين وبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ففر بأخف حمله وتبعه الناس.

فدخل جرج المهدية بغير مانع واستولى على قصر الأمير حسن وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات.

وعزم حسن على المجيء إلى مصر فقبض عليه يحيى بن العزيز صاحب بجاية ووكل به وبأولاده وأنزله في بعض الجزائر فبقى حتى ملك عبد

المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين فأحسن إلى الأمير حسن وأقره في خدمته.

فلما ملك المهدية تقدم إلى نائبه بها أن يقتدي برأي حسن ويرجع إلى قوله.

فكانت عدة من ملك من بني باديس بن زيرى بن مناد تسعة ومدتهم من سنة إحدى وستين وثلثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مائة واثنتان وثمانون سنة.

وفيها بعث رجار بن رجار ملك جزيرة صقلية إلى المهدية أسطوله مائتين وخمسين من الشواني مع جرجي بن ميخائيل فجد في حصارها حتى أخذها في صفر منها وملك سوسة وصفاقس وملك رجار بونة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الفريقين وامتنع الناس من المضي إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر.

وابتدأت الحرب بينهم في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى وتوالت في يوم السبت رابع جمادى وهم العسكر بخلع الحافظ من الخلافة فمات بقصر اللؤلؤة وقد نقل إليه وهو مريض بكرة يوم الأحد وقيل ليلة الاثنين لخمس خلون من جمادى الآخرة واشتغل الناس بموته.

وكان له من العمر يوم مات ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيام منها مدة خلافته من يوم بويع بعد أحمد بن الأفضل ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

وأصابته في ولايته شدائد واعتقل ثم لما أعيد تحكم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان.

فلم يستوزر بعده أحداً وإنما أقام كتاباً على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم يسم أحداً منه وزيراً وهم: أبو عبد الله محمد بن الأنصاري وخلع عليه بالحنك والدواة فتصرف تصرف وزراء الأقلام وصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد والجمع والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النصراني.

وكان الحافظ حازم الرأي جماعاً للأموال كثير المداراة سيوساً عارفاً.

ولم يكن أحد ممن ولي قبله أبوه غيره خليفة سواه.

وكان يميل إلى علم النجوم وكان له من المنجمين سبعة منهم المحقوف وابن الملاح وأبو محمد بن القلعي وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كانت إذا ضرب بها من به قولنج خرج عنه الريح وما زالت بالقصر إلى أن كسرت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل ويوسف وأبا المنصور إسماعيل.

وكان مطعوناً عليه فإنه ولي بغير عهد وإنما أقيم كفيلا عن منتظر في بطن أمه فلم يظهر للحمل خبر.

ومن محاسن ما يحكى عنه أنه كان يخرج في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقويةً لمن بها من المركزية الكنانية وغيرهم.

ويقدم على العسكر عدة فيجعل على كل مائة فارس أمير ويقدم على الجميع أمير تسلم إليه الخريطة فيكون أمير المقدمين وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الديون بالحضرة ليتفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها.

ويصدر التعريف من كاتب الجيش هناك إلى الديوان بالحضرة بذلك ويسلم إليه مبلغ من المال لنفقته معونةً لمن فاتته النفقة من العسكر فإن النقباء الذين للطوائف يجردون من كان من الطوائف حاضراً ومن كان مسافراً في إقطاعه فيأخذ صاحب الخريطة أوراقاً بمن سافر وهو في إقطاعه ليوصل إليه نفقته.

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير وللأجناد ثلاثون ديناراً لكل جندي.

واتفق مرة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمس أمراء من جملتهم جلب راغب الذي اتفق منه في حسن بن الحافظ بعد موته ما تقدم ذكره فلما سير إليه مائة دينار نفقته تجهز للسفر في جملة الناس وسلمت الخريطة لأميرهم.

فلما دخلوا على الحافظ ليودعوه ويدعو لهم بالنصر والسلامة على العادة قضوا حق الخلافة وانصرفوا إلا جلب راغب فإنه وقف فقال الحافظ: قولوا للأمير ما وقوفك دون أصحابك ألك حاجة فقال: يأمرني مولانا بالكلام.

قال: قل.

فقال يا مولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرك وقد كان السلطان استزلني فسفهت نفسي وأذنبت ذنباً عظيماً عفوا مولانا أوسع منه وأعظم.

فقال له الحافظ: قل ما تريد غير هذا فإنا غير مؤاخذيك به.

فقال: يا مولانا قد توهمت أنك تحققت أني ماض في حالة السخط وقد آليت على نفسي أن أبذلها في الجهاد فلعلي أموت شهيداً قد صنع ذلك سخط مولانا علي.

فقال له الحافظ: انته عن هذا الكلام وقد قلنا لك إنا ما واخذناك فأي شيء تقصد فقال: لا يسيرني مولانا تبعاً لغيري فقد صرت مراراً كثيرةً مقدماً وأخشى أن يظن أن هذا التأخير للذنب الذي أنا متعرف.

قال: لا بل مقدماً وصاحب الخريطة.

وأمر بنقل الحال عن المقدم الذي تقرر للتقدم والخريطة إلى جلب راغب وأعطى مائتي دينار وقال: له استعن بهذه.

فعد هذا من الحلم الذي ما سمع بمثله.

وكان الغالب على أخلاقه الحلم.

وكان مقدم المطالبين يجيء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب ما يظهر فجاء يوماً وأخبر أنه وجد حوضاً لطيفاً قريباً من معلف الجمال فلم يتعرض له.

فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوا به فإذا حوض مطبق بغطاء كشف عنه فإذا فيه صنم من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضع أصبعاً في فيه وأصبعاً أخرى في دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك فلما أخذ الصنم ضرط ضرطة عظيمة فألقاه من يده وقد اشتد خجله.

فقام موفق أحد الأستاذين المحنكين ليناوله إياه فضرط أيضاً.

فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم القولنج.

ووجد في مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه حبوة ممدودة أحضرت إلى الأستاذ مفضل المعروف بصدر الباز فإذا فيها حنش من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال وعيناه من ياقوت أحمر وفي فمه جرس من ذهب.

فأعلم به الحافظ فلم يزل يبحث عن خبره حتى أحضرت له عدة أحناش كبار وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رءوسها ثم تحركها مرةً أو مرتين وتسقط ميتة.

وكان الحافظ حريصا على علم السيميا.

فظهر في أيامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسي شيخ بني الأنصاري أوحد زمانه في علم السيمياء فسأله الحافظ أن يريه شيئاً من ذلك فأراه ساحة القصر قد صارت لجة ماء فيها سفينة متعلقة وشواني حربيات قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها والحافظ يرى لمعان السيوف ومرور السهام وخفقان البنود ورءوس الرجال وهي تسقط عن كواهلها والدماء تسيل حتى سلم أصحاب السفينة لأصحاب الشواني فساروا بها والأبواق تزعق والطبول تضرب إلى أن غابت عن الأبصار في لجج البحار.

ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره.

ثم أمره أن يريه شيئاً آخر: فقال: لنخرج من في مجلس أمير المؤمنين إلى منزله فأمرهم فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولهم واقفة بباب القصر فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا ن رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم ما يكون من القرون فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رأوا فضحك وقال: افدوا دوابكم منه.

فقطع كل واحد منهم على نفسه شيئاً فأمر له به.

وما زال مقيماً بمصر حتى مات.

وكان في أيام الحافظ أيضاً ابن محفوظ سأله أن يريه شيئاً من أعماله فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر فلما وضعت بين يديه امتلأت ياسميناً في غير أوانه وصار يعلو على كل طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة.

الظافر بأمر الله

أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر بالله ولد يوم الأحد النصف من ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة وبويع في اليوم الذي مات فيه الحافظ لدين الله وهو كما تقدم يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام بوصية من أبيه له بالخلافة.

وكان أصغر أولاده وفيهم أبو الحجاج يوسف وأبو الأمانة جبريل وهما أسن منه وركب بزي الخلافة.

واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال بوصية الحافظ بذلك أيضاً ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة وهو يومئذ من أكابر الأمراء وهو شيخ لين متواضع.

فسكن دار المأمون البطائحي.

وصار أبو الكرم التنيسي من ذوي رأيه.

وأول ما بدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة بالشمع في القصر ووقف بباب الملك بالإيوان المجاور للشباك وأحضر ابني الأنصاري وهما أبو عبد الله وأبو واستدعى متولى الستر وهو صاحب العذاب وأحضرت آلات العقوبة وضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك وثنى بأخيه كذلك ثم أخرجا وقطعت أيديهما وسلت ألسنتهما من أقفيتهما وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني فأقاما زماناً ثم وضعا.

وكان سبب قلتها أنهما كانا من الكتاب فنبغا وتوصلا بالحافظ فاستخدمهما في ديوان الجيش فوثبا على رؤساء الدولة وأعيان كتابها وخواص الخليفة من الأستاذين المحنكين مثل الأجل الموفق كاتب الدست وكان موضع سر الخليفة ومحل مشورته في الأمور العظام من أحوال الممالك ومن يليه كالقاضي المرتضى المحنك والخطير ابن البواب وتجرآ على المذكورين وغيرهم مع قلة دربة.

فكثر حسادهما وعمل عليهما فيما يخرج للأمراء والمقطعين من الخروجات في كل سنة ويشتمل الخرج على نعوت ذلك الأمير فيصير ذلك الخرج إلى عالم الإقطاعات وهو تحته.

فذكرا في أحد الخروجات كلاماً طريفاً ليؤخذ عليه خطهما ليوقف عليه الخليفة حتى يتبين له جهلهما وهو: حبطست حبطست وفي النهر قد غطست بغلالة أرجوان صفراء بزعفران.

فمشى عليهما ذلك وترجما الخرج بخطهما وخرج من أيديهما فأحضر إلى الأجل الموفق ابن الحجاج كاتب الدست فأخذه ودخل به إلى الخليفة الحافظ وقال: يا مولانا الأمثال مضروبة بحفظ ديوان هذه الدولة ومن يتولاها فكيف لو ظفر بهذا الخرج مخالف لها يقصد التشنيع عليها.

فقال له الحافظ: يا مولاي الموفق هبهما لي.

فقال: يا مولانا كلنا مماليكك.

وخرج ولم يبلغ الأعداء منهما ما أرادوا فزاد أمرهما في الدولة على الخليفة والاستعلاء على الناس.

وأراد الأكبر منهما أن يدخل على الخليفة ويخرج ظاهراً ليراه الناس فجدد له ديواناً سماه ديوان الترتيب وجمع فيه من يخدم في ترتيب الأعمال صفقة صفقة وأن يكون أميرهم بجار يقرر له وهذا الترتيب يقال له في غير هذه الدولة صاحب البريد فكان يكاتب متولى هذا الديوان بالأخبار بمطالعات تصل إليه مترجمةً بمقام الخليفة فيعرضها من يده ويجاوب عنها بخطه.

فورد كتاب بعض أصحاب الترتيب بقضية فأجابه بكلام وأراد الاستشهاد بآية من كتاب الله تعالى فحرفها وقالها على غير ما أنزلت ووقع الجواب للموفق فأخذ في كمه مصحفاً ودخل إلى الخليفة ومعه جواب ابن الأنصاري وقال: يا مولانا هذا كتاب الله تعالى قد حضر إلى مقامك وهو المنزل على جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليك جناية ابن الأنصاري عليه فخذ بحقه لهذه الجنايات والحمد لله إذ وقع هذا الكتاب إلى المملوك دون غيره فإن المملوك لم يزل يتتبع هذه الأمور لئلا يقع عليها أعداء الدولة فيشيعوا ذلك في الدول المخالفة لها.

فقال له الحافظ: أنا أعلم منك هذا وأعلم من المذكورين ما ذكرت وقد كنت سألتك فيهما مرة وهذه الثانية فإن لهما علينا خدمة.

فقال: العفو يا مولانا.

وانصرف ولم ينل منهما غرضاً.

فأمر الحافظ ابن الأنصاري الأكبر أن يمضى إلى الأجل الموفق ويخدمه في داره.

وكان يومئذ ديوان المكاتبات مقسوماً بين أبي المكارم ابن أسامة وبين الموفق إلا أن ابن أسامة لا يلتفت لأمر الديوان لكثرة شغله بدنياه فاستناب ابنه أبا المنصور عنه وكان يحلق بأبيه في الاشتغال بأمر دنياه عن النيابة فصار اعتماد الخليفة في الديوان بأجمعه على الأجل الموفق وكان ينفذه ولا يشق ابن أسامة لما أسلفه من الخدم السابقة.

ثم لما مات أبو المكارم أسامة وكان في الظن أن ابنه أبا المنصور يستخدم مكانه سبق ابن الأنصاري وسأل الحافظ فاستخدمه في النصف من ديوان المكاتبات فقط شريكا للموفق فيه وانفرد الموفق بالإنشاء.

ونعت ابن الأنصاري بالقاضي الأجل سناء الملك وأمره الحافظ بخدمة الموفق وأن يقنع معه بمجرد الرتبة.

فشق ذلك على الموفق وصبر على ضر.

وقرر أبو المنصور بن أسامة في ديوان الترتيب مكان ابن الأنصاري.

وتجند ابن الأنصاري الأصغر وتأمر في يوم واحد وخلع عليه بالطوق ورتب في زم الإمرية وهي إمرة طوائف الأجناد.

فكثر الأعداء وتعددت الحساد واشتغل الناس بهما وأطلقوا الألسنة بذمهما فكان يقال: هذا الأمير الطاوي ابن الأنصاري.

ولج الناس بالكلام فيهم وهم عاجزون عنهم حتى مات الحافظ فكان من أمرهما مع ابنه الظافر ما تقدم ذكره.

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان اجتمع كثير من السودان وعدة من المفسدين ببعض القرى فخرج إليهم الوزير ابن مصال فنازلهم حتى كسرهم.

وكان الأمير المظفر سيف الدين معد الملك ليث الدولة علي بن إسحاق بن السلار واليا على البحيرة والإسكندرية وكان ابن زوجه ركن الإسلام عباس والي الغربية.

فلم يرض ابن السلار بوزارة ابن مصال وخرج من الإسكندرية إلى ربيبه بالغربية واتفقا على القيام وإزالة ابن مصال.

فبلغه ذلك فأعلم به الخليفة الظافر فجمع الأمراء في مجلس الوزارة وبعث إليهم زمام القصور يقول: هذا نجم الدين وزيري ونائبي فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره.

فقال الأمراء: نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون فرجع الزمام بهذا الجواب.

فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له درى الحرون وهو أحد أشرار القوم ومن رفقة ابن السلار: إن سمع مني ما أقول قلت.

فقال له الوزير: قل.

قال: مولانا صلوات الله عليه يعلم وأنت تعلم أن ما في الجماعة من يضرب في وجه ابن السلار بسيف وأولهم أنا فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده فالأمر لله وله.

فلما سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر وشدوا على خيولهم وساروا يريدون ابن السلار.

فلما غلب الظافر عن دفعه أعطى ابن مصال مالاً كثيرا وأمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخيرة وهو يساعده.

وسار ابن السلار فرأى ابن مصال أنه لا طاقة له به فخرج إلى جهة الصعيد وعدي إلى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان عندما سمع بوصول المظفر.

وقدم ابن السلار إلى القاهرة في يوم الأربعاء خامس عشر شعبان فوقف على القصر وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله.

فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آخرها أنه فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش شرف الإسلام كافل وبقي يحقد على الظافر ميله مع ابن مصال وفي نفس الخليفة نفور منه أيضا.

وسكن دار الوزارة.

وجمع ابن مصال كثيراً من السودان ومن العربان ولواتة وغيرهم وانضم إليه بدر بن رافع مقدم العربان وسار بهم.

فندب ابن السلار ربيبه المظفر أبا منصور ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر فنزل بركة الحبش.

وقدم ابن مصال أمامه الماجد في عسكر فطرق عباساً على حين غفلة وقتل من عسكره كثيراً وانهزم جماعة وثبت عباس حتى أتته النجدة من الغد فكر على أصحاب ابن مصال وقاتلهم فلم يفلت منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل وأخذ الأمير الماجد نسيب ابن مصال وضربت عنقه.

فسار ابن مصال إلى بلاد الصعيد بجميع الأجناد والعربان.

وشرع ابن السلار يجهز عباساً فجهزه في جيش كثيف وبادر بالخروج خوفاً من الاجتماع على ابن مصال فسار إلى دلاص ومعه طلائع بن رزيك وهو أحد المقدمين فبرز إليه ابن مصال وواقعه عدة وجوه فانجلت الوقائع عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع مقدم العربان في يوم الأحد التاسع عشر من شوال.

ويقال إنه بلغت عدة القتلى سبعة عشر ألفا.

فعاد عباس وقد قوي ومعه رأس ابن مصال إلى القاهرة فطيف بها على قناة القاهرة ومصر يوم الخميس ثالث عشري وكان ابن مصال من أهل برقة.

وخدم أولاً في البيدرة والصيد هو وأبوه فتقدم في الخدم حتى نال الوزارة.

واتفق أنه مر في وزارته مرةً فقالت له امرأة كانت تعرفه في حال فقره: سليم ووزرت فقال لها: نعم.

قالت: والله ما وزرت وبقي أحد.

فضحك وأمر لها بصلة.

وكان العادل ابن السلام منذ استقر في الوزارة أخذ ينظر في أمر الأجناد المعروفين بالنهضة والعزم وزاد في أرزاقهم وتفقد خزائن السلاح وحفظ النواميس وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية.

وقدم عليه مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ فأكرمه.

إلا أنه كان يستوحش من الظافر وخائفاً على نفسه فأخبر بأن ينتدب رجالا يمشون في ركابه بالزرد والخوذ نحو الستمائة ويجعلهم نوبتين بزمامين في كل يوم نوبة وأوهم أن الخليفة خبأ له قوماً يغتالونه بالقصر.

فنقل جلوس الخليفة من القاعة التي يدخل إليها من الدهاليز المظلمة إلى الإيوان في البراح والسعة.

فكان إذا دخل إلى الخليفة يدخل ومعه أولئك الذين انتدبهم كلهم فيجلس الخليفة في الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجه ومع هذا يبالغ في الخدمة ويظهر الطاعة ولا يخل بها في قول ولا فعل.

وكان للخليفة غلمان نحو الخمسمائة رجل يقال لهم صبيان الخاص وفيهم من هو أمير فبلغ ابن السلار أنهم قد تحالفوا وتعاقدوا على أن يهجموا عليه وهو في داره ليلاً ويقتلوه.

فلما كان في سادس عشري رمضان أغلق القاهرة والقصور وأحاط بصبيان الخاص وقتلهم وفر منهم عدة فكتب إلى الولاة بقتل من ظفر به منهم.

وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم.

وأصل هذه الطائفة التي كانت تعرف بصبيان الخاص أن من مات من الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد فإنه يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع في أماكن مخصوصة ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسية من الرمي وغيره ويقال لهم صبيان الخاص.

وأخذ ابن السلار في الاحتفال بأمر عسقلان وسد خللها وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئا كثيرا.

وولي عضد الدولة ناصر الدين نصر بن عباس ربيبه مصر بشفاعة جدته أم عباس وكان فيه جرأة فاستدناه الخليفة الظافر وقربه واختص به.

وفيها قتل الموفق أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي في يوم الجمعة الرابع من شوال وكان يتولى نظر الديوان.

وذلك أن ابن السلار لما كان في بداية أمره من جملة الصبيان الحجرية دخل يوماً على الموفق بن معصوم برسالة وأعادها عليه مراراً وأغلظ له في القول فنفرت منه نفس ابن معصوم.

فكتب له مرة منشور بإقطاع وجاء به إلى ابن معصوم ليثبته.

فلما رآه تغافل عنه وأهمل أمره إهانةً له وكراهة فيه فقال له ابن السلار وقد تكرر سؤاله وهو يعرض عنه: ما تسمع فقال له الموفق: كلامك ما يدخل في أذني أصلاً.

فولى ابن السلار وخرج من غير أن يكتب له.

وصرف الدهر ضرباته وصار ابن السلار وزيراً وابن معصوم ناظر الدواوين فلما دخل عليه قال له: يا قاضي ما أظن كلامي يدخل أذنك فتلجلج وقال: عفو السلطان.

فقال: قد استعملت العفو بخروجي من عندك.

وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا حديدا عظيم الخلقة وقال: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت.

وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتا ثم أنزل بعد أيام.

وفيها رمي برأس سعيد السعداء الخادم من القصر في سابع عشر شعبان ثم أخرج وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق.

وهو هذا الذي تنسب إليه دويرة سعيد السعداء التي هي اليوم خانقاه برحبة باب العيد.

وفيها قتل تاج الرئاسة ابن المأمون البطائحي في رابع عشر صفر.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني والد القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي وكان قاضي بيسان والناظر فيها ومولده في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة سنة خمس وأربعين وخمسمائة فيها أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما ونهبوها وحرقوها وأخربوها في رجب سنة ست وأربعين وخمسمائة فيها جهز أبو منصور علي بن إسحاق المعروف بالعادل ابن السلار المراكب الحربية بالرجال والعدد وسيرها في ربيع الأول إلى يافا فأسرت عدةً من مراكب الفرنج وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه وقتلوا خلقا كثيرا من الفرنج بها.

ثم توجهوا إلى ثغر عكا فأنكوا فيهم وساروا منه إلى صيدا وبيروت وطرابلس فأبلوا بلاءً حسنا وظفروا بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم في البر ولو قدر ذلك لقطع الله دابر الفرنج لكنه اشتغل بإصلاح أمور دمشق.

وعاد الأسطول مظفرا بعد ما أنفق عليه العادل ثلثمائة ألف دينار.

وسبب مسير الأسطول تخريب الفرنج للفرما.

وفيها قطع العادل بن السلار جميع الكسوات المقررة للناس في الدولة فعم ذلك الأمراء والدواوين سنة سبع وأربعين وخمسمائة فيها صرف ابن السلار أبا الفضائل يونس عن القضاء وكان من الأعيان النزهين الأنفس الكبيرين الهمم العظيمين القدر لم يشرب قط ماء النيل بل ماء الآبار ولم يأكل خبز السلطان.

وقرر عبد المحسن بن محمد بن مكرم من بعده ثم صرفه وولى بعده بدر بن ثمال بن نصير وقيل بل الذي تولى بعده أبو المعالي محمد بن جميع ابن نجا الدسوقي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرج العسكر من القاهرة لحفظ ثغر عسقلان من الفرنج وكانوا قد نزلوا عليها في السنة الخالية.

وكانت العادة أن يخرج في كل ستة أشهر عسكر بدلاً من العسكر الذي بالثغر.

فلما قدم البدل كانت النوبة لركن الدين المظفر أبي منصور عباس بن تميم ربيب العادل.

فخرج ومعه من الأمراء ابنه نصر بن عباس والأمير ملهم والضرغام وأسامة ابن منقذ وغيره وكان لأسامة بعباس اختصاص كبير.

فلما نزلوا بعد رحيلهم من القاهرة على بلبيس تذكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون إليه من مقاساة السفر ولقاء العدو فتأوه عباس أسفاً على مفارقته لذاته بمصر وأخذ يلوم العادل ويثرب عليه من أجل كونه أخرجه.

فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر.

فقال: وكيف لي بذلك فقال: هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فإنه يحبك ويكره عمك فإذا أجابك فاقتل عمك.

فوقع هذا الكلام من عباس بموقع وقبله فاستدعى ابنه وأسر إليه بما تقرر بينه وبين أسامة وسيره سراً إلى القاهرة.

وكان العادل قد كره تخصيص نصر بن عباس بالخليفة الظافر وقال لعباس وأمه والله ما ينبغي اجتماع نصر بالخليفة قولا له يقصر من اجتماعه فربما نتج من شابين ما لا ينبغي.

وقال لأم عباس: لا يدخل ابنك داري إلا بإذني.

فكأنه يوحي بأنه قاتله.

فلما سار نصر من عند أبيه ودخل إلى القاهرة كان وقت غفلة من العادل أمكنته فيها الفرصة فاجتمع بالظافر وأعلمه بالحال التي قدم من أجلها فأعجبه ذلك وأذن فيه لما كان في نفسه من قتل ابن السلار لصبيان الخاص وغير ذلك.

ففارق نصر الخليفة وقد قوى عزمه وأتى إلى دار جدته السيدة بلارة بنت القاسم زوجة العادل وأخبر العادل بأن أباه سمح له بالعود إلى القاهرة شفقةً عليه وخوفاً من وعشاء السفر فقبل ذلك ومشى عليه.

فلما أصبح العادل يوم الخميس سادس المحرم مضى من أول النهار إلى مصر لتجهيز المراكب الحربية والنفقة في رجالها وعرضها فظل نهاره في تهيئة ذلك ليلحق عباساً وعاد في أثناء النهار إلى داره بالقاهرة وقد لحقته مشقة وتعب تعباً كثيرا.

فلما استلقى على الفراش لينام وكانت امرأته جدة نصر قد توجهت إلى الحمام وخلا له البيت فجاء إلى باب السر ودخل منه ومعه سيف فإذا

العادل قد نام وقت القائلة فاخترط سيفه وضربه وهو خائف فوقعت الضربة على رجله فثار من فراشه وأبصره فقال: إلى أين يا كليب! وخرج نصر يعدو وكان قد أعسته جماعة من أصحابه فلما صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا له: قد قتلت نفسك وقتلتنا! ودخلوا وهو معهم فإذا به قد جاء أستاذ من خدامه وهو يحدثه فقتلوه وأخذوا رأسه فطلع بها نصر إلى الظافر.

وماج الناس في القاهرة.

وسرح الطائر للوقت بطلب عباس من بلبيس فقام من فوره وصار إلى القاهرة فدخلها بكرة يوم الجمعة سادس المحرم ثاني يوم قتلة العادل فوجد جماعة من الأتراك كان العادل اصطفاهم واختصهم قد نفروا وتوحشت قلوبهم مما وقع فأخذ يسكن أمرهم فلم يثقوا به ولا اطمأنوا إليه.

وخرجوا يداً واحدة فساروا إلى دمشق.

وكانت قتلة العادل في يوم الخميس وقت الظهر السادس من المحرم وله في الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر.

ولما حملت رأسه إلى الظافر أشرف من باب الذهب ونصبت الرأس ليراها الناس ثم حملت إلى خزانة الرءوس من بيت المال وجعلت فيها مع الرءوس وما تحرك لها ساكن ولا تكلم أحد.

إلا أن نائحة كانت تسمى خسروان كانت قد مهرت في صناعة النياحة على الأموات وصارت تنشىء في نواحها الروائع فقالت فيه ترثيه سطرين أعجب بهما أدباء العصر من جملة قطعة: ما تقبل الغفلة يا شهيد الدّار يا شبيه ذي النّورين صاحب المختار وبطل مسير العساكر إلى عسقلان.

فسر الفرنج ما جرى وكانوا محاصرين لعسقلان فقالوا لأهلها قتله ابنه وأنتم تقاتلون لمن فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد عنهم حتى أخذها الفرنج وتقووا بأخذها.

واستعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق إلى وطنه شاء صاحبه أو أبى.

ولما وصل عباس خلع عليه الظافر خلع الوزارة في يوم الجمعة المذكور ونعت بالأفضل ركن الإسلام فباشر وضبط الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل.

واستمر ولده نصر على مخافطة الخليفة عن كل أحد وأبوه لا يعجبه ذلك.

وواصل الخليفة الظافر نصر بن عباس بن تميم بالعطاء الجزيل فأرسل إليه في يوم عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ثم أغفله أياماً وحمل إليه كسوة من كل نوع وأغفله أياماً وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار وأغفله أياما وبعث إليه ثلاثون بغل رحل وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها.

وكان يتردد بينهما مرتفع بن فحل في قتل نصر لابنه عباس كما قتل زوج جدته العادل ابن السلار فبلغ ذلك أباه على لسان أساة بن منقذ فلاطفه واستماله.

وزاد الأمر حتى كان الخليفة يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس التي هي اليوم المدرسة المعروفة بالسيوفية.

فخاف عباس من جرأة ابنه وخشى أن يحمل الخليفة على قتله فيقتله كما قتل ابن السلار فعتبه سرا ونهاه عن ملازمة الخليفة وابنه فلم يفد فيه القول.

وفيها وصلت مراكب من صقلية فملكوا مدينة تنيس.

وفيها مات رجار بن رجار صاحب جزيرة صقلية وقام من بعده ابنه وليالم بن رجار بن رجار فاسترد المسلمون سواحل إفريقية والمهدية.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها استدعى الظافر ناصر الدولة نصر بن عباس وأخرج له صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر ذبابي وأمر له من بيت المال بعشرة آلاف دينار مصرية فقتله بعد هذه الهدية بستة أيام.

وذلك أنه خرج الخليفة الظافر متنكراً من قصره في ليلة الخميس سلخ المحرم ومعه خادمان وسار على عودته إلى دار نصر بن عباس فقتله نصر وحفر له تحت لوح رخام ودفنه وقتل سعد الدولة أحد الخادمين اللذين خرجا معه من القصر وفر الآخر.

وكان سبب قتله أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ عندما علموا أنه هو الذي حسن لعباس قتل ابن السلار وتحدثوا بقتله وقيل للظافر عنه إنه غريب ومن دولة أخرى وإن في تركه وقوع ما لا يمكن تداركه.

فلما بلغ أسامة ذلك أخذ يغري عباساً بابنه نصر ويبالغ في القصة حتى قال له يوما: كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك واتهامهم الخليفة أنه يفعل به ما يفعل بالنساء.

فشق على عباس ولام ابنه فلم يصغ إلى لومه.

فلما أنعم الظافر على نصر بناحية قليوب وحضر إلى أبيه ليعلمه بذلك قال أسامة وكان حاضراً ما هي بمهرك غالية.

فامتعض لذلك عباس وقال لأسامة: كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به! فقال: هين هذا الخليفة في كل وقت يأتي إلى عند ولدك في داره خفية فمره إذا جاء أن يقتله.

فاستدعى عباس ابنه وقال: يا بني قد أكثرت من ملازمة الخليفة وتحدث الناس في حقك بما أوجع باطني وقد يصل من هذا إلى أعدائنا ما لا يزول.

فاحتد نصر وقال له: أيرضيك قتله فقال: أزل التهمة عنك كيف شئت.

فأخذ نصر يعمل الحيلة في قتل الظافر وسأله أن يخرج إلى داره ليلاً في سر من الخدم ليتفسحا في منزله ليلة واحدة وكان منزله دار المأمون البطائحي.

فخرج إليه في عدة يسيرة من الخدم فلما تحصل عنده اغتاله وقتل الخدم الذين معه بالجماعة الذين قتل بهم العادل ابن السلار ورمى بهم في جب عنده وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء فصارت من جملة رخام المجلس فخفى أمره.

ثم مضى نصر إلى أبيه وعرفه قتل الظافر.

وكان الظافر من أحسن الناس صورة وقتل وله من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً منها مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوما.

وكان محكوما عليه من الوزراء.

وفي أيامه أخذ الفرنج عسقلان واستولوا عليها وظهر الوهن والخلل في الدولة فإنه كان كثير اللهو واللعب مع جواريه مقبلاً على سماع المغنى.

وهو الذي أنشأ الجامع المعروف الآن بجامع الفكاهين في خط الشوايين من القاهرة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين فسار أبق إلى بغداد وبها مات.

وكان عند الإمام الظافر في قصر الروض ببغاء بيضاء تقرأ المعوذتين وتستدعي كثيراً من الفائز بنصر الله

أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله أبي المنصور وإسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد يقال في اسم أمه ست الكمال ويقال إحسان.

ولد يوم الجمعة حادي عشر المحرم وقيل لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة وبويع له عند قتل أبيه يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوما وكان من خبره أنه ما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر في ليلة الخميس أصبح الوزير عباس متوجهاً إلى القصر في يوم الخميس على العادة فلما صار إلى مقطع الوزارة وطال جلوسه والخليفة لم يجلس استدعى زمام القصر مفلحاً وقال له: إن كان مولانا ما يشغله عنا في هذا اليوم عدنا إليه في الغد.

فمضى الزمام وهو حائر لا يدري ما يعمل وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل وكانا رجلين وأحدهما مكتهل فأخبرهما بالقصة ولم يكن عندهما من خروج أخيهما إلى دار نصر بن عباس خبر ولا علما إلا في تلك الساعة فلم يشكا حينئذ أنه قتل وقالا للزمام: هبك اعتذرت اليوم هل يتم لك هذا مع الزمان فقال: فما تأمراني فقالا: اصدقه وحاققه.

فعاد إليه وقال: ثم سر ألقيه إليك بحضور الأمراء الأستاذين.

فقال: ما ثم إلا الجهر.

فقال: إن الخليفة خرج البارحة لزيارة ولد لك فلم يعد بغير العادة.

فقال: تكذب يا عبد السوء وإنما أنت مبايع أخويه يوسف وجبريل اللذين حسداه على الخلافة واغتالاه فاتفقتم على هذا القول.

فقال: معاذ الله.

قال: فأين هما فخرجا إليه ومعهما ابن عم لهما يقال له أبو التقى صالح بن حسن بن عبد المجيد ابن محمد بن المستنصر فقال: حضرا.

فقال لهما: أين الخليفة فقال الثلاثة: هو بحيث يعلم ابنك ناصر الدين قال: لا وإنما أنتما قتلتماه حسداً له.

قالا: هذا بهتان منك لأن بيعة أخينا في أعناقنا وهؤلاء الأمراء الحاضرون يعلمون ذلك وإننا لفي طاعته بوصية أبينا.

فكذبهما وأمر غلمانه يقتلونهم الثلاثة.

وكان في القصر ألف سيف مجردة فشوهد أمر قبيح لم ير أشنع منه لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.

وقال لزمام القصر: أين ابن مولانا فقال: حاضر.

قال: فدلني إلى مكانه.

فدخل بنفسه إليه وكان عند جدته لأمه فحمله على كتفه وأخرجه للناس قبل أن يرفع القتلى وبويع بالخلافة ولقب بالفائز بنصر الله وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوماً وصار يشاهد القتلى فحصل له فزع واضطراب وما زال مدة خلافته لم يطب له عيش لأنه كان يصرع كل قليل.

ومن طريف ما وقع في هذا اليوم أن الوزير عباساً لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل وكان متولى فتح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له أمين الملك فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ودخلوا فإذا أمين الملك خلف الباب وهو ميت وفي يده المفتاح.

وفي أثناء ذلك حضر الخادم الذي أفلت من نصر إلى القصر وحدثهم بكيفية قتلة الظافر فكثرت النياحة عليه بالقصور.

وظن عباس أن الأمر قد استقام له فجاء خلاف ما أمل.

وأخذ أهل القصور في إعمال الحيلة عليه وكان الأمراء والسودان قد نافروه واستوحشوا منه لما فعله بأولاد الحافظ وأضمروا له العداوة والبغضاء.

فاختلفت عليه الكلمة وهاجت الفتنة وصار العسكر أحزاباً ولبسوا السلاح.

فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول فكانت بينه وبينهم محاربة انكسروا فيها منه وقتل منهم جماعة.

هذا وأهل القصر في تدبير العمل عليه فبعثت عة الفائز إلى فارس المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك وكان والياً على الأشمونين والبهنسا بالكتب وفي طيها شعور النساء تستصرخ به على عباس وكتب إليه أيضا الجليس بن الحباب.

فامتعض عند وقوفه على الكتب ورؤية شعور النساء وجمع العربان والأجناد مقطعي البلاد.

وبلغ ذلك عباسا فخرج من القاهرة بالعساكر في عاشر صفر وجعل ابنه ناصر الدين بالقاهرة وأنفذ إلى طلائع بحسين بن أبي الهيجاء زوج ابنته ليرده عما عزم عليه.

فلما خلا به قال له: تقاتل عباساً وله خمسة آلاف مملوك!! قال: أقتاله بنفسي ونفسك.

قال: أما الآن فنعم.

ففت ذلك في عضد عباس لشهرة حسين وشجاعته.

وعندما نزل عباس إلى إطفيح في بكرة يوم الثلاثاء خامس عشره لحق أعراب إطفيح بابن رزيك فوافوه على أبويط فسار بهم ونزل دهشور فاضطرب عباس ورجع إلى القاهرة وتفرق عنه الناس إلى طلائع بن رزيك وصار من أهل البلد في مناكدة.

وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع فاستظهر عليهم عباس وفتحوا الأبواب وقد تحقق عداوة الأمراء والجند له.

واتفق أنه مر يوماً فرمى من طاق ببعض الشوارع بهاون ورمى مرةً بقدر مملوءة طعاماً حاراً فقال: ما بقي بعد هذا شيء.

وعزم على الفرار فلم يقدر وغلقت أبواب القاهرة.

واشتغل الناس بهذا الحادث وهو يدبر في الخروج من القاهرة فأشار عليه بعض خواسه بتحريق القاهرة فأبى وقال: يكفي ما جرى.

فلما عدى طلائع بن رزيك إلى حمول عول عباس وولده نصر على المسير من مصر بكل ما يملكانه من مال وسلاح وما قدرا عليه من حواصل الدولة وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجال ومائتا بغل رحل وأربعمائة جمل تحمل أثقاله في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول بعد ما حلف الأمراء ألا يخونوه.

وأحضر مقدمي فلما كان يوم الجمعة ركبوا عليه بكرة وتبعهما أسامة بن منقذ وجماعة وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قبالة المقس في عشية نهاره وخرج الناس إلى المقابر.

وبات في عشاري وأصبح فأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشره فركب يريد القصر وقد خرج الأمراء إليه منهم من قاتله ومنهم من انضم إليه فلم يكن غير ساعة حتى انجلى الأمر عن فرار عباس وولده وابن منقذ فنهب الناس دورهم.

ودخل طلائع إلى القاهرة وشقها بعساكره في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول وهو لابس ثيابا سوداء وأعلامه وبنوده كلها سود وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على رءوس الرماح.

فكان هذا من الفأل العجيب فإن الأعلام العباسية السود دخلت إلى القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة.

ونزل طلائع بدار المأمون التي كان يسكنها نصر بن عباس.

وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل فأعلمه بالحال فمضى راجلاً من القصر إلى دار نصر بن عباس واستخرج الظافر والأستاذ الذي كان معه وغسلهما وكفنهما وحمل الظافر في تابوت مغشى الأستاذون والأمراء ومشى طلائع وهو حاف قد شق ثيابه ومعه الناس بأجمعهم حتى وصل إلى القصر فصلى عليه الخليفة الفائز ودفن في تربة القصر مع آبائه.

وجلس الفائز بقية النهار وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد الجوهر وخلع على ولديه ونعت بالأجل الناصر سند الإمام زعيم الأنام مجير الإسلام خدن أمير المؤمنين.

وخلع على أخيه ونعت بنعوت الصالح قبل الوزارة وخلع على حواشيه.

وأجرى في الخلع مجرى الأفضل بالطيلسان المقور وأنشىء له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر.

وكتب في سجله على طرفه بخط الفائز: لوزيرنا السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين هادي دعاة المؤمنين أبي الغارات طلائع بن رزيك الفائزي عضد الله بن الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى أبداً كلمته من جلالة القدر وعظيم الأمر وفخامة الشان وعلو المكان واستيجاب التفضيل واستحقاق غايات المن الجزيل ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا مما يبعثنا على التبرع له ببذلك كل مصون والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون والذي يعمله هذا السجل من تقريظه وأوصافه فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة.

والله تعالى يعضد به دولتنا ويحوط به حوزتنا ويمده بمواد التوفيق والتأييد ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحةً غاية الاستمرار والتأبيد إن شاء الله تعالى.

وكان سجلاً في غاية الطول والكبر من إنشاء الآجل الموفق أبي الحجاج يوسف ابن علي بن الخلال.

ونزل الملك الصالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدولة مشاة في ركابه إلى دار الوزارة فجلس للهناء وتقدم الشعراء فأنشدوا عدة مدائح ذكروا فيها هذه الحالة والواقعة.

وكانوا عدة منهم عبد الرحيم بن علي البيساني والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسنين بن الحباب والقاضي السعيد جلال الملك الأشرف ضياء الدين أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن كاسيبويه وأبو محمد يحيى ابن خير الملقب ديك الكرم الشاعر وغيرهم وأما عباس فإنه سار بمن معه يريد أيلة ليسير منها إلى بلاد الشام فأرسلت أخت الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج إلى عباس وأباحتهم جميع ما معه وأن يعبثوا به إلى القاهرة فأجابوا إلى ذلك وخرجوا إليه.

فلما أدركوه ثبت لهم ودافعهم عن نفسه فخذله أصحابه وفروا عنه مع أسامة بن منقذ إلى الشام فقاتل الفرنج حتى قتل وأسر ابنه نصر فعمل في قفص حديد وحمل إلى القاهرة فدخل به إلى القصر يوم الاثنين سابع عشري ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة وأخرج من يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر قتيلاً مقطوع اليد اليمنى وصلب سحراً على باب زويلة فكان يومً عظيما عند الناس.

واستولى الفرنج على جميع ما كان معهم.

ولما سير الفرنج بنصر بن عباس إلى القاهرة أنشد عندما عاين البلد: بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر وخرج الناس عند قدومه إلى القاهرة ليروه فبالغوا في سبه ولعنه وبصقوا عليه حتى دخل القصر وعرض في القفص وقتل قتله الجواري نخساً بالمسال وصفعاً بالنعال وقطعوا لحمه واشتووه وأطعموه إياه حتى مات ثم أخرج وصلب على باب زويلة وأحرق بعد ذلك.

وتتبع الصالح من كان مع نصر بن عباس في قتل الظافر فقتل قايماز وفتوح الأخرس وابن غالب صبراً بين يديه في جماعة معهم.

وثبتت أموره فنعت نفسه بفارس المسلمين نصير الدين الصالح ومدحه الشعراء بذلك.

وشرع الصالح في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم.

وقبض على عدة من الأمراء وقتلهم في ثالث عشر ربيع الأول وعلى عدة من أرباب العمائم منهم أبو الحسن علي بن سليم بن البواب ناظر الدواوين وكان عارفاً بالحساب والمنطق والهندسة مليح الشعر والترسل جيد الكتابة.

وأخذ يعمل على الأمراء المتقدمين في الدولة مثل ناصر الدين ياقوت صاحب الباب وكان قد ناب عن الحافظ مرة في مرضة مرضها مدة ثلاثة أشهر وكاد يوليه الوزارة ومثل الأوحد بن تميم والي دمياط وتنيس فإنه كان قد تحرك لما سمع قضية عباس وسار يريد القاهرة فسبقه طلائع بن رزيك بيوم فصار يحقد عليه كونه هم بأمر ربما نال به الوزارة غير أنه لم يسعه إلا إعادته إلى ولايته وأضاف إليها الدقهلية والمرتاحية وهو يسر له المكر.

وكان من أمراء الدولة تاج الملوك قايماز وهو من أكابر الأمراء ويليه ابن غالب فحمل الأجناد عليهما حتى قتلا ونهبت دورهما.

ثم إنه قلق من قرب الأوحد منه وأراد إبعاده عنه فنقله من ولاية دمياط وتنيس إلى ولاية سيوط وأخميم فخلت له القاهرة.

وأظهر مذهب الإمامية وباع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعراً ومدةً ستة أشهر فقط فتضرر الناس من كثرة ترداد الولاة عليهم.

وضيق مع ذلك على أهل القصر طمعا في صغر سنة الخليفة.

وجعل له مجلساً يحضره أهل الأدب في الليل وطارحهم فيه الشعر فهرع إليه الناس ودونوا ما ينظمه من الشعر وكان ابن الزبير فيها صرف الصالح عن قضاء القضاة أبا المعالي مجلى بن جميع الفقيه الشافعي وولى القاضي المفضل أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في أخريات شعبان.

فيها بلغ التليس ستة دنانير.

فيها مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسين الطرابلسي المعروف بالمحنك وكان قد ولي نظر الدواوين والخزائن وله تاريخ خلفاء مصر قطع فيه على الحافظ.

ومات ركن الخلافة أبو الفضل جعفر فاتك بن مختار بن حسن بن تمام أخو الوزير المأمون بن البطائحي وصلى عليه الصالح.

وفيها كتب المقتفي لأمر الله العباسي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي صاحب دمشق بولاية مصر والساحل وبعثه إليه بمراكب زحف وأمره

بالمسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها مضى الأسطول إلى ميناء صور فملكها وأخربها وأحرقها وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجاج من النصارى وغيرهم وبعدة كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة.

وفيها خرج على الصالح الأمير الأوحد بن تميم والي إخميم وأسيوط وجمع جمعاً موفوراً فسير إليه الصالح عدة من العسكر فكانت بينهما عدة وقائع أسفرت عن قتله الأوحد في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيها قدم الفقيه نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي اليماني الحكمي في شهر ربيع الأول برسالة قاسم بن فليتة أمير الحرمين فأحضر في قاعة الذهب من القصر يوم السلام وقد جلس الخليفة الفائز وحضر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك والأمراء على العادة فأدى الرسالة وأنشد:
الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النّعم لا أجحد الحق عندي للرّكاب يدٌ تمنّت اللّجم فيها رؤية الخطم قرّبن بعد مزار العزّ من نظري حتى رأيت إمام العصر من أمم ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفداً إلى كعبة المعروف والنّعم فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرمٍ إلاّ إلى حرم حيث الخلافة مضروبٌ سرادقها بين النّقيضين من عفوٍ ومن نقم وللإمامة أنوارٌ مقدّسةٌ تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم وللمكارم أعلامٌ تعلّمنا مدح الجزيلين من بأس ومن كرم وللعلا ألسنٌ تثنى محامدها على الحميدين من فعل ومن شيم وراية الشّرف البذّاخ ترفعها يد الرّفيعين: من مجدٍ ومن همم أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً فوز النجاة وأجر البرّ في القسم لقد حمى الدّين والدّنيا وأهلهما وزيره الصّالح الفرّاج للغم اللاّبس الفخر لم تنسج غلائله إلاّ يد الصّنعين: السّيف والقلم وجوده أوجد الأيّام ما اقترحت وجوده أعدم الشاكين للعدم قد ملّكته العوالي رقّ مملكةٍ تعير أنف الثّريا عزّة الشّمم أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني في يقظتي أنها من جملة الحلم يومٌ من العمر لم يخطر على أملى ولا ترقّت إليه رغبة الهمم ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى ترى الوزارة فيه وهي باذلةٌ عند الخلافة نصحاً غير متّهم فكان الصالح يستعيد أبياتها في حال الإنشاد مراراً والأمراء والأستاذون يذهبون في الاستحسان كل مذهب.

ثم أفيضت عليه خلع الخليفة المذهبة ومنح له الصالح خمسمائة دينار وأخرجت إليه السيدة الشريفة بنت الحافظ مع الأستاذين خمسمائة دينار أخرى وحمل المال معه إلى منزله وأطلقت له من دار الضيافة رسوم جليلة وتهادته أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم.

واستحضره الصالح للمجالسة ونظمه في سلك أهل المؤانسة وانثالت عليه صلاته وعمره ببره.

وصار يحضر في الليل عنده مع الشيخ الجليل أبي المعالي ابن الحباب والشيخ الموفق ابن الخلال وأبى الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبي محمد الحسن بن الزبير وولد الصالح مجد الإسلام رزيك وصهره الأجل المظفر الأمين سيف الدين حصن المسلمين ذي الفضائل والمناقب يمين أمير المؤمنين أبي عبد الله الحسين بن الأمير فارس الدولة أبي الهيجاء الفائزي الصالحي وأخيه فارس المسلمين بدر بن رزيك وقريبه عز الدين حسام وضرغام وعلي بن الزبرد ويحيى بن الخياط ورضوان بن جلب راغب وعلي هوشات ومحمد بن شمس الخلافة.

وهؤلاء أهل مجلس الليل.

وأنشده يوما وهو في القبو من دار الوزارة قصيدة منها:

وزوروا المقام الصّالحيّ فكلّ من ** على الأرض ينسى ذكره عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى ** فتجنوا على مجد المقام وفخره

ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها ** فكلّ امرئ يرجى على قدر قدره

فرمى إليه الخريطة فوجد فيها خمسمائة دينار وخمسين رباعياً.

ومدحه في شعبان بقصيدة فدفع إليه الخريطة فإذا فيها ثلاثة وسبعون دينارا.

ثم لما عزم على الرجوع ودع الخليفة والصالح بن رزيك بقصيدة فأوسعاه إكراماً وإنعاماً ورسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته وبعثت إليه السيدة مثل ذلك وخلع عليه للسفر ودفع له الصالح مائة دينار.

وكتب له إلى ناصر الدولة والي قوص بمائة إردب من القمح وحملها من مال الديوان إلى مكة.

وكتب له كتاب إلى محمد بن عمران صاحب عدن ببراءته من ثلاثة آلاف دينار وإسقاطها عنه.

وسار في شوال إلى مكة فتسلم القمح من قوص وحمل معه إلى مكة من مال الديوان.

ولما وقف صاحب عدن على الكتاب أبرأه من الثلاثة آلاف دينار وأسقطها عنه فسير إلى الصالح بقصيدة من عدن يشكره على ذلك فلما وقف عليها

قال: قد فرطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا ولقد كان إمساكه للخدمة والصحبة أولى.

فيها مات الفقيه أبو المعالي مجلى بن جميع بن نجا المخزومي القرشي الأرسوفي الشافعي صاحب كتاب الذخيرة في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها نزع السعر ووقع الغلاء بديار مصر فلحق الناس منه شدة.

سنة اثنين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وبين المصريين فشرع الصالح في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج.

فأخرج سريةً في سابع عشر جمادى الأولى وأتبعها بأخرى في رابع عشر جمادى الآخرة فوصلت الأولى إلى غزة ونهبت أطرافها ثم سارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت مظفرة غانمة.

ثم ندب سرية ثالثة فمضت إلى الشريعة فأبلت بلاءً حسنا وعادت ومؤيدة.

وسير المراكب الحربية فانتهت إلى بيروت وأوقعت بمراكب الفرنج وأسرت منهم وغنمت.

وسير عسكراً في البر إلى بلاد الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم كثير من الأسرى.

ثم سير الأسطول إلى عكا فأسروا نحواً من سبعمائة نفس بعد حروب كثيرة وعاد الأسطول في رمضان.

وجهز سريةً فغارت على بلاد الفرنج وعادت بالغنائم في رمضان.

ثم بدأت سرية في أول ذي القعدة وأردفها بأخرى في خامسه فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا غانمين.

وفيها قدم رسول نور الدين محمود صاحب دمشق.

وفيها كسرت مراكب للفرنج فيها الحجاج منهم على ثغر الإسكندرية فقبض عليهم نائب الثغر وجهزهم.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت والي قوص وعلى أولاده واعتقلهم من أجل أنه بلغه عنه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح وأخذ الوزارة.

وكان ناصر الدولة في ولاية قوص من أيام عباس ولما استدعى أهل القصر طلائع من الأشمونين لم يجسر على الحركة حتى كتب إلى ناصر الدولة يعلمه بذلك ويستدعيه ليكون له الأمر فأعاد جوابه يظهر الزهد في ذلك وأنه تركه من أيام الخليفة عن قدرة ظناً منه أن طلائع لا يصلح ولا يتم له ما يريد من مقاومة عباس فخاب رجاؤه.

ولم يزل به الصالح حتى أودعه السجن ولم يزل به حتى مات فيه في رجب من الآتية.

وفيها أحضر إلى القاهرة رجل كامل الأعضاء سريع الحركة طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار وله عدة أولاد فدخل على الصالح حتى رآه.

في هذه السنة زلزلت الشام زلازل عظيمة أخربت حصن شيزر وأكثر حماة وبعض كفر طاب وأفامية وزلزلت في حلب وغيرها من البلاد وكانت بدمشق خفيفة لم تخرب شيئا ودامت مدة بأرض الشمال.

وفيها سقطت دار بخط سوق وردان من مدينة مصر هلك بها جماعة من سكانها من جملتهم امرأة ترضع ولداً أخرجت من تحت الردم ميتة وأخرج الطفل ابنها في ثاني يوم وهو حي فسلم إلى من ترضعه وعاش حتى بلغ مبالغ الرجال.

واتفق أيضا في هذه السنة أن السديد أبا النقباء صالحاً كان يخدم في عمالة الرباع السلطانية بمصر ومما يجري فيها دار ابن معشر عند فم السد الذي يفتح كل سنة عند كسر الخليج إذا كان وفاء النيل فإذا كان قرب الوفاء رسم بمرمة هذا الدار فرممت وأسكنت في موسم الخليج فيتحصل من أجرتها في يوم وليلة ما يتحصل من أجرة سنة كاملة.

فرمها في هذه السنة وأسكنها على العادة وسكن في بيت تحتاني منها فامتلأت جميعها حتى لم يبق فيها ما يسع أحداً فسقطت وهلك جميع من فيها إلا هو فإنه أخرج بعد يومين من تحت الردم فيه رمق فبرأ وعاش مدة طويلة ثم طلع يوما وهو عجل إلى منزل سكناه بحارة الروم من القاهرة اندقت ساقه في درجة وحدث بها خدش يسير فمات منه.

في المحرم جهز الصالح أربعة آلاف وأمر عليهم شمس الخلافة أبا الأشبال ضرغاماً للغارة على بلاد الفرنج فساروا في صفر إلى تل العجول وحاربوا الفرنج في النصف منه فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة عليهم.

وسير عسكراً في آخر في شعبان فواقعوا الفرنج على العريش وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما بين خيول وأموال.

وفيها قدم رسول الملك العادل محمود بن زنكي وقدمت رسل الفرنج يسألون في الصلح ورسول صاحب قسطنطينية يسأل إسعافه بمراكب نجدةً له على صاحب صقلية.

وفيها خرجت من القاهرة سرية إلى بيت جبرين وعادت غانمة.

وسار الأسطول في يوم الجمعة ثالث عشري ربيع الآخر فانثنى إلى تنيس في الثامن من شعبان وأقعل منه إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشري ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيدي الغزاة بالغنائم.

وفي ربيع الآخر سار عسكر إلى وادي موسى فنزل على حصن الدميرة وحاصره ثمانية أيام وتوجه إلى الشوبك وأغار على ما هنالك وأقام أميران على الحصار وعاد بقية العسكر.

وفي التاسع من جمادى الأولى سار عسكر إلى القدس فخرب وعاد بالغنائم.

وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية كسر فيها الفرنج وانهزموا فأخذ الصالح في النفقة على طوائف العسكر وكان جملة ما أنفقه فيها مائة ألف دينار.

فلما تكامل تجهيزهم سير خمس شوال في الخامس من شعبان فتوجهت لسواحل الشام وظفرت بمراكب من مراكب الفرنج وعادت بكثير من الغنائم والأسرى في الثاني والعشرين من رمضان.

وخرج العسكر في البر وقد ورد الخبر بحركة متملك العريش يريد الغارة على أطراف البلاد فلما بلغه سير العسكر لم يتحرك ورجع العسكر.

وجهز رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقويةً له على جهاد الفرنج.

وكتب إلى الصالح كتابا ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج فوصلت إليه في سادس عشر من شهر رمضان ولبس نور الدين خلعة الملك الصالح طلائع وانقضت السنة في تجهيز العساكر في البر والبحر ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة منهم أخو القمص صاحب قبرص فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية.

وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدي بها.

وقال الصالح في هذه الغزوات عدة قصائد مطولة.

وفيها مات القاضي المفضل كافي الكفاة محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد القاضي المعروف بابن قادوس في سابع المحرم فحضر الصالح إلى داره بمصر ومشى في جنازته حتى صلى عليه ومضى إلى تربته عند مسجد الأقدام بالقرافة.

وكان من أماثل المصريين وأعيان

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

في شهر ربيع الأول في خامسه قدم رسول الفرنج بهدية لطلب الهدنة.

وقدم رسول نور الدين يخبر بأنه متوجه نحو بلاد الفرنج وأشار بإخراج عسكر نحوهم فخرجت سرية إلى غزة.

وعاد رسول نور الدين وهو الحاجب محمود المسترشدي وصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الآمري وكانا قد توجها إلى نور الدين في السنة الخالية وخرجا من دمشق في نصف صفر.

فندب الصالح العساكر للغارة وأنفق في ستة آلاف وخمسمائة فارس فساروا في سادس جمادى الأولى.

وتوجه الأسطول في البحر وذلك أن ملك القسطنطينية أراد غزو بلاد ابن لاون صاحب أرمينية فبعث يعلم نور الدين بذلك فكتب نور الدين يستنجد الملك الصالح على الفرنج فأنجده بذلك.

وفي سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانما.

وفي هذه السنة خرج الأمير عز الدين أبو المهند حسام ابن الأمير الأسد جلال الدين فضة وهو ابن أخت الملك الصالح على عسكر لقتال طرخان بن سليط بن طريف والي الإسكندرية وقد جمع العربان وغيرهم وخلع طاعة الصالح.

فيها توفى أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الفضل بن منصور بن أحمد بن يونس ابن عبد الرحمن بن الليث بن المغيرة بن عبد الرحمن بن العلاء بن الحضرمي في شهر رمضان بالإسكندرية.

وقد حدث فسمع منه السلفي وهو آخر من حدث عن الخيال.

ومولده لست بقين من ربيع الآخر سنة ست وستين وأربعمائة.

وتوفى الفقيه أبو الحسن وحشي بن عبد الغالب العادلي السعدي بمنية زفتى وأخذ عن الطرطوشي وغيره.

وتوفى بمصر أبو القاسم عبد السلام بن مختار اللغوي سمع من بركات وغيره وقرأ على العقبى.

وله مدائح في الصالح بن رزيك وكان متصدراً بالجامع العتيق.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها خرج إسماعيل المعروف بروق من القاهرة في ليلة الخميس حادي عشر المحرم ولحق بأخيه طرخان والي الإسكندرية وقد جمع لحرب الصالح فخرج إليه المظفر عز الدين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدين ورد على عسكر ولحقهم المظفر سيف الدين حسين.

وقد برز إسماعيل من الإسكندرية في جموعه وخيم على دمنهور وتلقب بالملك الهادي فطرقه العسكر فهرب واختفى بالجيزة فقبض عليه في سابع عشره.

وعاد العسكر في ثالث عشريه فهرب طرخان من معتقله في رابع ربيع الآخر وظفر به في سادسه فصلب على باب زويلة.

ثم ضربت رقبة إسماعيل في ثامنه وصلب إلى جانب أخيه.

وكان أبو طرخان فرانا فترقى طرخان في أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية في سنة ثلاث وخمسين.

وقال الشعراء في صلبه عدة قصائد.

وفيها مات الخليفة الفائز بنصر الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رجب ومولده يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وستة أيام منها مدة خلافته ست سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوماً.

ولم يلتذ بالخلافة ولا رأى فيها خيراً فإن أباه لما قتل وبكر عباس إلى القصر وفحص عن الخليفة الظافر وقتل أخويه وابن عمه لينفي عن نفسه وابنه التهمة دعي إلى القصر واستدعى ابن الظافر هذا وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين ووقف به في صحن القاعة وأمر الأمراء فدخلوا عليه.

فلما مثلوا بالقاعة قال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل.

فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة مع ما شاهده من رؤية عمه والخدام وهم في دمائهم ما خبل وركب في الأعياد مغرراً به وخطب عنه قاضي القضاة وهو معه على المنبر.

وقطع الخليج في أيامه في الليل واعتذر عن ذلك بأن النيل عدا وقطع الجسر إلى غير ذلك من التحويزات.

ثم وزر الصالح بعد عباس واستبد بجميع الأمور وليس له معه أمر ولا نهي ولا تعود كلمة.

فدبرت عمة الفائز في قتل الصالح وفرقت في ذلك نحو خمسين ألف دينار.

فبلغ ذلك الصالح فأمسكها وقتلها بالأستاذين والصقالبة سراً والفائز في واد آخر من الاضطراب والاختلال.

ونقل كفالته إلى عمته الصغرى وطيب قلبها وراسلها.

العاضد لدين الله

أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة وبويع عند انتقال الفائز يوم الجمعة قبل الصلاة لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر وسبعة أيام.

وذلك أنه لما مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن واستدعى زمام القصر وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة فقال: ههنا جماعة.

فقال: عرفني بأكبرهم.

فسمى له واحداً فأمر بإحضاره.

فتقدم إليه أمير يقال له على ابن مزيد وقال له سراً: لا يكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالأمر.

فمال إلى قوله وقال للزمام: أريد منك صغيراً.

فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله وهو دون البلوغ.

فقال: علي به.

فأحضر إليه بعمامة لطيف وثوب مفرط وهو مثل الوحش أسمر كبير العينين عريض الحاجبين أخنس الأنف منتشر المنخرين كبير الشفتين.

فأجلسه الصالح في البادهنج وكان عمره إحدى عشرة سنة.

ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهي لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه وقام وألبسه إياها.

وأخذوا في تجهيز الفائز فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة.

وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه وأمر أن تحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها وبايعه ثم بايعه الناس ونعته بالعاضد لدين الله.

وذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين.

وأبوه أحد الأخوين اللذين قتلهما الوزير عباس.

ولما بويع العاضد ركب وحملت على رأسه المظلة وركب الصالح بين يديه وخرج من التربة قاصداً قصره.

وكانت عادة الخلفاء أنه إذا ورد البشير إلى أخص أهل من يبايع يعطى ألف دينار فلما بويع العاضد حضر المبشر إلى عمته فأعطته نزراً فلما راجعها في الزيادة أبت عليه واستقر العاضد اسماً والصالح معنىً فتمكن وقويت حرمته واستولى على الدولة وتمكن منها ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة وأساء السيرة باحتكار الغلات فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار وأكثر من قتل أمراء الدولة.

وفيها ولي الصالح شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السعدي الصعيد فظهرت كفايته واستمال الرعية.

وفيها بعث العاضد بالخلع إلى نور الدين محمود صاحب دمشق فلبسها.

وفيها توفى بمصر أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن عمر بن قاسم المعروف بنفطويه الحضرمي المقرئ الأديب رحل فسمع ببغداد وميافارقين وبمصر.

وتوفي بعيذاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدي أخو القاضي الجليس رحل فسمع ببغداد وغيرها وصنف كتاب

مساوئ الخمر وكتاب الحجة لسلف هذه الأمة في تسمية الصديق وارد على من أنكر ذلك وكتاب تهذيب المقتبس في أنباء أهل الأندلس.

وكان من الصالحين.

وتوفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوار بن المختار بن الغرناطي بمصر وكان من أعيان غرناطة وله معرفة جيدة بالنحو وكتب عن السلفي.

فيها عقد العاضد على ابنة الصالح ابن رزيك في مستهله بعدما امتنع من ذلك فحبسه الصالح حتى أجاب.

وقصد الصالح بزواجه ابنته أن يرزق منه ولداً فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك.

وفيها قدم حسين بن نزار بن المستنصر إلى برقة من بلاد المغرب ودعا إلى نفسه فاجتمع عليه قوم كثير وتلقب بالمستنصر وعزم على المسير إلى أذخ القاهرة فخدعه الأمير عز الدين حسام بن فضة بن رزيك ووعده بالقيام بدعوته وما زال يتلطف به حتى صار عنده في خيمته فقبض عليه وحمله إلى القاهرة فقتل في شهر رمضان.

وفيها قتل الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك.

وذلك أنه لما ثقلت وطأته وكثرت مضايقته لأهل القصر أخذت السيدة العمة ست القصور وهي أخت الظافر الصغرى في العمل على قتله ورتبت مع قوم من السودان الأقوياء أن يقيموا منهم في باب السرداب من الدهليز المظلم الذي يدخل منه إلى القاعة جماعةً ويقيموا آخرين في خزانة هناك وأرسلت إلى ابن الراعي وإلى الأمير المعظم بن قوام الدولة صاحب الباب وقررت معه أن يخلى الدهاليز من الناس حتى لا يبقى بها أحد.

فأعدوا في حجرة في دهليز القصر وردوا عليهم طرف الضبة.

فلما كان في يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ركب الصالح على عادته للسلام على الخليفة فلما انفصل من خدمة السلام بقاعة الذهب وخرج إلى الدهاليز عرض له أستاذ يقال له عنبر الريفي وأوقفه وذكر له حديثاً طويلا فتقدم رزيك ابن الصالح فخرج رجلان وثبا على الصلاح ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فتقدم إليه ابن الراعي وطعنه بسيف قطع أحد وريديه وضربه العبيد بالسيوف فقطعوا عذيته ونزلت في لحمه وشلت سلسلة ظهره.

فوضع يده على جرحه وأنشد:

إن كان عندك يا زمان بقيّةٌ ** ممّا تهين به الكرام فهاتها

وضرب رزيك بن طلائع في عضده الأيمن.

وتكاثروا على الصالح فسقط على وجهه منكبّاً واستفرغ بالدّم فأدركه الأمير ابن الزبد وألبسه منديل ضرغام بن سوار وكان قد نزع منديله عن رأسه وحمل حتى أركب على فرسه وهو لا يفيق.

وبقي حسين ابن أبي الهيجاء في القصر يقاتل السودان حتى قتل منهم خمسين رجلاً.

ولما ركب الصالح وشدوا جرحه تطلعت السيدة العمة من القصور فرأته راكباً فقالت: رحنا والله.

فلما صار إلى داره كان إذا أفاق يقول: رحمك الله يا عباس وبعث إلى العاضد يعتب عليه كيف رضي بقتله مع حسن أثره في إقامته خليفة فأقسم أنه لم يعلم بذلك ولا رضى به.

وما ظفروا لمّا قتلت بطائل فعشت شهيداً ثم متّ شهيدا فلما كان ثلث ليلة الثلاثاء العشرين من شهر رمضان مات ودفن بالقاهرة ثم نقل منها بعد ذلك إلى القرافة والعاضد راكب والجند يمشون خلف تابوته.

ومولده في سنة خمس وتسعين.

وكانت وزارته سبع سنين وستة أشهر تنقص أياماً.

وكان فاضلا سمحاً في العطاء سهلا في اللقاء محباً لأهل الفضائل جيد الشعر وخطه دون شعره.

ويقال إنه من المغرب وقد قصد أبوه زيارة قبر علي بن أبي طالب بالنجف فرأى أمام المشهد علياً وأخبره عن طلائع أنه يلي مصر فقدمها وما يزال يترقى في الخدم حتى نال ما نال.

وأنشد له ابن خلكان: كم ذا يرينا الدّهر من أحداثه غيراً وفينا الصّدّ والإعراض ننسى الممات وليس يجري ذكره فينا فتذكرنا به الأمراض وكان لأهل العلم عنده نفاق ويرسل إليهم العطايا الكثيرة.

بلغه أن أبا محمد ابن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو: تجنّب سمعي ما يقول العواذل وأصبح لي شغلٌ من الغزو شاغل فجهز له هدية سنية ليرسلها إليه فقتل قبل إرسالها.

وبلغه أن إنساناً من أعيان الموصل قد وكان وافر العقل رضي النفس بصيراً بالتجارب عالماً بأيام الناس بصيرا بالعلوم الأدبية محبباً إلى الناس لإظهاره الفضل والدين وإنكاره الظلم والفساد.

إلا أنه كان من غلاة الإمامية مخالفاً لما عليه مذهب العاضد وأهل الدولة.

فلما بايع للعاضد وركب من القصر سمح ضجةً عظيمةً فقال: ما الخبر فقيل إنهم يفرحون بالخليفة.

فقال: كأني بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم.

وجرى من بعض الأمراء في مجلس السمر عنده انتقاص بعض السلف وكان الفقيه عمارة جالساً فقام وخرج معتذراً بحصاة تعتاده وانقطع في منزله ثلاثة أيام ورسول الصالح يرد إليه كل يوم بالطبيب ثم ركب إليه بعد ذلك وهو في بستان مع جلسائه في خلوة فاستوحش من غيبته فأعلمه أن لم يكن به وجع ولكنه كره ما جرى في حق السلف فإن أمر السلطان فقطع ذلك حضرت وإلا كان في الأرض سعة وفي الملوك كثرة.

فعجب الصالح من ذلك.

وقال: سألتك بالله ما تعتقد في أبي بكر وعمر فقال: أعتقد أنه لولاهما لم يكن سبق للإسلام حرمة ولا علا له راية وما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه.

ثم قرأ: " ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيم إِلاَّ من سَفِهَ نَفْسَهُ " فضحك الصالح وكان هذا من رياضته فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملها مثله إلا أنه مرتاضا حصيفاً قد لقي الفقهاء وسمع كلامهم.

وبعث يوماً إلى عمارة ثلاثة أكياس من مال ورقعةً بخطه فيها هذه الأبيات يدعوه فيها إلى مذهبه: قل للفقيه عمارةٍ: يا خير من أضحى يؤلّف خطبةً وكتابا اسمع نصيحة من دعاك إلى الهدى قل حطّةٌ وادخل إلينا البابا تلق الأئمّة شافعين ولا تجد إلاّ لدينا سنّة وكتابا وعلىّ أن يعلو محلّك في الورى وإذا شفعت إليّ كنت مجابا وتعجّل الآلاف وهي ثلاثة صلةً وحقّك لا تعدّ ثوابا فأجابه عمارة: حاشاك من هذا الخطاب خطابا يا خير أملاك الزّمان نصابا لكن إذا ما أفسدت علماؤكم معمور معتقدي وصار خرابا ودعوتم فكري إلى أقوالكم من بعد ذاك أطاعكم وأجابا فاشدد يديك على صفاء محبّتي وامنن عليّ وسدّ هذا البابا وهو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة ووقف ثلثي المقس على الأشراف وتسعة قراريط وكان أبوه يسمى أسد رزيك وقدم مع أمير الجيوش بدر إلى مصر وتوفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ومن العجب أنه ولي الوزارة في التاسع عشر وقتل في التاسع عشر وزالت دولتهم في التاسع عشر.

وهو أول من خوطب بالملك في ديار مصر ونعت به.

ومن عجيب الاتفاق أن عمارة أنشد مجد الإسلام رزيك بن الصالح بدار سعيد السعداء في ليلة السادس عشر من شهر رمضان أبياتا منها: أبوك الّذي تسطو اللّيالي بحدّه وأنت يمينٌ إن سطا وشمال لرتبته العظمى وإن طال عمره إليك مصيرٌ واجب ومآل تخالسك اللّحظ المصون ودونها حجابٌ شريف لا انقضى وحجال فانتقل الملك إليه بعد ثلاثة أيام.

قال عمارة: ودخلت على الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولني رقعة فيها بيتان من شعره وهما: نحن في غفلةٍ ونومٍ وللمو - - ت عيونٌ يقظانةٌ لا تنام قد رحلنا إلى الحمام سنيناً ليت شعريً متى يكون الحمام! فكان آخر عهدي به.

أفي أهل ذا النّادي عليمٌ أُسائله فإني لما بي ذاهب العقل ذاهله سمعت حديثاً أحسد الصّمّ عنده ويذهل واعيه ويخرس قائله فقد رابني من شاهد الحال أنّني أرى الدّست منصوباً وما فيه كافله وأنّى أرى فوق الوجوه كآبةً تدلّ على أنّ الوجوه ثواكله دعوني فما هذا بوقت بكائه سيأتيكم طلّ البكاء ووابله ولم لا نبكّيه ونندب فقده وأولادنا أيتامه وأرامله أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم فيسكن أم تطوى ببينٍ مراحله فيا ليت شعري بعد حسن فعاله وقد غاب عنّا ما بنا الدّهر فاعلهً! قال عمارة: وكانت أحوال الصالح تارةً له وتارةً عليه فما هو عليه فرط العصبية في المذهب وجمع المال واحتجانه والميل على الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم.

وأما التي له فلم تكن مجالس أنسه تنقضي إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

وكان مرتاضاً قد سمر أطراف المعالي وتميز عن أخلاق الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة.

وكان شاعراً يحب الأدب وأهله ويكثر من جليسه ويبسط من أنيسه.

وكان كرمه أقرب من الجزيل منه إلى الهزيل وصنف كتاباً سماه: الاعتماد في الرد على أهل العناد.

وله قصيدة سماها: الجوهرية في الرد على القدرية ولما مات الصالح خرج ولده المنصور وهو مجروح وجلس في مرتبة أبيه وبعث إلى العمة ست القصور من أهل القصور فسلمت إليه فخنقها بمنديل ورميت قدامه فبعثت السيدة العمة أختها إلى سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح

وحلفت له أنها لم تدر ما جرى على الصالح وأن فاعل ذلك أصحاب أختها المقتولة.

وحضر إليها مجد الإسلام أبو شجاع رزيك بن الصالح فخلع عليه الوزارة فإن الصالح أوصى بها إليه وجعل من حسين بن أبي الهيجاء الكردي مدبر أمره ونعت بالسيد الأجل مجد الإسلام الملك العادل الناصر أمير الجيوش وفسح له في أخذ من ارتاب به في قتل أبي فأخذ ابن قوام الدولة وقتله وولده والأستاذ الذي شغل الصالح بالحديث.

واستحسن الناس سيرته وسامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين.

وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين وسير على يد الأمير محمد بن شمس الخلافة نحواً من خمسة عشر ألف دينار إلى قاسم ابن هاشم أمير الحرمين برسم إطلاق الحاج.

وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجيباً بعد تشتتهم في البلاد.

وكان زفاف أخته إلى العاضد في وزارته فحمل معها بيوت الأموال.

ونقل تابوت أبيه إلى القرافة.

وسير إلى والي الإسكندرية بحمل عبد الرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل واستخدمه بين يديه في ديوان الجيش.

وترامت الحال في أيامه بالأمير عز الدين حسام قريبه وعظم صيته واستولى على تدبير كثير من أموره وعظم غلمان أبيه.

وكان فارساً شجاعا له مواقف معروفة.

وكان أبوه الصالح قد ولى شاور بن مجير بن نزار السعدي قوص ثم ندم على ولايته وأراد عوده من الطريق ففاته وحصل بها وطلب منه في كل شهر أربعمائة دينار وقال لا بد لقوص من وال وأنا ذلك والله لا أدخل القاهرة ومتى صرفني دخلت النوبة فتركه.

ولما جرح وأشرف على الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات إحداها ولاية شاور الصعيد الأعلى والثانية بناء الجامع على باب زويلة فإنه مضرة على القاهرة والثالثة خروجي بالعساكر إلى بلبيس وتأخيري إرسالها إلى بلاد الفرنج وكان قد أنفق على هذه العساكر مائتي ألف دينار.

وأوصى ابنه رزيك ألا يتعرض لشاور بمساءة ولا يغير عليه حاله فإنه لا تأمن عصيانه والخروج عليك.

فلما استمر رزيك بن الصالح في الوزارة حسنت له بطانته صرف شاور عن قوص ليتم الأمر له وأشار عليه سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء بإبقائه فقال ما أنا آبي ولا لي طمع فيما آخذه منه ولكن أريده يطأ بساطي.

فقيل له: ما يدخل أبداً.

فلم يقبل وخلع على الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة بولاية قوص.

فيما خرج ملك النوبة إلى أسوان في اثنى عشر ألف فارس وقتل من المسلمين عالما عظيماً.

فيها مات بالقاهرة في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة خلت من رجب القاضي أبو الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي الصويبي وصويب قبيلة بن جذام.

ولد بالقدس يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقدم مصر بعد أخذ الفرنج القدس فنشأ بها واشتغل بالعلم وتولى خزانة الكتب في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وولي قضاء فوة وعملها في محرم سنة سبع وأربعين.

ومات بالصعيد كنز الدولة أبو الطليق يوسف وولى بعده رئاسة قبائله أخوه أبو العز فتوح في حادي عشر محرم.

سنة سبع وخسمين وخمسمائة

في عاشر المحرم أفرج العادل رزيك عن الأمراء الذين اعتقلهم أبوه الصالح ابن رزيك في ثالث عشري ربيع الأول سنة تسع وأربعين وهم صبح بن شاهنشاه وأسد الغاوي ومرتفع الظهير.

وفيها أنشأ الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام.

وفي آخر ذي القعدة ورد الخبر بخروج شاور عن طاعة العادل رزيك.

وذلك أن الأمير نصير الدين لما خلع عليه بولاية قوص كتب على يده كتاباً إلى شاور بتسليم البلاد إليه وحضوره إلى القاهرة.

فلما وصل إلى إخميم كتب كتاباً إلى شاور وفي طيه كتاب رزيك فلما وقف عليه بعث إليه أن ارجع ولا تحضر قولاً واحداً فرجع إلى القاهرة وجهر شاور بالعصيان.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها زالت دولة بني رزيك.

وذلك أن مماليك الصالح وغلمانه مثل يانس وورد وسعادة الأسود وبختيار اشتد ظلمهم وكان الصالح قد قدمهم حتى صار لكل منهم نحو المائتي مملوك وطغوا في أيام رزيك حتى ضج الناس منهم.

وقال بعضهم: أمنتم يا بني رزّيك جهلا فذاك الأمر يتبعه الأماني وكان شاور بن مجير السعدي لما بلغه أن الناصر رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك عزله عن ولاية قوص وولي غيره اضطرب وخرج من قوص في جماعة قليلة فسار على طريق الواحات في البراري حتى صار في تروجة فاجتمع عليه الناس وقوي أمره وتزايد.

فاهتم لذلك رزيك ورأى في منامه وكأنه قد صار رواسا في حانوت فلما قص هذه الرؤيا على حسين بن أبي الهيجاء نظر عابرا كان تاجرا حاذقاً يعرف بابن الأرتاحي وأخبره بما رأى فغالطه في التفسير وفهم ذلك حسين.

فلما خرج ألزمه أن يصدقه بتأويله ما رآه رزيك فقال يا مولاي القمر عندنا هو الوزير كما أن الشمس الخليفة والحنش المستدير عليه جيش مصحف وكونه رواساً أقلبها تجدها شاورا مصحفاً وما وقع لي غير هذا.

فقال اكتم هذا عن الناس.

وأخذ حسين يحتاط لنفسه وتجهز إلى الحجاز.

فكثر الإرجاف بمسير شاور إلى أن قرب من القاهرة.

فوقع الصائح في بني رزيك وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس فأسرع ضرغام ونظراؤه من وجوه الأمراء وهم إخوته ملهم وحسام وهمام ويحيى بن الخياط وبنو الحاجب ونظراؤهم وصاروا إلى شاور.

فأسقط في أيدي العسكر الباقي مع بني رزيك.

وكان أول من نجا بنفسه حسين بن أبي الهيجاء خرج فارا ومعه حسام إلى الحوف واستجار بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام فأجاره وحمله من أيلة في البحر إلى المدينة النبوية فجاور ولما فر حسين فت ذلك في عضد

رزيك ولم يثبت وخرج رزيك من القاهرة في نصف المحرم ومعه جماعة من غلمانه وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص.

وتحير فلم يدر أين يذهب فوقع بظاهر إطفيح عند مقدم العرب سليمان بن الفيض فأخذه وكل ما معه.

ودخل أبو شجاع شاور إلى القاهرة ومعه خلق كثير ومعه أولاده طي وشجاع والطاري فنزل دار سعيد السعداء وأحضر إليه ابن الفيض رزيك مكبلا فاعتقله وأخاه جلال الإسلام.

فبعث جلال الإسلام إلى من أعلم شاوراً أن أخاه طلب مبرداً من بعض غلمان أبيه وبرد القيد الذي في رجليه ليهرب فدخلوا إليه وقتلوه.

ومولده في ذي القعدة سنة ثلاث أو اثنتين وخمسمائة.

وأنفقوا على أخيه لهذه النصيحة وبقي من جملة أرباب الإقطاع إلى أن مات.

وقيل إن هذا كان من فعلات طي بن شاور وحشمه حتى قتل العادل.

وكان سليمان بن الفيض من لخم وهو ممن أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وخوله في نعم جمة فلم يرع يداً وقبض على ابنه العادل وأسلمه لشاور ونهب أصحابه ماله.

فلما قدم به عليه قال يا سليمان لقد خبأك الصالح ذخيرةً لولده حين استجار بك فأسلمته لي وأنا الآخر أخبئك ذخيرة لولدي.

ثم أمر به فشنق.

وانقطع بنو رزيك وبزوالهم زالت الدولة.

فكانت مدة بني رزيك في الوزارة تسع سنين وكان دخول شاور إلى القاهرة ووزارته في يوم الأحد ثاني عشري المحرم.

ولما استقر في الوزارة تلقب بأمير الجيوش.

وانثالت عليه على ولده طي أموال بني رزيك وودائعهم من عند الناس حتى كان في الناس من يتبرع بما عنده فظفر هو من أموالهم سوى السلاح والكراع وغيره وسوى ما أخذه أولاده بما ينيف عن خمسمائة ألف دينار عينا.

فبعث بذلك كله مع جميع ما أدخل إليه إلى العربان وأودعه عندهم وأنعم عليهم حتى كثرت أموالهم وصاروا يكيلونها كيلا ويقولون: لفلان قدحان ذهباً ولفلان ثلاثة أقداح.

وزاد تمكنهم له حتى لم يكونوا يفارقون باب الفتوح وباب النصر ونهبوا غلات الحوف واستخفوا المقطعين فلم ينكر عليهم وأراد أن يكونوا له عضداً ورداء.

وكان الصالح بن رزيك قد قرر للفرنج في كل سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم فوافت رسلهم تطلب ذلك.

ولما قتل رزيك بن الصالح في رمضان قدمت رأسه في طشت إلى شاور وهو بدار الوزارة فقال في ذلك الفقيه عمارة: أعزز عليّ أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرّجا بدمائه ما قلبته سوى رجالٍ قلّبوا أيديهم من قبل في نعمائه وجلس شاور بعد قتل الناصر رزيك بن الصالح بدار الذهب وقام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك وفيهم ضرغام نائب الباب ويحيى بن الخياط أسفهسلار العسكر وغيرهما فقال عمارة: زالت ليالي بني رزّيك وانصرمت والحمد والذّمّ فيها غير منصرم كأنّ صالحهم يوماً وعادلهم في صدر ذا الدّست لم يقعد ولم يقم هم حرّكوها عليهم وهي ساكنةٌ والسلم قد تنبت الأوراق في السّلم كنّا نظنّ وبعض الظّنّ مأثمةٌ بأنّ ذلك جمعٌ غير منهزم فمذ وقعت وقوع النّسر خانهم من كان مجتمعاً من ذلك الرّخم ولم يكونوا عدوّاً ذلّ جانبه وإنمّا غرقوا من سيلك العرم وما قصدت بتعظيمي عداك سوى تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم ولو شكرت لياليهم محافظةً لعهدها لم يكن بالعهد من قدم ولو فتحت فمي يوماً بذمّهم لم يرض فضلك إلاّ أن يسدّ فمي والله يأمر بالاحسان عارفة منه وينهى عن الفحشاء في الكلم فشكر شاور عمارة على الوفاء لبني رزيك ونقم عليه ضرغام قوله: فمذ وقعت.

البيت ثم إن شاور جهز الخلع إلى العادل نور الدين بالشام فلبسها يوم الاثنين ثاني عشري رمضان وقبض المال المسير إليه.

وكتب للأجناد والعرب وحواشي القصر من الرواتب والزيادات نظير مالهم عشر مرات وهو غير ظاهر للناس والأبواب مغلقة عليه خيفة.

وذلك أن الصالح بن رزيك كان قد أنشأ أمراء يقال لهم البرقية وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المذكور الملقب أبا الأشبال فارس المسلمين مقدمهم ثم صار صاحب الباب فطمع في شاور وكان فارساً كاتباً فجمع رفقته وتخوف منه شاور.

وصار العسكر فرقتين: ضرغام ومن معه فرقة وحرب ومن معه حزب.

فأما ضرغام فأظهر المباينة وأما نظراؤه فاختصوا بطي بن شاور وعاشروه ولازموه.

فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارته ثار به ضرغام يوم الجمعة ثامن عشري رمضان وقد جمع له وكانت بينهما وقعة قتل فيها طي بن شاور وهو أكبر أولاده وقتل أخوه سليمان الطاري وهو الأصغر وأسر الكامل فاعتقله ملهم ومنع منه أخاه ضرغاماً ليد كانت له عنده.

وكان بين قتل طي بن شاور وقتل العادل رزيك نيف وثلاثون يوماً.

وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل رضوان بن ولخشي وقد كان رفيقاً له إذ ذاك وذلك أول شوال فنهبت داره ودور أولاده وحواشيه وذهب جميع ما نالوه من مال بني رزيك.

وقتل الكامل علي بين القصرين وتركت جثته يومين ملقاة ومعه ابن أخته وحسان تربية شاور.

فكانت وزارته تسعة أشهر.

وكانت أخلاق شاور في وزارته هذه مستورة باستمرار العافية والسلامة ولم يكن فيها أقبح من قتل رزيك بن الصالح فإنها أعربت عن ضيق عطنه وحرج صدره.

وكان كرمه إليه المنتهى وشدة بأسه في مواطن الحرب شهيرة وكان شديد الثبات كثير الوثبات.

ومما نقم عليه أن ابنه الكامل عمل مظلة كانت تحمل على رأسه وتحكم على أبيه وترفع على الأمراء وعسفهم.

ولما فر شاور ونزل بفاقوس عند بني منصور استولى ضرغام على الوزارة وتلقب بالملك المنصور في سابع عشري رمضان فشكر الناس سيرته فإنه كان فارس عصره كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلا كريماً لا يضع كرمه إلا في سمعة ترفعه أو مداراة تتبعه.

إلا أنه كان أذناً متخيلا على أصحابه وإذا ظن بإنسان شراً جعل الشك يقيناً.

وكان في وزارته مغلوباً مع أخويه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام.

وقيل إن ملهماً وضرغاماً لما علما تغير الناس على شاور وأولاده أخذا في مراسلة رزيك في سجنه وإفساد الناس له فبلغ الخبر طي بن شاور فدخل إليه وقال: بلغني أن ملهماً وضرغاماً قد تحدثا لرزيك في الأمر وقد حلفا له جماعةً من الأمراء وأنت غافل عن هذا الأمر.

فقال له شاور: اسكن ولا تعجل أنا أكشف عن هذا فإذا تحققته حكمته.

فقال: لا غنى بي عن قتل رزيك فإني إذا قتلته أمنت.

فقال له شاور: لا يمكن قتله فإنه أولاني جميلا بسببه صرت في هذا المحل.

فمضى طي إلى رزيك وقتله فقامت قيامة شاور.

وبلغ ذلك ضرغاماً فثار وأثار من خلفه وقرر معهم أمر رزيك وزحف بهم فانهزم شاور.

فكان في هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم: رزيك بن الصالح بن رزيك وأمير الجيوش شاور والمنصور ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي أبو الأشبال.

وفيها اختلت الدولة وضعفت بذهاب أمرائها وأولي الرأي فيها.

فيها سار الفرنج إلى ديار مصر فوصلوا إلى السدير.

وورد الخبر في ثاني شوال بوصولهم إلى فاقوس فأخرج إليهم ضرغام أخاه ناصر المسلمين هماماً وكان شجاعاً فالتقى معهم وحاربهم فهزموه بعد أن قتل منهم خلقاً.

وكان شاور قد انضم إلى بني منصور لأنه من فخذهم وكان قائماً على كوم عال.

ثم إن الفرنج صاروا إلى حصن بلبيس في شوال وملكوا بعض السور فردهم عنه همام وبنو كنانة.

وتفرق العسكر إلى الحوف فقاتل العرب هؤلاء وقد انهزموا من الفرنج فقتلوا كل من ظفروا به.

وعاد العسكر وقد قتل منهم العرب عدة ورجع الفرنج إلى بلاد الساحل بمن أسروه من المسلمين وفيهم القطوري من أكابر الأمراء.

فلما صار همام بالقاهرة صار كأنه مشارك لأخيه في الوزارة كل منهما يوقع ويقطع ولم يظفر ضرغام من المال بكبير شيء فإنه نهب.

وفيها ولي الوزير ضرغام الأمير مرتفع الخلواص الإسكندرية برجاء إبعاده عنه فلما صار إليها ظفر بقوم رتبهم ضرغام لقتاله فتأكدت الوحشة بينهما وجمع لمحاربة ضرغام وخرج من الإسكندرية فكتم ذلك.

وفيها قدم شاور دمشق في ذي القعدة وترامى على نور الدين فبعث الوزير ضرغام إليه بعلم الملك ابن النحاس بأن يقبض على شاور فأجاب في الظاهر وأضمر غير ذلك.

وفيها قتل ضرغام عدة من الأمراء في دعوة جمعهم فيها وأعد لهم من خرج على الجميع وقتلهم في داره.

وكان قاع النيل خمس أذرع وثلاث عشرة إصبعاً وبلغ أربع عشرة ذراعاً وثماني أصابع.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها وصل رسل الفرنج في طلب مال الهدنة فماطلهم به ضرغام ودافعهم حتى شغل عنهم بقدوم شاور.

وفي ثامن عشر ربيع الأول قبض ضرغام على صبح بن شاهنشاه عين الزمان وأسد الغاوي وعلي بن الزبد في عدة تبلغ نحو السبعين من الأمراء سوى أتباعهم وذلك أنه بلغه عنهم أنهم قد حسدوه واحتقروه وكاتبوا شاوراً ووعدوه القيام معه.

ثم أخرجهم ليلا وضرب أعناقهم فاختلت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها.

وفيها وجه ضرغام بأخيه ناصر الدين همام على طائفة من العسكر لقتال الأمير مرتفع ابن مجلي المعروف بالخلواص متولي الإسكندرية وقد جمع وسار فعندما بلغ من معه من العربان قتل الأمراء البرقية فتروا عن القيام معه وطمعوا فيه ووثب به قوم من بني سنبس وقبضوا عليه وأتوا به إلى همام فقدم به إلى القاهرة فضرب ضرغام عنقه يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر وصلبه على باب زويلة فنفرت القلوب من ضرغام.

وكان شاور قد وصل في ثالث عشري ذي القعدة من السنة الماضية إلى دمشق متراميا على السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي مستجيراً به على ضرغام فأكرم مثواه وأحسن إليه فتحدث مع السلطان في أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر ويتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره.

فبقي نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارةً يقصد رعاية شاور لكونه التجأ إليه وكون ما قاله زيادةً في ملكه وتقويةً له على الفرنج وتارة يخشى خطر الطريق وكون الفرنج فيه ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خاس في قوله ويخلف بما وعد.

ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها.

واتفق أن الواعظ زين الدين بن نجا الأنصاري سمع بسعة أرزاق مصر فقدم إليها في وزارة الصالح ابن رزيك فأقبل عليه وحصل له من إنعامه ومما أخذه له من العاضد في ثلاث سنين ما يناهز عشرين ألف دينار وسوغه عدة دور بتوقيع.

فسمع بالزاهد أبي عمرو ابن مرزوق يتحدث الناس عنه بأنه مهما قاله لهم وقع وأنه يركب كل سنة في نصف شعبان حماراً له ويأتي معه جماعة إلى ذيل الجبل ويودعونه ويمضون فيطلع أبو عمرو إلى الجبل ويلقاه الناس في الليلة الثانية ويجتمعون كاجتماعهم للعيد ويركب حماره والناس تحته وينتظر وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجده بقصد زيارته وقد تجمع الناس في الأسطحة والدكاكين والطرقات والشيخ يعمل الختمات.

فوصل إليه وأقام حتى انفض الناس فخلا به وتعرف إليه فكان مما قال له: أتعرف بالشام أحداً يقال له شيركوه.

فقال: نعم أمير من أمراء نور الدين.

فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها وكل ما تراه من هذه الدولة يزول حتى لا يبقى له أثر عن قرب.

وانصرف فلما قضى أربه من القاهرة وعاد إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين وحكى له قول الشيخ أبي عمرو فقال له: لا تخبر أحداً بذلك.

ومضى اليوم وما بعده إلى أن قدم شاور على السلطان نور الدين وقوي عزمه على تجهيز العساكر معه فوقع اختيار السلطان على الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان أحد أمرائه فاستدعاه من حلب فوصل إلى دمشق مستهل رجب منها وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صحبة شاور فامتنع وقال: لا أمشي بألف فارس إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شيني فيها عشرة آلاف مقاتل وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء وهم مستوطنون في أوطانهم قريبة منهم خزائنهم ونأتي نحن من تعب السفر بهذه العدة القليلة.

فتركه وأرسل إلى ابن نجا فلما جاء قال له: حديث الرجل الزاهد الذي بمصر أخبرت به أحداً فقال: معاذ الله والله ما سمعه مني أحد سوى السلطان.

فقال: امض إلى أسد الدين شيركوه واحك له الخبر.

فمضى إلى شيركوه وقص عليه الحديث بنصه فطابت نفسه للسفر.

وسار العسكر وصحبته شاور يوم الاثنين خامس عشر جمادى الأولى وقد أقر نور الدين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن ثار عليه.

وخرج نور الدين إلى أطراف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين فكان قصارى أمر الفرنج أن وأخذ شيركوه في سيره إلى مصر على شرقي الشوبك حتى نزل أيلة وسار منها إلى السويس فلم يدر ضرغام وقد وصل إليه رسل الفرنج في طلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار وهو يدافعهم ويماطلون إلا بطيور البطائق قد سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدين متولي بلبيس في يوم الأحد خامس عشري جمادى الأولى يخبر فيها بوصول شاور وأسد الدين شيركوة ومعهما من الأتراك خلق كثير فانزعج وتأهب لتسيير العسكر.

وأصبح الناس يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى وقد شاع ذلك بينهم فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى مكان على عادتهم وجمعوا عندهم الأقوات والماء.

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام بالعساكر أول يوم من جمادى الآخرة وهم نحو ستة آلاف فارس بالخيول المسرجة والدروع الثمينة والسلاح العجيب وقد أعجبوا بأنفسهم واطمأنوا بأنهم ظافرون.

فوصلوا إلى بلبيس يوم الأحد ثانيه فوافاهم شاور بالعسكر الشامي يوم الاثنين فباتوا ليلة الثلاثاء وأصبحوا وقد توهم منهم أسد الدين شيركوه وقال لشاور: يا هذا لقد غررتنا وقلت إنه ليس بمصر عساكر حتى جئنا بهذه الشرذمة.

فقال: لا يهولنك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكة وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس وكلبت الحرب.

وأما الأمراء فإن كتبهم وعهودهم معي وسترى إذا التقينا لكني أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد.

فلما ترتبوا نهاهم عن القتال فتحرك المصريون وتأهبوا وأقاموا حتى حمى النهار فسخن عليهم الحديد ولم يروا أحداً يسير إليهم فنزلوا عن خيولهم وأقاموا الخيم وألقى بعضهم السلاح.

فلما عاين ذلك شاور أمر بالحملة عليهم فثار المصريون وحمل ناصر المسلمين همام والأمير فارس المسلمين على العسكر الشامي فجرح

همام والتفت فلم ير أحداً من عسكره فكان أشجعهم من يصير على ظهر فرسه.

وانهزموا بأجمعهم إلى بلبيس وغنم العسكر الشامي جميع ما كان معهم فقووا به وتبعوهم وأسروا منهم جماعة الأمراء وغيرهم ثم منوا عليهم وسيروهم في جمعهم.

ولحق الأمير همام بالقاهرة سحر يوم الأربعاء خامسه وهو مجروح واختفى الأمير حسام في مدينة بلبيس فدل عليه بعض الكنانية فأسر وقيد.

وسار العسكر فوصلوا إلى القاهرة بكرة يوم الخميس سادسه فنزلوا عند التاج بظاهر القاهرة وانتشر العسكر في بلاد يريدون الأكل والعلف.

وكان ضرغام قد كاتب أهل الأعمال فوصلوا إليه لخوفهم من الترك فضمهم إليه ومعهم الريحانية والجيوشية وجعلهم في داخل القاهرة فأقام شاور بمن معه على التاج حتى استراحت خيولهم.

ثم إنه استحلف شيركوه ومن معه أنهم لا يغدرون به ولا يسلمونه ولا ينهزمون إلا عن غلبة.

ومع هذا فإن طوائف من العربان كانت تطارد عسكر ضرغام بأرض الطبالة وخرج أهل منية السيرج فقتلوا من الترك جماعة فمالوا عليهم وانتهبوا المنية وأذاقوا أهلها نكالاً شديدا.

وأقام شاور بمن معه في ناحية الخرقانية وشبرا دمنهور ثم سار من ناحية المقس يريد القاهرة فخرج إليه عسكر ضرغام وحملوا عليه فخاف من كان معه من الأمراء الذين كانوا مع همام أخي ضرغام ولحقوا بالقاهرة فانهزم هزيمة قبيحة.

فسر بذلك ضرغام وأحضر قاضي القضاة وأمره بحمل ما في مودع الحكم من مال الأيتام فحملها إليه.

وكان شاور لما انهزم سار إلى بركة الحبش وصار إلى الرصد فملك ما هنالك وأخذ مدينة مصر وأقام بها أياماً ولم يبق مع شاور وشيركوه من الأمراء الذين كانوا مع همام سوى شمس الخلافة محمد وأولاد سيف الملك الجمل وابن ناصر الدولة وأولاد حسن فقيد شيركوه ابن شمس الخلافة دون الناس كلهم.

وكره الناس من ضرغام أخذه أموال الأيتام مع ما سبق منه من قتل الأمراء وغيرهم وعلموا عجزه عن شاور.

وكان شاور يركب كل يوم في مصر ويؤمن أهلها ويمنع الأتراك من التعرض إليهم فمال الناس إليه.

وبلغهم عن ضرغام أنه يتوعدهم إذا ظفر بشاور أنه يحرق مصر على أهلها من أجل أنهم أمكنوا شاوراً من دخول البلد وباعوا عليه وعلى من معه.

فتحول شاور عن مصر ونزل اللوق وطارد خيل ضرغام وقد خلت المنصورة والهلالية وثبت أهل اليانسية فقاتل الناس قتالاً خفيفاً.

وصار شاور وشيركوه إلى باب سعادة وباب القنطرة من أبواب القاهرة وطرحوا النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور.

وكانت وقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها من العسكرين خلق كثير.

فلما كان الليل اجتمع مقدموا الريحانية وفد فني منهم كثير وأرسلوا إلى شاور يطلبون الأمان وكان قبل ذلك يبعث إليهم ويستميلهم فأمنهم.

ولما رأى الخليفة العاضد انحلال أمر ضرغام بعث يأمر الرماة بالكف عن الرمي فخرج الرجال إلى شاور في الصباح فسر بهم.

وفترت همة أهل القاهرة وأعمل كل منهم الحيلة في الخروج وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة وجعلوا يترددون من باب إلى باب وفيهم ابن ملهم وابن فرج الله وصارم بن أبي الخليل وجماعة مذكورون فكانوا يطاردون من طاردهم.

وأمر ضرغام بضرب البوقات والطبل على الأسوار ليجتمع الناس فلم يخرج إليه أحد وانفل الناس عنه.

فعاد إلى القاهرة وصار إلى باب الرحبة من أبواب النصر ولم يبق معه سوى خمسمائة فارس فوقف وطلب الخليفة أن يشرف عليهم من الطاق.

فبلغ ذلك شاوراً فسرح في الحال ابنه سليمان الطاري إلى باب القنطرة ليملكه ويقف.

فلما طال وقوف ضرغام نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل.

فلم يجبه أحد.

فصاح: يا مولانا كلمني يا مولانا أرني وجهك الكريم يا مولانا بحرمة أجدادك على الله وهو يبكي فلم يجبه أحد.

وقويت الشمس فصار إلى الظل حتى قرب الظهر فأمر بعض غلمانه أن يركض في قصبة القاهرة ويقول بصوت عال: ما كانت إلا مكيدة على الرجال قد قتل الترك أصحاب شاور الريحانية.

فما هو إلا أن سمع الناس ذلك وكانوا قد صاروا إلى بيوتهم فأسرعوا إلى خيولهم وعادوا من كل جانب مثل السيل فرأوا ضرغاما على تلك الهيئة والطاق لم يفتح له والخليفة لم يكلمه فسقط في أيديهم وقالوا ارجعوا فهي كناية والغلبة لشاور ورجعوا من حيث أتوا.

فوقف ضرغام إلى العصر ولم يبق معه غير ثلاثين فارساً ووردت إليه رقعة فيها: خذ لنفسك وانج بها.

فأيس من الظفر.

وبعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه في الدخول إلى القاهرة فأذن له.

فبعث شاور يأمر ابنه أن يدخل القاهرة وهو عند القنطرة فدخل وضربت أبواقه وكانت من أبواق الترك التي لم تعهد بمصر فما هو إلا أن علم به ضرغام فمر على وجهه إلى باب زويلة فتخطف الناس من معه وعطعطوا عليه ولعنوه.

فأدركه بعض الشاميين في غلمان شاور وطعنه فأرداه ونزل إليه واحتز رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة وذلك قريباً من الجسر الأعظم في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة.

وفر ملهم إلى مسجد تبر فقتل هناك وترك مطروحاً وأتى برأسه إلى عند شاور.

وقتل ناصر الدين أخو ضرغام عند بركة الفيل وقتل فارس المسلمين.

وبقى جسد ضرغام ملقىً يومين ثم حمل إلى القرافة فدفن بها.

وكان من الاتفاق العجيب أن ابن شاور قتل في يوم الجمعة حادي عشري رمضان سنة ثمان وخمسين فقتل ضرغام يوم الجمعة ثامن عشري جمادى الآخرة سنة تسع وقتل مع ابن شاور حسان ابن عمته فقتل مع ضرغام.

.

وكانت وزارة شاور الأولى تسعة أشهر ووزارة ضرغام بعده تسعة أشهر.

وكان من أعيان الأمراء وأحلى الفرسان يجيد اللعب بالكرة والرمي بالسهام ويكتب كتابة ابن مقلة وينظم الموشحات الجيدة كريما عاقلا يحب

العلماء والأدباء ويقربهم إلا أنه سريع الاستمالة يميل مع من يستميله ولا يكذب خبراً عن عدو بل يعاقب سريعاً.

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يحد بحدّه صيد الرّقاب كأنّك رائد البلوى وإلاّ بشيرٌ بالمنيّة والمصاب فكان كما قال عمارة.

وأقام شاور وشيركوه بعد قتل ضرغام في مخيمهما بناحية المقس يومي السبت والأحد.

فلما كان يوم الاثنين طلع الوزارة في ثالث شهر رجب وخرج الكامل بن شاور من دار ملهم أخي ضرغام وكان معتقلاً بها وخرج معه القاضي الفاضل وكان معه في الاعتقال وقد تأكدت بينهما مودة فأدخله إلى أبيه ومدحه عنده وأثنى عليه فسماه حينئذ بالقاضي الفاضل وكان قبل ذلك ينعت بالقاضي الأسعد.

وفرح العاضد بدخول شاور.

ولما خلع عليه سار من القصر إلى باب زويلة وخرج منه إلى باب القنطرة فنزل بدار الوزارة.

وركب شيركوه إلى مصر ورآها وقصد الفقهاء مثل الكيزاني وابن حطيه واجتمع بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق وأخبره كما أخبر ابن نجا أنه يملك الديار المصرية ويزيل هذه الدولة لكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانيا ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها.

وسأله عن بيت المقدس فقال: لا يكون فتحه على يدك وإنما يكون فتحه على يد بعض من في خدمتك من أقاربك.

وهكذا جرى فإن شيركوه لم يملك مصر إلا في مجيئه إلى القاهرة المرة الثالثة ولم يفتح بيت المقدس إلا على يد صلاح الدين يوسف بن أخي شيركوه.

وفي رابع رجب قرئ سجل شاور بالوزارة.

واستمر شيركوه في مخيمه ويخرج إليه في كل يوم عشرون طبقا من سائر الأطعمة ومائتا قنطار خبزاً ومائتا إردب شعيراً.

وأعد له العاضد ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجوهر له قيمة عظيمة كان الآمر قد عمله وأمره بالدخول ليخلع عليه فامتنع.

وأرسل إلى شاور يقول: قد طال مقامنا في الخيم وضجر العسكر من الحر والغبار ويستنجز منه ما وعد به السلطان نور الدين.

فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه.

فبعث يقول له: إن الملك العادل نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده ويكون لك ثلث مغل البلاد والثلث الآخر لشاور والعسكر والثلث الثالث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه.

فأنكر شاور ذلك وقال: إنما طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا أرضي نور الدين.

فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره.

فأخذ شاور عند ذلك يستعد لمحاربة شيركوه واستعد أيضا شيركوه وبعث بابن أخيه صلاح الدين بطائفة من الجيش يجمع الغلال والأتبان وغير ذلك ببلبيس.

فغلق شاور أبواب القاهرة وتغلب صلاح الدين على الحوف وبث خيله وحاز الأموال والغلال.

وتقدم إلى جزيرة قويسنا فخرج ثلاثة من الأستاذين بأمر الخليفة إلى استنفار الناس من الصعيد وثار ابن شاس والي جزيرة قويسنا على الترك وقاتلهم حتى هزمهم وغرق منهم جماعة.

فعاد صلاح الدين إلى عمه شيركوه فتجهز ونزل بحري التاج.

وأخرج شاور خيمه وضربها في أرض الطبالة.

فلما كان يوم الأربعاء الثالث والعشرون من شعبان التقى شاور وشيركوه في كوم الريش فانكسر شاور إلى باب القنطرة ونهبت خيمه وأسر أخوه صبح وجوهر المأموني ودخل القاهرة فرمى بحجر من باب القنطرة فدخل الكافوري مغشيا عليه.

وفي ذلك اليوم أحرق صف الخليج وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة وبقي الحصار إلى يوم الخميس تاسع رمضان.

وورد الخبر إلى شاور بأن الفرنج قاربوا مدينة بلبيس يوم السبت حادي عشر رمضان فأقام عليها وشيركوه بها.

ولما كان في خامس عشر ذي الحجة تقرر الحال مع شيركوه على أن يدفع إليه شاور خمسين ألف دينار ورهائن على صبح أخي شاور وعاد إلى دمشق.

ورجع الفرنج.

وقدم شاور إلى القاهرة في سادس عشر ذي الحجة.

فكان مقامه على بلبيس نيفاً وتسعين يوماً.

وأخرج شاور العساكر والحشود مما يلي البستان الكبير خارج باب الفتوح وزحف شاور فخرج إليه شيركوه وحاربه فخرج أكثر عسكر شاور وغورت أعينهم ووقعت نشابة في عين الطاري ابن شاور اليمني فبقي معه النصل مدة إلى أن قلعت وخرج منها بكلفة.

فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها وحاصره شيركوه طول النهار.

فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة كما فعل أولا واشتد الأمر وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل.

فركب شاور وخرج ثم عاد وقد ازدحم الناس على السور لتنظر إلى الحرب فسقطت شرفة من شرفات السور على ابن شاور وغشى عليه ودخلوا به إلى الكافوري وقد أيس منه فجاء رئيس الأطباء وعصر في أذنه حصرما فأفاق.

وأتاه الشراب من عند الخليفة فشربه وركب إلى داره وقد ورم وجهه.

واشتد قتال شيركوه على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه واحترقت الدور التي بجانبه من حارة زويلة.

وانضم إليه بنو كنانة وكثير من عسكر المصريين.

وبعث طائفة إلى حارة الريحانية وفتحوا ثغرة فكان هناك قتال شديد.

فجلس العاضد على باب الذهب وأمر بالخروج فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم وسدوا الثغرة.

وكان ضرغام عند قدوم شاور وشيركوه أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم ويعدهم بزيادة القطيعة التي لهم فامتنع ملكهم وقال لا يأتي إلا بأمر الخليفة وأما من الوزراء فلا يقبل فلما تحقق شاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر ويقول له متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا وضمن له مالاً وعلفاً ويقال إنه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار وسير إليه بذلك مع ظهير الدين بدران.

فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر.

وخرج مري من عسقلان بجموعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار.

فلما بلغ شيركوه ارتحل عن القاهرة إلى بلبيس وبها ما أعد له ابن أخيه من الغلال وغيرها وانضم معه الكنانية فخرج شاور في عسكر مصر فاجتمع بالفرنج وخيم على بلبيس وأحاط بها فكانوا يغادون القتال ويراوحونه ثلاثة أشهر.

وانقطعت الأخبار عن نور الدين وبلغه سير الفرنج إلى مصر.

وسار ملك القدس بجمع كثير ممن وصل لزيارة القدس مستعيناً بهم.

فبينا الفرنج في محاصرة شيركوه إذ ورد عليهم أخذ نور الدين لحارم ومسيره إلى بانياس فسقط في أيديهم وعولوا على الرجوع إلى بلادهم.

فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعوده إلى الشام وتسليم ما بيده إلى المصريين.

فأجاب إلى ذلك.

وندب شاور الأمير شمس الخلافة محمد ابن مختار إلى شيركوه فقرر معه الصلح على ثلاثين ألفاً فحملها إليه.

وكانت الأقوات قد قلت عنده وقتل من أصحابه جماعة.

وأبطأت نجدة نور الدين فلم يأته منه أحد.

وخرج من بلبيس أول ذي الحجة.

وممن قتل معه من أصحابه على بلبيس سيف الدين محمد بن برجوان صاحب صرخد بسهم أصابه فأنشد وهو يجود بنفسه: يا مصر ما كنت في بالي ولا خلدي ولا خطرت بأوهامي وأفكاري لكن إذا قالت الأقدار كان لها قويً تؤلف بين الماء والنّار وقتل من الكنانية عالم عظيم.

وحصل للفرنج من شاور أموال جمة فإنه كان يعطيهم عن كل يوم ألف دينار.

وأقام شيركوه بظاهر بلبيس ثلاثة أيام وسار إلى دمشق فدخلها يوم الأربعاء ثالث عشري ذي الحجة.

فيها عزل شاور أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل المعروف بالقاضي المفضل ضياء الدين بن كامل الصوري عن

قضاء القضاة وولي مكانه القاضي الأعز أبا محمد الحسن بن علي بن سلامة المعروف بالعوريس.

سنة ستين وخمسمائة

فيها ركب البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك البحر إلى عسقلان وخرج منها إلى الكرك وجمع عسكره وأقام ينتظر شيركوه فعلم بذلك شيركوه فمر من خلف الموضع الذي فيه أرناط فلم يعلم به ونجا وأمن منه.

ووصل إلى دمشق فضعف أمر عسكر مصر عند نور الدين وهون عليه أمرهم وحرضه على قصدهم وأكثر من التحدث في أمر مصر.

وفيها عاد شاور إلى القاهرة وخرج يحيى بن الخياط على شاور وحشد ونزل الجيزة يوم الأربعاء بعد أن حاصر الكامل بن شاور في طنبدي ورحل عن الجيزة فكسروا يوم السبت سابع عشر صفر.

وقبض شاور على ابن فحل ابن أبي كامل وقتلا ليلة الاثنين تاسع عشره.

وتتبع من كان يكاتب شيركوه أو يواده وتشدد في طلب أصحاب ضرغام.

وكان قد استفسد جماعةً من أصحاب شيركوه منهم خشترين الكردي فأقطعه شطنوف.

وفيها فر الشريف المحنك من شاور ولحق بنور الدين.

وذلك أنه كان بعثه ضرغام إلى نور الدين في صرف رأيه عن نجدة شاور فوجد نور الدين مائلاً معه لأمور منها: أنه تقرب إليه بذم مذهب الفاطميين ووعده ملك مصر وعرض له الأموال الكثيرة فبالغ الشريف في الحط على شاور مع نور الدين فأنفذه إليه.

فلما اجتمعا عتبه شاور على ما كان منه وقال له: أنت تعلم أيها الشريف أن سبب قيامي على آل رزيك إنما كان لأجل ضرغام وإخوته من الأمراء واتبعت غرضهم فيما نقموه على ابن الصالح ولما حصلت بالقاهرة رفعت من أقدارهم وزدت في أرزاقهم وبلغتهم أمانيهم فلم يكن لهم إلا إزالتي ثم قتلهم أولادي ونهب أموالي وتشتت جماعتي وما زال السيف في خاصتي وغلماني فهل تعلم لي ديناً إليهم فقال له الشريف: أنت تعلم أيها الأمير أن ابنك طياً كان قد تعدى طوره وتجاوز حده حتى تعاظم عليك ونفذ أمره دون أمرك وأنه بعد قتل رزيك بن الصالح أطلق لسانه في الأمراء ومد يده إلى أموالهم ونسائهم وبهتهم في المجالس وصاح عليهم في المواكب حتى حقدوا عليه وشكوه إليك فلم تشكهم وعامل أصحابك وغلمانك الناس بكل قبيح فمالت عنك قلوب الخاصة والعامة.

فسكت عنه وما زال في نفسه منه حتى تمكن من البلاد فأخذ يتطلبه ففر منه.

سنة احدى وستين وخمسمائة

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

فيها جهز الملك العادل نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من دمشق لقصد ديار مصر في جيش قوي ومعه جماعة من الأمراء وكان كارهاً لمسير شيركوه لكثرة ما رأى من حرصه على السفر.

فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول وشيعه السلطان إلى أطراف البلاد خوفاً من مضرة الفرنج فسار على ميمنة بلاد الفرنج.

وبعث مري ملك الفرنج إلى شاور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصر فأجابه يلتمس منه نجدته وأن المقرر من المال يحمل إليه على ما كان يحمل في السنة الماضية.

فسار مري بعساكره وقد طمع في البلاد على الساحل حتى نزل بلبيس فخرج إليه شاور وأقاموا في انتظار شيركوه.

فبلغه ذلك فنكب عن الطريق وهبط في يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادي الغزلان إلى أسكر وخرج إلى إطفيح قبلي مصر فشن الغارة هناك.

واتصل الخبر بشاور فرحل هو والفرنج يريدونه.

ونزل شاور والفرنج بركة الحبش في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة وتوجه في يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة فاندفع سائراً في بلاد الصعيد حتى بلغ شرونه وعدى منها إلى البر الغربي.

وأدرك شاور ساقته فأوقع بهم وعدى بعساكره وجموع الفرنج.

ونزل شيركوه بالجيزة في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعاً وخمسين يوماً.

وبعث الشريف أبا عبد الله الملقب بالرضي ابن الشريف المحنك إلى الطلحيين والقرشيين يستفزهم ويدعوهم إليه وكان قد بلغه أن شاوراً أساء إليهم فأتوه مسرعين.

وبعث إلى شاور بأني أحلف لك أني لا أقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك أحد من أصحابي وأكون أنا وأنت على الفرنج وننتهز فيهم فرصةً قد أمكنت وما أظن أن يتفق للإسلام مثلها كثيراً.

فأبى شاور من قبول ذلك.

والتجأ شيركوه إلى دلجة ونزل شاور في اللوق والمقس ظاهر القاهرة وأنشأ الجسر بين الجيزة والجزيرة وشحن المراكب والرجال لتسير من خلف عسكر شيركوه.

وكتب شيركوه إلى الإسكندرية يستنجد بها على الفرنج وشاور فقاموا معه وأمروا عليهم رجلاً يعرف بنجم الدين بن مصال من ولد الوزير فكتبوا إليه أنهم يمدونه بالسلاح والحديد وجهزوا إليه خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

فأتاه الخبر بقرب شاور فلم يثبت وترك خيامه وأثقاله وسار سيراً حثيثاً ونزل قدر ما أطعم دوابه ورحل من الليل فسار غير بعيد ثم نادى في عسكره بالرجوع فعاد إلى دلجة.

وسار شاور والفرنج في طلب شيركوه فنزلوا الأشمونين وتبعوا شيركوه فأمر شيركوه أصحابه بالتعبئة.

فما طلع ضوء الصباح حتى أشرفت عساكر شاور وجموع الفرنج في عدد كبير فقدم شاور طائفة فحملت على أصحاب شيركوه وانهزم منها عز الدين الجاولي من أصحابه فلم ينزل إلا بالإسكندرية وتفرق منهم عدد فولي شيركوه وقد قتل من أصحابه جماعة وقتل من أهل الإسكندرية كثير.

وكان سبب الخلل في عسكر شيركوه أنه فرق أصحابه فرقتين فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف.

ثم إنهم تجمعوا وقت الظهر ووطنوا أنفسهم على الموت وحملوا على شاور ومن معه فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وأبلى يومئذ صلاح الدين يوسف بلاءً حسنا وحمل حملات فرق بها الجموع وبدد شملها.

وحمل شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل فانهزم كثير من الفرنج وقتل منهم كثير وكاد ملكهم أن يؤخذ ووقع في قبضة شيركوه وأصحابه نحو السبعين أسراً.

وبات الفريقات وقد تبين الوهن في الفرنج فسار شاور بمن معه إلى منية بني خصيب.

وكانت هذه الواقعة في موضع يعرف بالبابين بالقرب من الأشمونين في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

ثم إن شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيوم إلى الإسكندرية وانتهب البحيرة وأخذ عسكره غلالها ومواشيها فخدمه ابن الزبير متولي ديوان الإسكندرية وحمل إليه الأموال وقواه بالسلاح وأقام متخوفاً من مسير شاور إليه فترك بالإسكندرية صلاح الدين يوسف وخرج إلى الصعيد وجبى أموال البلاد.

فخرج شاور ونزل على الإسكندرية وحاصرها أشد حصار مدة ثلاثة أشهر ومنع عنها الميرة فقلت بها الأقوات.

هذا وشيركوه في جباية أموال الصعيد وأخذ غلاله.

ودخل عليه شهر رمضان فلما أتمه وأهل شوال بلغه ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأقوات وأنها قد قاربت أن تؤخذ فسار من قوص ونزل على مصر يوم الخميس ثامن شوال.

فبلغ شاور أن شيركوه حاصر مصر فرحل من الإسكندرية وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح ورحل عن مصر إلى الشام.

فبعث إلى ملك الفرنج يلتمس منه ذلك فأجابه إليه وقرر مع شاور أنه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرم في هذه السفرة ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم إلى بلاده.

ووقع الحلف بالأيمان المؤكدة على ذلك.

فلما تقرر الصلح أرسل صلاح الدين إلى ملك الفرنج يقول إن لي أصحاباً منهم القوي ومنهم الضعيف فأما القوي فإنه يتبعنا في البر وأما الضعيف فإنه يسير في البحر فنريد لهم مراكب.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية واجتمع بعمه أسد الدين شيركوه.

ودخل شاور البلد وجاءه مشايخ البلد للسلام عليه ومري ملك الفرنج جالس معه فلم ينظر شاور إلى الجماعة ولا أكرمهم ولا أذن لهم في الجلوس لأنهم كانوا قاتلوه قتالاً شديداً فنقم عليهم ذلك.

فقال له مري: أكرم قسسك.

فأذن لهم في الجلوس وعاتبهم على ما فعلوا من القتال وإظهار المخالفة.

فسكتوا.

وكان فيهم الفقيه شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي المعروف بابن جاره شيخ الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر فقال له: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائناً من كان.

فقال له مري: وحق ديني لقد صدقك هذا الشيخ.

فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم.

وفر نجم الدين بن مصال والي الثغر إلى الشام وقبض شاور على الأشرف بن الحباب قاضي الثغر وعاقبه وأخذ منه مالاً جزيلاً ولم يقنع بالرشيد ابن الزين الناظر فولي القاضي الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا النظر عوضه فبعث شاور وقبض على جميع من كان مع صلاح الدين من أهل مصر وعلي ابن مصال.

فشق ذلك على صلاح الدين واجتمع بملك الفرنج في ذلك فأرسل إلى شاور وما زال به حتى أفرج عنهم.

فخافوا من شاور وعزموا على الرحيل إلى الشام فخرج إليهم شاور بنفسه وجمع وجوههم وطمأنهم وحلف لهم أنه يضاعف ووصل الذين ساروا من ضعاف أصحاب صلاح الدين في المراكب إلى عكا وأحاط بهم الفرنج واعتقلوهم بمعصرة القصب حتى عاد ملك الفرنج فأطلقهم.

وتسلم شاور الإسكندرية في نصف شوال.

وسار شيركوه ومن معه وقد استمال شاور منهم جماعةً ومعه مري ملك الفرنج حتى نزل الجيزة وعدى إلى القاهرة من المقس.

فأقام مري أياماً ورحل عائداً إلى بلاده فخرج شاور يودعه إلى بلبيس وعاد إلى القاهرة أول ذي القعدة فخرج إليه العاضد يتلقاه إلى الطابية وخلع عليه.

واستقر الأمر بينه وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكر إليها وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار.

قرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته فإنه كان ممنوعاً من التصرف وشاور يستبد بأمور الدولة.

فرحل الفرنج إلى بلادهم وتركوا بالقاهرة عدةً من مشاهير فرسانهم ورتبوا بها ابن بارزاني والياً.

ووصل شيركوه إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة وفي نفسه من مصر ما لا ينفصل لأنه خبر متحصلها وعرف بلادها واستخف بأهلها.

واستقر شحنة الفرنج أولاً بالقاهرة في الموضع المعروف اليوم بقصر بيسرى من الخرنشف.

وبعث الكامل شجاع بن شاور إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه ويسأل الدخول في طاعته وضمن له عن نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته وبذل له مالاً يحمله إليه كل سنة فأجابه وحمل إلى نور الدين مالاً جزيلاً.

وأخذ شاور بعد عوده من الإسكندرية في الإكثار من سفك الدماء بغير حق فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

واشتد ظلم إخوته وأولاده وغلمانه ومن يلوذ به وكثر تضرر الناس بهم.

فكان من تأمل أحوال الوزراء يجد الصالح بن رزيك ربى رجال الدولة وجاء الضرغام فأفناهم ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد وجرأ الفرنج علنا حتى كان ما كان مما يأتي ذكره إن شاء الله.

وفيها أحضر القاضي رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن القاضي رشيد الدين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسواني وقد فر إلى قريب برقة فدخل على حالة سيئة فأمر به شاور فضربت عنقه وصلب عند مسجد الزيني على الخليج بالقرب من قبو الكرماني في يوم الأربعاء العشرين من ذي العقدة.

فيها بعث شاور إلى نور الدين رسالةً مع شهاب الدين محمود خال صلاح الدين يوسف تتضمن أنه يحمل إليه مالاً في كل سنة من مصر مصانعةً ليصرف عنه أسد الدين شيركوه.

فأجاب نور الدين إلى ذلك وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالها زيادةً على ما كان بيده وذلك في شعبان وأمره بترك ذكر مصر.

فأرسل شاور إليه كتاباً يشكر صنيعه.

وفيها قتل شاور القاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني صاحب كتاب الجنان ورياض الأذهان وكان من أهل العلم والأدب وله رسالة أودعها من كل علم مشكلة ومن كل فن أفضله.

وسار إلى اليمن رسولاً وكان أسود في أيام الحافظ وتلقب بعلم المهتدين فقال فيه شاعر من أهل اليمن من قصيدة بعث بها إلى الحافظ: بعثت لنا علم المهتدين ولكنّه علم أسود وولي نظر الإسكندرية.

فقتله شاور في المحرم بسبب أنه داخل شيركوه وصلاح الدين وخدمهما بعد أن عذبه عذابا شديداً ثم ضرب عنقه.

فيها خرج يحيى بن الخياط يريد الوزارة فبعث إليه شاور عسكراً هزموه حتى لحق بالفرنج.

وفيها ولي خطابة الجامع العتيق بمصر نتاج الشرف حسن بن أبي الفتوح ناصر ابن إسماعيل سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكماً جائراً وركبوا المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقنوا أنه لا حامي للبلاد وتبين لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس.

فجمع مري جموعه واستشارهم في قصد ديار مصر فقووا عزمه على المسير إليها فأجمع أمره على الرحيل واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه ففرق قراها عليهم بعد ما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية واستنجد عسكراً قوي به جنده.

فورد الخبر إلى شاور بمسير الفرنج إلى مصر في نصف المحرم فبعث إلى ملك الفرنج الأمير ظهير الدين بدران وقيس بن طي بن شاور.

وكان نور الدين بحلب فأسرع مري إلى المجيء إلى مصر ظناً أن نور الدين بعيد منه وعساكره متفرقة عنه.

فبلغ ذلك نور الدين فأخذ في جمع عساكره.

ووصل مري إلى الداروم.

فبلغ شاوراً فارتاع وبعث أميراً يعرف ببدران لكشف الخبر فلما اجتمع بمري خدعه ووعده بعدة من قرى مصر نحو الثلاث عشرة قرية وأمره أن يخبر شاور أنهم إنما قصدوا البلد لخدمة.

فلما عاد إلى شاور جهز إلى مري شمس الخلافة محمد بن مختار فعندما دخل عليه قال له: مرحباً بشمس الخلافة.

فقال: فمرحباً بالملك الغدار وإلا ما أقدمك إلينا قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى وصل إليكم ليزوج أختاً للكامل بن شاور بصلاح الدين يوسف ويتزوج الكامل بأخت صلاح الدين فحسبنا أن هذا عمل علينا.

فقال ما لهذا صحة ولو فعل لما كان ناقضاً للهدنة.

فقال: الصحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبوا على رأينا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك فخرجت لتوسط الأمر بينهم وبينكم.

فقال له: فكم تريد أن يكون مبلغ القطيعة التي نقوم بها قال: ألفي ألف دينار.

فقال: حتى أعود إلى شاور بهذا الخبر وأرجع إليكم بالجواب فلا تبرحوا من مكانكم.

فقال مري: بل ننزل على بلبيس حتى تعود.

وكان قد كتب إلى شاور: إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء في كل عام فكتب إليه شاور: إن الذي قررته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك أو إذا قدم علي عدو فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر.

فأجابه: لا بد من حضوري وأخذي المقرر.

فعلم شاور أنه قد غدر وخان الأيمان ونقض العهود وطمع في البلاد.

فجمع الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة وسير إلى بلبيس حفنة من العسكر ونقل إليها ما تحتاج إليه من الأقوات والغلات.

فنزل مري على بلبيس أول يوم من صفر وكتب عدة من أعيان المصريين كتباً إلى مري يعدونه المساعدة لكراهتهم في شاور منهم علم الملك ابن النحاس ويحيى ابن الخياط وابن قرجلة وجماعة فقوي الفرنج.

وعندما قدم مري إلى بلبيس أرسل إلى طي بن شاور وكان ببلبيس أين ينزل فقال لرسوله: قل له ينزل على أسنة الرماح.

فغضب من هذا وجعله سبباً لنقض ما قرره مع شمس الخلافة وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف يوم الثلاثاء ثاني صفر وأخذ الطاري والناصر ابني شاور أسيرين وقتل جميع من كان فيها وأسرهم وسباهم ونهب سائر ما تحتوي عليه وأسر المعظم سليمان بن شاور وقيس بن طي بن شاور.

وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنك قال أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها! نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة.

فصعد شاور إلى العاضد وسأله مكاتبة نور الدين وطلب معونته فإن الفرنج قد ملكوا بلبيس والمسلمون يضعفون عن وقفهم وأنه متى حصل التقاعد

أخذت مصر وأسر الفرنج من فيها من المسلمين ويحثه على إرسال من يتدارك هذا الأمر.

فكتب العاضد إلى نور الدين برأي شمس الخلافة فإنه اجتمع بالكامل ابن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه.

فلما حلف له قال: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره.

فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتبا الكتاب وأرسلاه إلى نور الدين.

فقيل للعاضد لم لا أطلعت وزيرك على ذلك فقال أعرف أنه لا يوافقني عليه لكراهته في الغز وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه.

وأرسل إلى شاور يقول أين استدعائي الغز من المسلمين لنصرة الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين.

فقال للرسول: قل لمولانا عني أنت مغرور بالغز والله لئن يثبت لهم رجل بديار مصر لا كانت عاقبته وخيمةً إلا عليك.

فلما بلغه ذلك قال: رضيت أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين.

فوافت كتب العاضد وكتب جماعة من الأعيان إلى نور الدين بحلب فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فأشاروا بإرسال أسد الدين شيركوه.

وكان بحمص وقد وصلت إليه الكتب من مصر باستدعائه لإنجازهم وإنقاذهم مما نزل بهم فخرج منها يريد السلطان بحلب وخرج رسول السلطان من حلب بطلبه فتلاقيا بباب مدينة حلب وعادا.

فلما رآه السلطان عجب من سرعة مجيئه فأعلمه بموافاة الكتب إليه تستدعيه إلى مصر فسر بذلك وتفاءل به وأعطاه مائتي ألف دينار وثياباً وسلاحاً ودواب وحكمه في العسكر فاختار ألفي فارس وجمع فسار في ستة آلاف فارس.

وخرج معه نور الدين إلى دمشق فوصل إليها في سلخ صفر وجهز أسد الدين وأعطى نور الدين كل فارس ممن معه عشرين ديناراً مصرية غير محسوبة عليه من جامكيته وأضاف إليه جماعة من الأمراء منهم عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين بزغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب.

وكان صلاح الدين كارهاً مسيره إلى مصر كأنما يساق إلى الموت فأخرجه نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول: " وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ".

فإن نور الدين أحب مسير صلاح الدين إلى مصر فكان مسيره إليها لخروج الملك عن أولاده وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر فكان في مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم.

وسار شيركوه من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول وتقدم الفقيه عيسى الهكاري إلى العاضد سراً وخفية من شاور ليحلفه على أشياء.

وأما مري فإنه كثرت أمراء الفرنج عنده لقصد سبي بلبيس فغزاها برجاله وأمر بإخراج الأسرى من أهل بلبيس إلى ظاهر البلد وركب وقد اعتقل رمحه وحمل على الأسرى حتى فرقهم فرقتين فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت عن يمينه وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره وقال لمن صار إليه من الأسرى: قد أطلقتكم شكراً لله على ما أولاني من فتح مصر فإني ملكتها بلا شك.

وما زال واقفاً حتى عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل وأخذ عسكره أسراهم فاقتسموهم فبقوا في أيدي الفرنج بعد ذلك نحو الأربعين سنة وهلك كثير منهم هنالك وأفلت بعضهم.

وكان شمس الخلافة قد صار إلى مري قبل أخذه مدينة بلبيس بإجابته إلى القطيعة التي طلبها فعاقه عنده حتى أخذ بلبيس كما تقدم ذكره ثم أذن له في الانصراف إلى القاهرة واعتذر بأنه بلغه عن قيس بن طي أشياء أمضته حتى فعل ما فعل وأنه باق على ما تقرر معه بقاء شمس الخلافة وأشار على شاور بالاحتراز وقال إن الرجل مخاتل.

وأنفذت الكتب إلى نور الدين.

وكان شاور قد شرع في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه وحفر من ورائه خندقاً فلم يكمل من ناحية النيل.

وعمل في السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس على ساحل البحر هدم في سنة وخمسين وستمائة وآخر بجانب كوم البواصين وثالث على سكة سوق وردان سقط سنة إحدى وستين وستمائة وباب في طريق زين العابدين وباب عرف بباب الصفاء وباب بحري مصلي الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمائة وباب عند أقمنة الجير مما يلي درب السرية وباب لقنطرة بني وائل وتحته قنطرة بني وائل التي تصب في بركة الشعيبية التي كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعز وكان الماء وسار مري بعقيب

مسير شمس الخلافة عنه يريد منازلة القاهرة بعد ما أقام ببلبيس خمسة أيام فداخل الناس منه رعب شديد وخوف عظيم فاجتمعوا بالقاهرة ووطنوا أنفسهم على الموت.

وكان هذا من لطف الله فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة في أهل بلبيس لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة ألبتة لما في قلوبهم من كراهة شاور.

فما هو إلا أن قصد مري القاهرة وإذا بشاور قد قام في حريق مصر وأمر شاور الناس بالانتقال منها إلى القاهرة وحثهم على الخروج منها.

فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحرمهم وقد ماج الناس واضطربوا اضطراباً عظيماً.

ووقعت النار في الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار في مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر.

وبلغ بالناس الحال أن كانت الدابة تكري من مصر إلى القاهرة ببضعة عشر ديناراً والجمل بثلاثين ديناراً.

ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها وملأوا جميع الشوارع والأزقة وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم وهم مع ذلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة وقتل رجالها وسبي من بها من الحريم والصبيان.

وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم الثلاثاء التاسع من صفر الموافق له ثامن عشر هاتور ونزل مري بعساكره على بركة الحبش في يوم الأربعاء العاشر من صفر فخرج إليه شمس الخلافة.

فلما دخل إليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة فخرج فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخاناً في السماء قال: نعم.

قال: هذا دخان مصر ما أتيتك إلا وقد احترقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرق فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه فخل الآن عنك.

فقال مري: لا بد من النزول على القاهرة ومعي فرنج من هذا البحر قد طمعوا في أخذها.

ثم رحل فنزل على القاهرة في عاشر صفر مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع في خيمه.

وقاتل أهل القاهرة قتالاً شديداً وحفظوها وبذلوا جهدهم.

واشتد الفرنج في محاصرة القاهرة وضيقوا على أهلها حتى تزلزل الناس زلزالاً شديداً وضعفت قواهم وشاور هو القائم بتدبير الأمور فتبين له العجز عن مقاومة الفرنج وأنه يضعف عن ردهم.

وخاف من غلبتهم فرجع عن مقاومتهم إلى مخادعتهم وإعمال الحيلة فأرسل شمس الخلافة إلى مري يطلب منه الصلح على أن يحمل إليه أربعمائة ألف دينار معجلة.

فأجاب إلى ذلك.

ويقال إنه خوفه من نور الدين واعتذر بأنه لولا الخوف من العاضد ومن معه من المسلمين وإلا سلمه البلد وإنه تقدم له بألف ألف دينار.

فتقرر الصلح.

على أن مري قال لا أسمع من كلام شاور فإنه غدار ولا بد من كلام الخليفة العاضد.

فمشى أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي المعروف بالجليس قاضي القضاة وداعي الدعاة ومعه الأستاذ صنيعة الملك جوهر بين الفرنج وبين الناس حتى تقرر الأمر على تعجيل مائة ألف دينار وحمل الباقي بعد ذلك مع القطيعة المقررة كل سنة وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردب غلة على ما يقترح من أصنافها.

فأرسل العاضد القاضي الفاضل عبد الرحيم إلى الشيخ الموفق ابن الخلال كاتب الدست وكان مريضاً والفاضل ينوب عنه بتعيين الكامل بن شاور وقال له: استشره في هذا الأمر.

فمضى الفاضل إليه وعرض ما تقرر عليه وبلغه عن العاضد ما أشار به من أخذ رأيه في ذلك.

فقال: قبل الأرض عني لمولانا وقل له عن مملوكه إن وعد المشتري وصبر البائع فليست بعالية وبين قيل وقال يتصرم الوقت.

وشرع شاور في حمل المال فلم يجد في حاصل الخبايا بالقصر سوى مائتي ألف دينار مدفونة في أحد كمي المجلس من ذخائر الحافظ أطلعهم عليها أستاذ من أستاذي القصر فأخرجت وحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوي مائة ألف دينار فأخذوها بعد امتناع.

ووقع الطلب من أهل القاهرة ومصر فلم يتحصل من الناس إلا نحو الخمسة آلاف دينار لفقر أهل مصر وسوء حالهم وذهاب أموالهم في الحرق والنهب بحيث صاروا لا يجدون القوت عجزاً عنه يا ربّ إنّي أرى مصراً قد انتبهت لها عيون اللّيالي بعد رقدتها فاجعل بها ملّة الإسلام باقيةً واحرس عقود الهدى من حلّ عقدتها وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظّى جمر وقدتها فبينما الفرنج في استحثاث أهل القاهرة في حمل المال إذ وصل إليهم في مستهل ربيع الآخر خبر قدوم أسد الدين بالعساكر فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السبت ثالث ربيع الآخر ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين رجل وصبي وامرأة.

فنزلوا على بلبيس وساروا منها إلى فاقوس.

ونزل أسد الدين بالمقس إلى اللوق خارج القاهرة يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر فخرج إليه العاضد وتلقاه.

وكان شاور لما بلغه وصول شيركوه إلى صدر أخرج شمس الخلافة إلى مري وقال له: قد وقف المال علينا وقد جئت إليك أستوهب منك بعض ما قطعت علينا.

فقال مري: اطلب ما شئت.

قال: تهب لي من الألفي ألف ألف ألف.

قال: قد فعلت فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً وهب مثل هذا لقوم هم في مثل حالنا.

فقال مري: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك وأنكما ما سألتماني أن أهب لكما هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث.

فقال: صدقت هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصرةً لنا وما بقي لك مقام وشاور يقول لك أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لنا ولك وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذه الألف ألف بشيء وحملنا الباقي إليك متى قدرنا وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار.

فقال مري: أنا راض بذلك.

فقال: وأن تطلق ابن طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئا.

فأجاب إلى ذلك وأطلق ابن شاور ورحل.

ولما قارب شيركوه القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام وأشار عليه باتباع الفرنج.

فلم ير ذلك واعتذر بما هم فيه من التعب.

ونزل أسد الدين بظاهر القاهرة ودخل على العاضد فخلع عليه في تاسعة بالإيوان وعاد إلى مخيمه وقد فرح الناس بقدومه.

وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقامات الوافرة.

وثقل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من ميل العاضد إلى شيركوه وشرع يماطل بما تقرر لشيركوه ولنور الدين وهو يركب كل يوم إليه ويسير معه ويعده ويمنيه.

وعزم على أن يعمل دعوةً ويحضر شيركوه وجميع أمرائه فإذا صاروا إليه قبض عليهم واستخدم من معهم من الجند يمنع بهم الفرنج.

فنهاه ابنه شجاع عن ذلك وقال: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه.

فقال: يا بني والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً.

قال: صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فإنه ليس بينك وبين عود الفرند إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً.

فترك شاور ما عزم عليه.

ولما طال مطال شاور على الغز اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور.

واتفق أن شاوراً رأى في منامه كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواته وهو يوقع والحاجب بين يديه يتناول منه التوقيع فقال: من هذا الذي جلس في مجلسي ووقع من دواتي فقيل له: هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: وما يصنع محمد عندي أما كان له في مملكة غيري مصنع.

ثم إنه قام إليه وضربه بسيفه حتى قتله وألقاه بظاهر الدار.

فلما استيقظ هاله ما رآه واستدعى أبا الحسن علي بن نصر الأرتاحي العابد وكان نادراً في علمه وقص عليه ما رأى.

فقال له: هؤلاء الذين في القصر من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكون هلاكهم على يدك.

فأمره بكتمانه فلم يظهر حتى قتل شاور.

ويقال إن العاضد خرج متنكراً إلى شيركوه وأمره بقتل شاور فركب على عادته إلى شيركوه ومعه الطبل والبوق وخرج من باب القنطرة.

فلما صار في مخيم الغز تلقاه صلاح الدين وجرديك في جماعتهم وأعلموه أن أسد الدين توجه إلى القرافة فقال نمضي إليه.

فساروا جميعاً وصلاح الدين وجرديك عن يمينه وشماله وكان اليوم كثير الضباب فتناول صلاح الدين شاور على غرة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض وأحاط أصحابهما بمن مع شاور فانتهبوهم وفروا عنه.

وأخذ أسيراً إلى المخيم وأرسلوا إلى شيركوه فحضر.

وبلغ ذلك العاضد فأنفذ في الحال إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف وقال: هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا فأمض حكم الله فيه.

فقتل في يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر وحملت رأسه إلى العاضد.

وفر الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر فكان آخر العهد بهم وأحضرت رءوسهم يوم الاثنين رابع جمادى الأولى.

وبعث شيركوه يطلبهم فأرسل إليه العاضد طبقاً من فضة مغطى فلما كشف عنه وجد فيه رأس شجاع ورءوس أولاد أخيه فتأسف على قتل شجاع لما كان يبلغه عنه من منعه أباه من عزمه على الفتك بهم.

وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل فإنه أطمع الغز والفرنج في البلاد وجرهم إليها فأحرق مصر وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها.

وكان مع ذلك منقاداً لولده الكامل قد أطلقه وسلم الأمر إليه بحيث إنه كان يأتي إلى داره فيحتجب عنه.

وكان ضيق العطن لا يصبر على شيء مما ينقل إليه من الاخبار.

وكان إذا سئل وهو في الخدمة لا يرد سائلا في شيء.

وكان شديد النكال إذا عاقب فتكشفت في وزارته الثانية التي قتل فيها صفحاته وأحرقت كافة أهل مصر لفحاته وأغرقتهم نفحاته فغصه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه.

وكان عاقبة أمره القتل والعار وسوء المنقلب والدمار.

ثم إن أسد الدين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل إلى القاهرة في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد فهاله ما رأى من كثرة اجتماع الناس وتخوف منهم فأراد أن يفرقهم فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور فتسارعوا إليها وانتهبوا سائر ما كان فيها.

فصعد شيركوه إلى القصر وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش.

ونزل إلى دار الوزارة حيث كان ينزل شاور ومن قبله من الوزراء فلم يجد ما يجلس عليه لما شملها من النهب.

فجلس للهناء وغلب على الأمر.

وخرج إليه التوقيع بخط القاضي الفاضل وإنشائه فقرأه الجليس ابن عبد القوي قاضي القضاة على رءوس الأشهاد وفي أعلاه بخط العاضد: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلي طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلا بحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله.

فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزت بأن اعتزت إلى بنوة النبوة واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا "وَلاَ تَنقُضُوا الأَيمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلا".

وهو توقيع كبير.

وكتب القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكي كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر وأنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش تاريخه سابع عشري ربيع الآخر وكتب العاضد علامته بين سطريه الأولين بخطه الله ربي فعاد الجواب بالامتثال.

وسلك أسد الدين مع العاضد مسالك الأدب حتى أعجب به ومال إليه.

وركب إلى مصر فرآها مشوهةً بالحريق وقد تلفت فيها أماكن وسلمت أماكن وتشعث الجامع فشق عليه وعاد.

وقد حضر إليه الأمير ابن مماتي والقاضي الفاضل فأمر بإحضار أعيان المصريين الذين جلوا عن مصر في الفتنة وصاروا بالقاهرة فتغمم لما نزل بهم وسفه رأي شاور فيما فعله وأمرهم بالعود إلى مصر.

فشكوا ما حل بهم من الفقر وذهاب الأحوال وخراب المنازل وقالوا: إلى أي موضع نرجع وفي أي مكان نأوى.

فقال: لا تقولوا هذا وعلي بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم بما كانت عليه وأحسن فاستدعوا مني كل مالكم فيه راحة فهي بلدي وربما وأمر فنودي على الناس بالرجوع إلى مصر فتراجعوا إليها شيئاً بعد شيء.

وجعل أسد الدين اجتماعه بالخليفة العاضد في الشباك على العادة.

فأول ما اجتمع به قال له الأستاذ صنيعة الملك جوهر وكان أكبر الأستاذين وأفصحهم لساناً وهو قائم على رأس العاضد: يقول لك مولانا لقد كنا نؤثر مقامك عندنا أول طروقك بلادنا ولكن أنت تعلم الموانع عنه ولقد تيقنا أن الله عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا.

فقال أسد الدين شيركوه: يا مولانا بإمالة اللام والله لأنصحنك في الخدمة ولأجعلن دولتك بعون الله قاهرة.

فقال الأستاذ: يقول لك مولانا الأمل فيك هذا وأكثر.

ثم جددت له الخلع وأفيضت عليه ونزل إلى داره.

وحسن عنده موقع الجليس ابن عبد القوى قاضي القضاة وداعي الدعاة وأثنى عليه وشكره وقال لولا مذهبه! فقال: إنه ولد بالمغرب وله دالة على الخليفة ولولا ضبطه حواصل القصر لخرجت كلها لكرم العاضد لكنه يحترمه ويقبل مشورته.

فازدادت مكانته عند أسد الدين وأقره على حاله.

واستبد أسد الدين بأمور المملكة وغلب على الدولة واستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال وأقطع البلاد لعساكره.

ولما أكب الناس عليه بالتواقيع قلق من كثرة ما يوقع وقال: أظن مولانا استخدمني كاتبا.

في رابع جمادى الأولى قتل الكامل شجاع بن شاور والمعظم سليمان بن شاور وركن الإسلام نجم أخو شاور وأحضرت رءوسهم إلى أسد الدين شيركوه.

ولما بلغ نور الدين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمر كره ذلك وأمضه وظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه وأخذ يتحدث في ذلك وأفضى به إلى الأمير مجد الدين ابن الداية.

وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين وكاتب العاضد في ذلك غير مرة ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين يريد بذلك إخراجه عن مصر.

فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة من غير أن يغير على أصحاب العاضد شيئا من أحوالهم ولا أنكر عليهم أمراً من أمورهم بل أقرهم على عوائدهم سوى أنه أقطع البلاد لأصحابه.

وتولى عنه التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها فصار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين بعد أن استقر في الوزارة ثلاثة وستين يوما يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بخناق تولد له من إكثاره أكل اللحوم الغليظة ودفن في الدار فلم تخرج له جنازة.

وكان شجاعا قوياً جلداً عفيفاً متألهاً يحب أهل الخير وله إيثار وفيه ضبط وإمساك.

وأصله من دوين بليدة من عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وهو من قبيل الروادية إحدى بطون الهذبانية من قبائل الأكراد.

وقدم هو وأخوه نجم الدين أيوب وكان أسن منه إلى بغداد واتصلا بخدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولازماه.

فبعث بأيوب إلى تكريت وكانت إقطاعه فأقره فيها دزداراً ومعناه حافظ القلعة فإن دز بالفارسي القلعة ودار الحافظ.

فأقام بها ومعه أخوه شيركوه وله به إقطاع إلى أن انهزم عماد الدين زنكي من العراق من قراجا الساقي ووصل إلى تكريت فأمكنه أيوب من قلعتها ورفعه إليها بالحبال وخدمه هو وأخوه شيركوه فاعتدها يداً لهما.

ثم أقام له السفن حتى عبر دجلة وتبعه أصحابه فأحسن إليهم وسيرهم إليه.

فبلغ ذلك الأمير مجاهد الدين بهروز فأنكر عليه وأخرجه من قلعة تكريت فسار هو وشيركوه إلى عماد الدين زنكي وهو يومئذ صاحب الموصل فأكرمهما وأقطعهما إقطاعاً وتقدما عنده.

فلما ملك بعلبك جعل نجم الدين دزدارها فأقام بها إلى أن قتل عماد الدين زنكي وحصر عسكر دمشق بعلبك لأخذها لصاحب دمشق مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن ظهير الدين طغتكين الأتابك.

فبعث إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل يعرفه ويطلب منه عسكرا فلم يجبه فسلم بعلبك لصاحب دمشق على إقطاع وصار أحد أمراء دمشق.

وأما شيركوه فإنه لما خدم عماد الدين زنكي تمكن منه بواسطة الوزير جمال الدين الأصفهاني إلى أن قتل فتعلق بخدمة ابنه نور الدين محمود بن زنكي وتخصص به حتى عظمت منزلته عنده.

وصار معه إلى حلب فأقطعه وأنعم عليه ثم أعطاه مدينة الرحبة وتدمر إلى أن جهزه إلى مصر وعاد منها وهو كثير الذكر لها فخافه نور الدين وصرفه عنه وأعطاه مدينة حمص وجعله مقدم عسكره إلى أن قدم مصر وملكها كما تقدم إلى أن مات فدفن بالقاهرة ثم نقل منها إلى المدينة النبوية بعد مدة.

ولما احتضر قال: من ههنا فقال الطواشي بهاء الدين قراقوش: عبدك قراقوش.

فقال: بارك الله فيك الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا ومتنا وأهلها راضون عنا.

أوصيكم لا تفارقوا سور القاهرة حتى تطير رءوسكم واحذروا من التفريط في الأسطول.

ولما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين.

فأما إحداهما وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر فإنهم قالوا قد مات أسد الدين المهدد به في الشرق والغرب ولم يحدث إلا خير ومن الرأي أن نمسك مخلفته ونضيف إليها من جياد فرسان الغز ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس ونقدم عليهم بهاء الدين قراقواش وننزلهم بالشرقية ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم.

ويرتب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به ولا يقيم وزيراً تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره بل يجعل صاحب وساطة بين الناس وبين الخليفة.

وقالت الطائفة الأخرى لا وحق الله ما يكون وزير مولانا إلا ابن أخي وزيره الذي هو منه وإليه يعنون صلاح الدين وإذا بقي المذكور أقام معه قراقوش وغيره من المعتبرين.

وكذلك وقع في عسكر أسد الدين فإن شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين والأمير عبد الدولة ياروق الياروقي وأخاه الأمير بهاء الدولة والأمير قطب الدين خسرو بن تليل والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب طلب كل منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه ليغالب عليها.

واجتمع مماليك أسد الدين وهم خمسمائة على صلاح الدين وطلبوا وزارته وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين.

وكان العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لما اختلفوا كما تقدم ذكره والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد مقام عمه.

فأرسل إليه وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر وحنكه ونعته بالملك الناصر وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

وصفة الخلعة ثوب أبيض دبيقي بطرازين ذهبا وطيلسان مقور بطراز ذهب دقيق وعمامة بيضاء مذهبة وفي عنقه العقد الجوهر وقيمته عشرة آلاف دينار وقد تقلد سيف الوزارة وقيمته خمسة آلاف دينار.

وركب فرسا حجرةً صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار وعليها سرفسار ذهب مجوهر وأعلاقها من سبتة وفي عنقها مشدة بيضاء برأسها مائتا حبة جوهراً وفي أربع قوائمها أربعة عقود من جوهر وعلى رأسه قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ومشدة بيضاء بأعلام ذهب.

وحمل بين يديه عدة بقج فيها أنواع من الثياب وقيد معه أيضا عدة خيول ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه وقرأه الجليس ابن عبد القوي.

وهو كبير جداً وعلى رأسه بخط العاضد: هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا بيمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة ولمن بقى بقربنا أعظم سلوة.

" تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ".

فكان آخر منشور كتب عن العاضد.

ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم وبدأ بالمشطوب فقال له: هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل.

ثم قصد الحارمي وقال له: هذا صلاح الدين ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك.

وما زال بهم حتى مالوا إليه وأطاعوا بأجمعهم إلا عين الدولة فإنه قال لا أخدم يوسف أبداً وخرج من القاهرة بجماعة وصار إلى نور الدين بالشام.

فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس وساس الأمور وكاتب الأطراف وأقبل على الجد وتاب عن الخمر وأعرض عن اللهو وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر راكباً ويقيم عنده بالقصر عدة أيام.

وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء وباينه جماعة منهم وتوجهوا إلى الشام.

وشرع في استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمه أسد الدين واستدعى من العاضد فأمده بشيء كثير من المال فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العامة في نقص وضعف.

وركب العاضد ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف في غرة شهر رمضان وحمل العادل أبو بكر السيف.

ثم ركب أيضا جمعتين في شهر رمضان إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور على العادة وركب في عيد الفطر.

وأرسل إلى نور الدين يسأله في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك.

وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومن بعده للملك العادل نور الدين وهو في الظاهر ملك الديار المصرية وصلاح الدين لا يتصرف إلا عن أمره كالنائب في الأمر عنه ونور الدين لا يفرده بكتاب بل يكتب: الأمير الأسفهلار

صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا ويجعل علامته على رأس الكتاب تعظيماً لنفسه وترفعاً عن أن يكتب اسمه.

وعندما بلغه وفاة أسد الدين شق عليه استيلاء صلاح الدين وتتبع أصحابه وأصحاب أسد الدين وأخذ إقطاع صلاح الدين وإقطاع أسد الدين ومنع نوابه من التصرف في حمص وأبعد أهاليهم واستثقلهم وطردهم عنه.

وكتب إلى الأمراء بمصر بمفارقته وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره.

وشرع يذمه ويذكره بالسوء ويعنته في الطلب بحمل الأموال إليه وصار كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب ويستعظم ذلك احتقاراً له.

وثقل ذلك على أهل الدولة وحواشي الخليفة العاضد فإنه أقطع أصحابه أجل البلاد وآواهم وأبعد أهل مصر وأضعفهم واستبد بجميع الأمور ومنع العاضد من التصرف ففطن العاضد لما يريد من إزالة الدولة.

فثار الأستاذ مؤتمن الخلافة وهو يومئذ من أكابر خدام القصر وبعث بمكاتبة إلى الفرنج يستنجد بهم على الغز ويحثهم على قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويتلفون من معه.

ووافقه على ذلك جماعة.

وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعد ما جعله في نعل كي لا يعثر عليه.

فلما وصل الرجل إلى البئر البيضاء قريباً من بلبيس ظفر به بعض أصحاب صلاح الدين ومعه نعلان جديدان في يده فارتاب لما رآه من سوء حاله وحسن النعلين وعلم أنهما لا يليقان به ولو كانا من ملابسه لكان تبين فيهما أثر الاستعمال.

فأخذهما منه وفتحهما فوجد فيهما الكتب إلى الفرنج فتقرب بذلك إلى صلاح الدين وحضر بالرجل والكتب إليه فكتم ذلك وتتبع من كتب الكتب حتى أحضر إليه برجل يهودي فلما خاف منه أسلم وأخبره الخبر.

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة وخشي على نفسه فلزم القصر وامتنع من الخروج مدة وصلاح الدين لا يلتفت إليه فاغتر بإعراضه عنه وخرج إلى منظرة له على النيل بستان بناحية الخرقانية قريباً من قليوب.

فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموه وقتلوه وصاروا إليه برأسه وذلك في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة وجعل زمام القصور عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي.

فغضب لقتله السودان وحرك منهم ما كانوا يتكتمونه فاجتمعوا لحرب صلاح الدين في سادس عشريه صبيحة قتل مؤتمن الخلافة وقد صاروا في جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد يزيد على الخمسين ألفاً وزحفوا إلى دار الوزارة.

فبدر إليهم فخر الدين شمس الدولة توران شاه وركب صلاح الدين بعساكره وقد تجمعت الريحانية والجيوشية والفرجية ومن انصاف إليها في بين القصرين وخرجت إليهم الأرمن فوقع بين الفريقين قتال عظيم استظهر فيه العبيد على الغز والعاضد في المنظرة يشرف على الوقعة.

فلما تبين الغلب للعبيد وكادوا أن يهزموا الغز رمى أهل القصر بالنشاب والحجارة حتى امتنعوا عن مقاتلة العبيد فنادى شمس الدولة النفاطين وأمرهم بإحراق المنظرة التي فيها العاضد فطيب قارورة وصوب على المنظرة بها فإذا بباب الطاق قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة أحد الأستاذين الخواص وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم.

فلما سمع العبيد ذلك وكان قد قتل أحد مقدميهم وبعث صلاح الدين في أثناء محاربته لهم إلى حارة السودان خارج باب زويلة المعروفة بالمنصورة فأحرقها وتلفت أموالهم وهلكت أولادهم وحرمهم ضعفت لهذه الأمور أنفس العبيد وانهزموا بعد ما ثبتوا يومين وتعين لهم الفل.

فركب الغز أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن وصوا إلى السيوفية وثبتوا هنالك فألقى شمس الدولة النيران في المواضع التي امتنعوا بها.

وأحرق أيضاً دار الأرمن التي كانت بين القصرين وكان بها خلق كثير من الأرمن كلهم رماة لهم جار وكانوا في هذه الحروب قد أنكوا الغز بشدة رميهم ومنعوهم أن يتجاوزوا من موضعهم إلى محاربة العبيد فلما احترقت عليهم الدار لم يكد يفلت منهم أحد.

فالتجأ العبيد إلى عدة أماكن وكلما امتنعوا بموضع ألقى فيه الغز النار وقاتلوهم حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواه السكك وقد وهنوا ولم يجدوا لهم ملجأ.

فصاحوا وطلبوا الأمان فأمنوا على ألا يبقى منهم أحد بالقاهرة فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة.

ومال الغز على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة.

فما هو إلا أن صاروا بالجيزة حتى عدى إليهم شمس الدولة بالعسكر فأبادهم حصداً بالسيف ولم ينج منهم إلا الشريد.

وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة وصيرها بستانا فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر.

وقوي صلاح الدين وتلاشى العاضد وانحل أمره ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة.

ووالي صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى ان العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب فقال ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ونزل عنه وشق خفيه ورمى بهما وسلم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشياً فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتى مات.

وأخرج صلاح الدين خاله الأمير شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد يتبع من فر من العبيد فأفناهم ولم يبق منهم بديار مصر إلا من اختفى بعد أن كانت البلاد كلها لا تخلو مدينة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد محمي لا يدخله وال ولا غيره.

وكان منهم ضرر على الناس.

وأخذ صلاح الدين في القبض على دور العبيد والأرمن والأمراء وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة.

وكان قاع النيل في هذه السنة ست أذرع وثماني أصابع وبلغ ثمان عشرة ذراعا.

سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها قدم من الشام إخوة صلاح الدين يوسف وعياله وقيل كان قدومهم في سنة أربع.

فيها تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خوفاً من صلاح الدين ونور الدين عندما بلغهم تمكنه من ديار مصر وقطع آثار جند المصريين.

فكاتبوا فرنج صقلية وغيرهم واستنجدوا بهم فأمدوهم بالمال والسلاح والرجال وساروا بالدبابات والمنجنيقات إلى دمياط فنزلوا عليها في مستهل صفر بألف ومائة مركب ما بين شين ومسطح وشلندي وطريدة وأحاطوا بها براً وبحراً.

فبعث صلاح الدين بالأمير تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي صلاح الدين وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمي في عساكر إلى دمياط وأمدهم بالمال والميرة والسلاح.

وألح الفرنج على أهل دمياط وضايقوهم والناس فيها صابرون في محاربتهم.

وبعث صلاح الدين إلى نور الدين يستنجده ويعلم أنه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريين عليه فجهز إليه نور الدين العساكر شيئاً بعد شيء وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالساحل وأغار عليها واستباحها.

واستمر الفرنج على دمياط أحداً وخمسين يوما ثم رحلوا عنها في الحادي والعشرين وقيل في الثالث والعشرين من ربيع الآخر خوفاً على بلادهم من نور الدين ولفناء وقع فيهم وغرق من مراكبهم نحو الثلثمائة مركب.

فأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها.

وبلغت النفقة من صلاح الدين على هذه النوبة ألف ألف دينار مصرية.

وكان يقول ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

وورد كتاب نور الدين إلى العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط وكان صلاح الدين سير إليه يبشره برحيلهم وسير إليه العاضد يستقيله من الأتراك خوفاً منهم ويطلب الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين فتضمن كتابه مدح الأتراك والثناء عليهم.

وفيها أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يبعث إليه بأبيه نجم الدين أيوب ابن شاذي فأرسله إليه في عسكر وسار معه كثير من التجار ممن له هوىً في مصر وغرض في صلاح الدين.

فخرج ابنه صلاح الدين إلى لقائه ومعه الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج خارج باب الفتوح ولقيه هناك ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحد وذلك في رابع عشر شهر رجب.

ولقبه العاضد بالملك الأوحد وزينت القاهرة ومصر لقدومه فكان من الأيام المذكورة وبالغ العاضد في احترامه والإقبال عليه.

ونزل اللؤلؤة.

وكان سبب تجهيز الملك العادل نور الدين لنجم الدين أيوب كثرة ورود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي عليه من بغداد يعاتبه على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر فوالي نور الدين كتابة الملاطفات إلى صلاح الدين يأمره بذلك وهو يعتذر إليه عن ترك الخطبة بما يخافه من المصريين.

فوردت رسل المستنجد إلى دمشق بالاستحثاث والعزم على إقامة الخطبة بمصر ولا بد فرأى نور الدين أن مثل هذا المهم لا يقوم به إلا نجم الدين أيوب وكان يتولى قلعة بعلبك فأرسل إليه وقرر معه الأمر وسيره.

وكان وصوله إلى القاهرة لست بقين من رجب وقيل في جمادى الآخرة فقررت له ولاية الإسكندرية وولاية دمياط والبحيرة.

وأقطع الأمير فخر الدين شمس الدولة توران شاه ابن والد الملوك الملك الأفضل نجم الدين أيوب قوص وأسوان وعيذاب وكانت عبرتها يومئذ في تلك السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار فاستناب عنه في قوص الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار.

فيها ثار الأمير عباس بن شاذي بمرج بني هميم من أعمال قوص ومنع رسلان دعمش المتوجه لجباية خراج قوص من التوجه واستباح عسكره.

وفيها أبطل صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر فكانت أول وصمة دخلت على الدولة.

ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي وذلك يوم الجمعة لعشر مضين من ذي الحجة.

ثم أمر أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك.

وفي يوم الاثنين بعد طلوع الشمس الثاني عشر من شوال حدثت زلزلة عظيمة مهولة بدمشق سقط منها بعض شرف الجامع الأموي وتشقق رأسا المنارتين الشرقية والغربية وكانت المنارة الشمالية تهتز اهتزاز السعفة في الريح العاصفة.

ثم جاءت زلزلة أخرى بعد ساعة ثم جاءت زلزلة ثالثة بعد العصر.

وأثرت هذه الزلزلة آثاراً شنيعة بحلب وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وكفر طاب وتل بارين والمعرة وتل باشر وعزاز وأفامية وأبو قبيس والمنيطرة وحصون الباطنية بأسرها.

وامتدت إلى الجزيرة والموصل ونصيبين وسنجار ودنيسر وماردين والرها وحران ورأس العين والرقة وقلعة جعبر وقلعة نجم وبالس ومنبج وبزاعا وعين تاب وحارم وأنطاكية وما خلفها من الثغور وبيروت وأطرابلس وعرقة وطرسوس وجبلة والمرقب واللاذقية وعكا وصور وغيرها فمنها ما دمر بأسره ومنها ما ذهب أكثره ومنها ما ذهب بعضه ومنها ما تشعث.

وهلك بحلب عدد كثير من الناس وببعلبك ولم يهلك بدمشق غير واحد أصابته قطعة من حجر فسقط على درج جيرون فمات.

وجاءت بدمشق زلازل في عدة ليالي وأيام إلى يوم الجمعة عاشر ذي القعدة.

فيها ولي القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل قضاء القضاة في ذي الحجة فرتب صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري بحكم القاهرة وابن كامل بحكم مصر.

فيها رفع صلاح الدين جميع المكوس بديار مصر وأبطلها.

وفيها أمر بهدم المعونة بمصر فهدمت وعمرها مدرسة للشافعية ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسة لأحد من الفقهاء فإن الدولة كانت إسماعيلية.

وهذه المدرسة بجوار جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفية وهي أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم.

وأنشأ دار الغزل به مدرسةً للمالكية بجوار الجامع أيضا وتعرف اليوم هذه المدرسة بالقمحية.

وفيها عزل صلاح الدين قضاء مصر من الشيعة وولي قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الشافعي وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعدما أحضره من المحلة وخلع عليه في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاةً شافعية.

ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما واختفى مذهب الشيعة من الإمامية الإسماعيلية.

وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره.

وفيها ابتدأ صلاح الدين في غزو الفرنج فجمع الجنود والعساكر وخرج في أحسن زي إلى بلاد عسقلان والرملة فشن الغارات عليها وهجم ربض مدينة غزة وواقع ملك الفرنج على الداروم ثم خرج في النصف من ربيع الأول ومعه مراكب مفصلة على الجمال فسار إلى أيلة وكان بها قلعة منيعة قد

ملكها الفرنج فألقى المراكب المحمولة معه بعد إقامتها وإصلاحها في البحر وشحنها بالرجال والسلاح وضايق قلعة أيلة في البر والبحر حتى افتتحها في العشرين من ربيع الآخر وقتل من بها من الفرنج وسلمها لثقات من أصحابه أقامهم فيها وقواهم بالسلاح والميرة ونحو ذلك.

ووردت عليه قافلة أهله فسار بهم إلى القاهرة ودخل في سادس عشري جمادى الأولى.

ثم سار إلى الإسكندرية لمشاهدة سورها وترتيب أمورها فدخلها وأمر بإصلاح السور والأبراج فعمر ما تهدم منه.

وفيها اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب منازل العز بمصر في النصف من شعبان وجعلها مدرسة للشافعية وأوقف عليها عدة أماكن منها الروضة تجاه مصر.

وفيها خرج الأمير شمس الدولة توران شاه إلى بلاد الصعيد وأوقع بالعربان وغنم منها غنائم تجل عن الوصف وعاد إلى القاهرة.

وفيها ابتدأ صلاح الدين بعمارة السور الجديد على القاهرة.

وفيها كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء فبسطوا ألسنتهم بالقول ضد ما عليه صلاح الدين وأصحابه من الفعل في محو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها وخلع العاضد وقتله.

والدعاء للخليفة العباسي.

فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه فواعد أمراء النشابين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه.

فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشامي الذي قد عين له وقد قبض عليه وأوثقه وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه وما يتعلق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار وماله من إقطاع.

فلم ينتشر الضوء حتى علت الأصوات وارتفعت الضجات وثار الصياح من كل جانب وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم.

فال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له ونحو ذلك من أنواع الهوان.

وبلغ ذلك العاضد فشق عليه وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء فبعث إليه بأن هؤلاء الأمراء كانوا عصاةً لأمرك والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمتثل أمرك فسكت.

ذوتقوى صلاح الدين وعظم أمره وذهب من كان يخشاه ويخافه وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر وزاد الأمير شمس الدولة على إقطاعه ناحية بوش ودهشور والمنوفية وغير ذلك.

وانحل أمر العاضد.

فيها قبض صلاح الدين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده بحيث لم يبق له شيئاً وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي وهو يومئذ زمام القصور من بعد قتل مؤتمن الخلافة وصار له في القصر موضع فلا يدخل شيء من الأشياء إلى القصر ولا يخرج منه إلا بمرأى منه ومسمع.

وضيق على أهل القصر حتى قبض في هذه الأيام على جميع ما فيها وصار العاضد معتقلاً تحت أيديهم.

وفيها أمر صلاح الدين بتغيير شعار الفاطميين وأبطل ذكر العاضد من الخطبة.

وكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد فتخاله العامة والروافض العاضد وهو يريد أبا محمد الحسن المستضئ بأمر الله أمير المؤمنين الخليفة.

ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العباسية.

وفي يوم الجمعة سلخ ذي الحجة عزم صلاح الدين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقيةً وحذراً فانتدب لذلك رجل من أهل المغرب يقال له اليسع ابن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقي الأندلسي فقصد المنبر مستعداً من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء فخطب ودعا للخليفة أبي محمد الحسن المستضئ بأمر الله أمير المؤمنين وذكر نسبه إلى العباس.

وقيل بل كان ذلك في السنة الآتية.

سنة سبع وستين وخمسمائة

في أول المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية لخلو هذه السنة من نوروز.

ومنذ نقلت السنة في أيام الأفضل أمير الجيوش كما تقدم ذكره لم تنقل وانسحب الأمر حتى تداخلت السنون وصار التفاوت بين العربية والقبطية سنتين.

وفي رابعه جلس العاضد بعد الإرجاف بأنه أثخن في رمضه فشوهد على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحمى وقيل إنها تفشت بأعضائه.

وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه وامتنع من مداواته وخذله مساعدةً عليه للزمان وميلا مع الأيام.

وفيها نزل نجم الدين أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاضد وقال إن ذكرته ضربت عنقك.

فقال لمن أخطب فقال للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي.

فلما خطب لم يذكر العاضد ولا غيره بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر.

فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته وفي الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره.

فلما بلغ العاضد ذلك قال في الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له.

نهاية الفاطميين

فلما كانت الجمعة الثانية وهي سابعه خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن المستظهر بالله.

وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة للفاطميين.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بالديار المصرية وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد بقتل رجاله وذهاب أمواله وصار الحكم على قصره قراقوش طواشي أسد الدين نيابة عن صلاح الدين وتمكنت عساكر نور الدين من مصر طمع في أخذها.

وكتب إلى صلاح الدين وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي.

فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه لميلهم كان إلى الفاطميين ولأنه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعه منها.

فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يعيش منه.

فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك فاختلفوا فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد ومنهم لم يشر بها.

وكان قد دخل إلى مصر رجل عجمي يعرف بالأمير العالم يزعم أنه عباسي فاطمي من أيام الصالح بن رزيك وما زال ينتقل في قوالب الانتساب وأساليب الاكتساب.

فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر ويخطب للمستضيء قبل الخطيب فلم ينكر أحد عليه ولا تحرك له.

فتيقن حينئذ صلاح الدين ذهاب قوة القوم من وال يغريهم.

فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر.

فكان الذي ابتدأ بالخطبة للمستضيء في الجامع العتيق بمصر أبو عبد الله محمد ابن الحسن بن الحسين بن أبي المضاء الدمشقي.

وكان قدم به أبوه إلى مصر فنشأ بها وقرأ الأدب ورحل إلى دمشق وبغداد وتفقه وعاد إلى مصر واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين فولاه الخطابة بمصر ثم بعثه رسولا إلى بغداد فمات بدمشق.

وولي الخطابة بعده الشيخ أبو إسحاق العراقي.

فكتم أهل العاضد ذلك عنه لشدة ما به من المرض.

وكان ذلك من أعجب ما يؤرخ فإن الخطبة بديار مصر أول ما خطب بها للمعز لدين الله أول خلائف الفاطميين بمصر عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو كما تقدم ذكره وكان الذي قطع خطبة العاضد آخر خلائفهم رجل عباسي.

ومثله في الغرابة أن الفاطميين لم يتمكنوا من الديار المصرية حتى قصدوها بعساكرهم مرتين مع القائم بن المهدي ولم يفتح وفتحوها في الثالثة على يد جوهر وكذا حصل في زوالهم من مصر فإن شيركوه قصد مصر مرتين ورجع ثم قصدها في المرة الثالثة واستقر بها حتى أزالت عساكره الدولة.

في ثامنه أمر صلاح الدين بركوب عساكره كلها قديمها وجديدها بعد أن تكامل سلاحهم وخيولهم وخرج لعرضهم وهي تمر عليه موكباً بعد موكب وطلباً بعد طلب.

والطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب وعدة من الجند ما بين مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا واستمر طول النهار في عرضهم.

وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلباً والغائب منها عشرون طباً وتقدير العدة أربعة عشر ألف فارس.

في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم عشية يوم عاشوراء نفذ حكم الله المقدور وقضاؤه الذي يستوي فيه الآمر والمأمور في العاضد لدين الله في الثلث الأول من ليلة الاثنين يوم عاشوراء وقامت عليه الواعبة وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة حتى كأن القيامة قد قامت.

وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام.

فاعتني به صلاح الدين عن أن يبتذل أو يهان بعد الموت وكان من معه من الأمراء يريدون ذلك وأمر بكف الأيدي واعتقال الألسنة عن التعرض إليه بسوء وركب معزياً لأهل القصر.

وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمعه ووعد أهله بحسن الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولداً: أبو الحسن وأبو سليمان داود وأبو الحجاج يوسف وأبو الفتوح وأبو إسحاق إبراهيم وأبو الفضل جعفر وأبو داود موسى وأبو زكريا يحيى وعبد القوي وعبد الكريم وعبد الصمد وأبو اليسر وأبو القاسم عيسى.

وأمر بإنشاء الكتب إلى البلاد بذكر وفاة العاضد وأن الخطبة استقرت للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين العباسي وألا يخوض أحد في شأن العاضد ولا يطعن في سلطان.

وكتب إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن أبي عصرون.

وفي حادي عشره عمل الباقي بالإيوان وحضر السلطان صلاح الدين وكان محفلا حافلا وجمعاً حاشداً فيه خلق من الزوايا وأهل التصوف وغيرهم.

واهتم بما يحمل من أطعمة العزاء.

وكانت النفوس متطلعةً إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة غير عشرة أيام منها في الخلافة إلى أن أعيدت دولة بني العباس في مستهل المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً.

وكان كريماً سمحاً لطيفاً لين الجانب يغلب عليه الخير وينقاد إليه.

وكان أسمر حلو السمرة كبير العينين أزج الحاجبين في أنفه حلس وفي منخريه انتشار وفي شفتيه غلظ.

وترك العاضد من الولد الأمير داود والأمير عليا ويقال أبو علي والأمير عبد الكريم وتميماً وموسى وعبد القوي وجعفر وعبد اصمد وأبا الفتوح وحيدرة وإبراهيم ويحيى وجبريل وعيسى وسليمان ويوسف غير أن أيامه كانت ذات مخاوف وتهديدات وقاسى شاوراً وتلوناته ومخايلاته ثم محاصرة الفرنج ومضايقته.

وفي أيامه احترقت مصر وذهبت أموال أهلها وزالت نعمتهم بالحريق والنهب.

وكان متغالياً في مذهبه شديدا على من خالفه.

ولم يكن فيمن ولي من أبائه من أبوه غير خليفة سواه ومن قبله الحافظ وما عداهما فلم يل منهم أحد الخلافة إلا من كان أبوه خليفة.

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقاباً كثيرةً وآخر ما كتب في الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضا أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام فقال ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد فطلب

والي مصر وأمره يكشف عمن هو مقيم في المسجد المذكور وكان العاضد يعرفه.

فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلا صوفياً فأخذه ودخل به على العاضد فلما رآه سأله من أين هو ومتى قدم البلاد وفي أي شيء قدم وهو يجاوبه عن كل سؤال.

فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا وأطلق سبيله فنهض من عنده وعاد إلى المسجد.

فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع في الصحابة وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد وهو نجم الدين الخبوشاني فإنه عدد مساوئ القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك فصحت بذلك رؤيا العاضد.

وحكى الشريف الجليس أن العاضد طلبه يوماً فلما دخل عليه رأى عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية فسأله عنهما فقال له: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا فلما دخل الغز كانت هيئتهم كهيئة هذين المملوكين.

ومن العجيب أنه لم يمت بالقصر منهم إلا المعز أولهم بمصر والعاضد آخرهم وعدتهم أربعة عشر دفنوا كلهم بالتربة في المجلس فلو اتفق أنه مات آخر لم يوجد له عندهم مكان يدفن فيه لامتلائه بقور الأربعة عشر وهذا أيضاً من عجيب أمرهم.

ولما مات العاضد استولى صلاح الدين على جميع ما كان في القصر فإن قراقوش قام بحفظه فلم يجد فيه كثير مال لكنه وجد فيه من الفرش والسلاح والذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء ووجد فيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله.

منها حبل ياقوت زنته سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالا ونصاب زمرد طوله أربعة أصابع في عرض كبير ولؤلؤ كثير وإبريق من حجر مانع يسع مائه رطل ماء وسبعمائة يتيمة بزهر والطبل الذي صنع لإزالة القولنج وكان بالقرب من موضع العاضد فلما احتاطوا بالقصر ظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد وضرب عليه إنسان فضرط فتضاحك من حضر منهم ثم ضرب عليه آخر فضرط ثم آخر من بعد فضرط حتى ووجد من الكتب النفيسة ما لا يعد ويقال إنها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب منها مائة ألف مجلد

بخط منسوب وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري فباع السلطان جميع ذلك وقام البيع فيها عشر سنين.

ونقل أهل العاضد وأقاربه إلى مكان بالقصر ووكل بهم من يحفظهم.

وأخرج سائر ما في القصر من العبيد والإماء فباع بعضهم وأعتق بعضهم ووهب منهم.

وخلا القصر من ساكنه كأن لم يغن بالأمس.

وكانت مدة الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر منذ دعي للمهدي عبيد الله برقادة من القيروان إلى حين قطعت من ديار مصر مائتي سنة وتسعاً وستين سنة وسبعة أشهر وأياماً أولها لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين وآخرها سلخ ذي الحجة سنة ست وستين وخمسمائة منها بالمغرب إلى حين قدوم القائد جوهر إلى مصر أحد وستون سنة وشهران وأيام ومنها بالقاهرة ومصر مائتا سنة وثماني سنين.

وما أعجب قول المهدي ابن الزبير في مدح العاضد:

بل عاد للدّنيا الجمال ** وبدا على الدّين الجلال

أصبحت في الخلفاء را ** بـع عشرهم وهو الكمال

قال ابن سعيد: ولم يسمع فيما بكيت به دولة بعد انقراضها أحسن من قصيدة عمارة ابن علي اليمني الذي قتله صلاح الدين وهي: رميت يا دهر كفّ المجد بالشّلل وجيده بعد حسن الحلي بالعطل سعيت في منهج الرأي العثور فإن قدرت من عثرات الدّهر فاستقل جدعت مارنك الأقني فأنفك لا ينفكّ ما بين قرع السّنّ والحجل هدمت قاعدة المعروف عن عجل سقيت مهلا أما تمشي على مهل! لهفي ولهف بني الآمال قاطبةً على فجيعتنا في أكرم الدّول قدمت مصر فأولتني خلائفها من المكارم ما أربى على الأمل قومٌ عرفت بهم كسب الألوف ومن كمالها أنّها جاءت ولم أسل وكنت من وزراء الدّست حين سما رأس الحصان بهاديه على الكفل ونلت من عظماء الجيش مكرمةً وخلّةً حرست من عارض الخلل يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصّرت في عذلي بالله زر ساحة القصرين وابك معي عليهما لا على صفّين والجمل هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما ملكتم بين حكم السّبي والنّفل وقد حصلتم عليها واسم جدّكم محمّد وأبوكم غير منتقل مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل فملت عنها بوجهي خوف منتقد من الأعادي ووجه الودّ لم يمل أسبلت من أسفٍ دمعي غداة خلت رحابكم وغدت مهجورة السّبل أبكى على مأثراتٍ من مكارمكم حال الزّمان عليها وهي لم تحل دار الضّيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسمٍ ومن طلل وفطرة الصّوم إن أضحت

مكارمكم تشكو من الدّهر ضيماً غير محتمل وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورثّ منها جديدٌ عندهم وبلي وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجمل وأوّل العام والعيدين كم لكم فيهنّ من وبل جودٍ ليس بالوشل والأرض تهتزّ في يوم الغدير كما يهتزّ ما بين قصريكم من الأسل كانت رواتبكم للذّمّتين وللضّم - - يف المقيم وللطّاري من الرّسل ثم الطّراز بتنّيس الذي عظمت منه الصّلات لأهل الأرض والدّول وللجوامع من أحباسكم نعمٌ لمن تصدّر في علم وفي عمل وربمّا عادت الدّنيا لمعقلها منكم فأضحت بكم محلولة العقل واللّه لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولي ولا سقى الماء من حزٍّ ومن ظمإ من كفّ خير البرايا خاتم الرّسل ولا رأى جنة الله التي خلقت من خان عهد الإمام العاضد بن علي أئمتي وهداتي والذّخيرة لي إذا ارتهنت بما قدّمت من عملي تالله لم أوفهم في المدح حقّهم لأنّ فضلهم كالوابل الهطل ولو تضاعفت الأقوال واستبقت ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل باب النّجاة هم دنيا وآخرةً وحبّهم فهو أصل الدّين والعمل نور الهدى ومصابيح الدّجا ومحلّم الغيث إن ونت الأنواء في المحل ووجد على بعض جدران القصر مكتوباً: يا هذه الدنيا عجبت لمولع بك كيف أضحى في هواك يقاد ما صحّ منك لآل أحمد موعد فكيف منك لغيرهم ميعاد أمّا نعيمك فهو ظلّ زائل وصلاح ما تأتيه فهو فساد.

ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية

اعلم أن الدولة كانت إذا خلت من وزير صاحب سيف يتغلب عليها فإنه يجلس صاحب الباب في باب القصر المعروف بباب الذهب وهو أحد أبواب القصر ويقف بين يديه الحجاب والنقباء وينادي مناد: يا أرباب الظلامات فيحضر إليه أرباب الحوائج.

فمن كان أمره مما يشاقة به نظر في أمره بمن يتعلق من القضاة أو الولاة فيسير إلى ذلك كتاباً بكشف ظلامته.

فإن كان مع المتظلم قصة أخذها منه الحاجب فإذا اجتمع معه عدة دفعها إلى الموقع بالقلم بالقلم الدقيق فيوقع عليها ثم تحمل منه إلى الموقع بالقلم الجليل ليبسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق.

فإذا تكاملت حملت في خريطة إلى الخليفة فوقع عليها ثم أخرجت في الخريطة إلى الحاجب فيقف بها على باب القصر ويسلم لكل أحد توقيعه.

فإن كان في الدولة وزير صاحب سيف فإنه يجلس يومين في كل أسبوع في مكان معد له في القصر ويجلس قبالته قاضي القضاة وعن جانبيه شاهدان معتبران ويجلس في جانب الوزير الموقع بالقلم ويليه صاحب ديوان المال وبين يديه صاحب المال وأسفهسلار العساكر وبين أيديهما

النواب والحجاب على طبقاتهم وكان أجل الخدم صاحب الباب وهو من الأمراء المطوقين ثم الأسفهسلار وهو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد ثم حامل سيف الخليفة أيام الركوب ثم زمام الحافظية والآمرية وهما أجل الأجناد.

وكانت ولاية الأعمال أجلها ولاية عسقلان ثم ولاية قوص ثم ولاية الشرقية ثم ولاية الغربية ثم ولاية الإسكندرية.

وكان قاضي القضاة ينظر في الأحكام الشرعية فلما صارت الوزارة إلى أرباب السيوف كان يقلد القضاة نيابة عنه.

والقاضي أجل أرباب العمائم رتبة وتارة يكون داعي الدعاة وتارة تفرد الدعوة عنه.

ويجلس في يومي الثلاثاء والسبت بزيادة جامع عمرو بن العاص وله طراحة ومسند حرير والشهود حوله وله خمسة من الحجاب اثنان منهما بين يديه واثنان على باب المقصورة واحد ينفذ الخصوم إليه.

وله أربعة من الموقعين ودواته بين يديه على كرسي محلى بفضة يحمل إليه من الخزائن ولها حامل بجار سلطاني في كل شهر.

ويخرج إليه من إصطبل الخليفة بغلة شهباء وهي مختصة به دون غيرها ويكون عليها سرج محلى ثقيل وراويتان من فضة ومكان الجلد حرير.

وتخلع عليه الخلع المذهبة فيسير من غير طبل ولا بوق إلا أن يضاف إليه الدعوة فإنه يسير حينئذ بالطبل والبوق فإن ذلك من رسوم الداعي مع البنود.

فإن كان إنما خلع عليه لوظيفة القضاة فقط فإنه يسير بالعز أرجالاً حوله وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة أو الخليفة والوزير إن كان ثم وزير صاحب سيف ويركب معه يومئذ نواب الباب والحجاب ولا يجلس أحد فوقه ألبتة ولا يمكنه حضور جنازة ولا عقد نكاح إلا بإذن ولا يقوم لأحد من الناس إذا كان في مجلس الحكم ولا ينشئ عدالةً ألبتة إلا بإذن فلا تثبت إذا أذن له في إنشائها لأحد حتى يركيه عشرون عدلاً من عدول البلد بين مصر والقاهرة ويرضاه الشهود كلهم.

فإن كان في الدولة وزير سيف لا يخاطب حينئذ من يتولى الحكم بقاضي القضاة فإنه من نعوت الوزير.

ويصعد القاضي إلى القصر في يومي الخميس والاثنين بكرةً للسلام على الخليفة وله النواب وإليه النظر في دار الضرب لتحرير العيار.

ولا يصرف القاضي إلا بجنحة.

وكان في الدولة داعي الدعاة ورتبته تلي رتبة قاضي القضاة ويتزيا بزيه ولا بد أن يكون عالماً بمذاهب أهل البيت عليهم السلام وله أخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبه وبين يديه اثنا عشر نقيباً وله نواب في سائر البلاد.

ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم ويتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة يقرأ في كل يوم اثنين وخميس بعد أن تحضر مبيضته إلى داعي الدعاة ويتصفحه ويدخل به إلى الخليفة فيتلوه عليه إن امكن ويأخذ خطه عليه في طاهره.

ثم يخرج فيجلس على كرسي الدعوة بالإيوان من القصر فيقرؤه على الرجال ثم يخرج ليقرأه على النساء.

وله أخذ النجوى من المؤمنين بالأعمال كلها ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيحملها إلى الخليفة.

كان متولي ديوان الإنشاء يخاطب بالأجل ويقال له كاتب الدست وهو الذي يتسلم الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها.

والخليفة يستشيره في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيء متى جاء وهذا أمر لا يصل إليه غيره وربما بات عنده.

وجارية في كل شهر مائة وعشرون ديناراً مع الكسوة والرسوم ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص وله حاجب من الأمراء وفراشون ومرتبة هائلة ومخاد ومسند ودواة بغير كرسي وهي من أنفس الدوي ولها أستاذ من خدام الخليفة برسم حملها.

ولا بد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إلى علمه من كتابات وتجويد الخط ومعرفة الأحاديث وسير الخلفاء ونحو ذلك يجتمع به أكثر أيام الأسبوع وبرسمه أستاذ محنك يحضر فيكون ثالثهما فيقرأ ملخص السير ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق.

ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست ويكون صحبته دواة محلاة.

فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاساً فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثاني مرة.

وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق كما تقدم ويجلس حال التوقيع على طراحة ومسند وله فراشون من فراشي الخاص تقدم له ما يوقع عليه.

ويختص به موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن.

ورأس أصحاب دواوين المال من يلي النظر على الدواوين وله العزل والولاية وهو الذي يعرض الأوراق على الخليفة أو الوزير ويعتقل من شاء بكل مكان ويجلس بالمرتبة والمسند وبين يديه حاجب من أمراء الدولة وتخرج له الدواة بغير كرسي ويندب من يطلب الحساب ويحث في طلب المال ومطالبة أرباب الضمانات.

وكان لهم ديوان التحقيق ومقتضاه المقابلة على الدواوين ولمتوليه الخلع والرتبة والحاجب ويلحق بناظر الدواوين.

وديوان المجلس وفيه علوم الدولة وهو أصل الدواوين وفيه عدة كتاب لكل منهم مجلس معد ومعتاد.

وصاحب هذا الديوان هو الذي يتحدث في الإقطاعات ويخلع عليه وهو لاحق والتوقيع بالقلم الجليل يسمى الخدمة الصغرى ولمتوليها الطراحة والمسند بغير حاجب بل ويندب له فراش لترتيب ما يوقع عليه ولا يوقع الخليفة عليه بيده إذا كان وزيره صاحب سيف إلا في أربعة مواضع: إذا رفعت إليه قصة وقع عليها يعتمد ذلك إن شاء أو كتب بجانبها الأيمن يوقع بذلك فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس دون غيره فيوقع جليلا ويدخل بها إلى الخليفة ثانيا فيضع علامته عليها.

وكانت علامتهم كلهم الحمد لله رب العالمين ثم يخرج بها فتثبت في الدواوين.

أو يوقع في مسامحة أو تسويغ أو تحبيس ما مثاله: قد أنعمنا بذلك أو قد أمضينا ذلك.

فإذا أراد الخليفة الاطلاع على شيء وقع ليخرج الحال في ذلك فإذا خرج الحال عاد إليه ليعلم عليه فإن كان الوزير صاحب سيف وقع الخليفة بخطه: وزيرنا السيد الأجل واللقب المعروف به أمتعنا الله ببقائه يتقدم بإنجاز ذلك إن شاء الله.

فيكتب الوزير تحت خطه.

يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ثم يثبت في الدواوين.

ولديوان الجيش مستوف مسلم له غيرة ويجلس بطراحة لحركة العرض والحلي والشيات.

وفي هذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد فإذا عرض الجندي حلي وذكرت صفات فرسه ولا يثبت له إلا الفرس الجيد ولا يثبت له برذون ولا بغل ويقف بين يدي هذا المستوفي نقباء الأجناد لإنهاء أمور الأجناد وفسح للأجناد في آخر الدولة أن يقابض بعضهم بعضاً.

وديوان الرواتب فيه أسماء كل مرتزق في الدولة ضمن له جار وجراية وكاتبه يجلس بطراحة وتحت يده عشرة كتاب وترد إليه التعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر ومباشرة من يستجد وموت من مات ليوجب استحقاقه.

وفي هذا الديوان عدة عروض.

أولها: راتب الوزير وهو في الشهر خمسة آلاف دينار ولكل من أولاده وإخوته من ثلثمائة دينار إلى مائتي دينار.

وقرر لشجاع بن شاور خمسمائة دينار ولكل من حواشي من خمسمائة دينار إلى ثلثمائة وذلك سوى الإقطاعات.

وثانيها: حواشي الخليفة وأولهم الأستاذون المحنكون وهم: زمام القصر وصاحب بيت المال وحامل الرسالة وصاحب الدفتر وشاد التاج الشريف وزمام الأشراف الأقارب وصاحب المجلس ولكل منهم مائة دينار في الشهر.

ولمن يلي هؤلاء يتناقص عشرة وهكذا إلى من يكون جاريه عشرة دنانير.

وعدة هؤلاء ألف فما فوقها وهم خصيصون وللطبيب الخاص مائة دينار في الشهر ولعدة من الأطباء برسم أهل القصر كل منهم عشرة دنانير.

ثالثها: أرباب الرتب بحضرة الخليفة وأولهم كاتب الدست الشريف وجاريه في الشهر مائة وخمسون دينارا ولكل من كتابه ثلاثون ديناراً ولمتولي مجالسة الخليفة والتوقيع بالقلم الدقيق في المظالم مائة دينار ولصاحب الباب مائة وعشرون ديناراً ولكل من حامل السيف وحامل الرمح سبعون دينارا ولكل من أزمة العساكر والسودان مائتان وخمسون دينارا إلى أربعين ديناراً إلى ثلاثين ديناراً.

رابعها: قاضي القضاة وله في الشهر مائة دينار ولداعي الدعاة مائة دينار وكل من قرأ الحضرة من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر إلى عشرة دنانير

ولكل من خطباء الجوامع من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ولكل من الشعراء من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير.

خامسها: أرباب الدواوين وأولهم متولي ديوان النظر وله في الشهر سبعون ديناراً ولمتولي ديوان التحقيق خمسون ديناراً ولمتولي ديوان المجلس أربعون ديناراً ولصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارا ولكاتبه خمسة دنانير ولمتولي ديوان الجيش أربعون دينارا وللموقع بالقلم الجليل ثلاثون دينارا ولكل من أصحاب دواوين المعاملات عشرون دينارا ولكل معين عشرة دنانير وفيهم من له سبعة وخمسة.

سادسها: المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة الواليين لكل منهم خمسون دينارا ولحماة الأهراء والمناخات والجوالي والبساتين والأملاك لكل منهم من عشرين دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة.

سابعها: الفراشون برسم خدمة القصور ومنهم برسم خدمة الخليفة خمسة عشر منهم صاحب المائدة وحامي المطابخ وجاريهم من ثلاثين دينارا إلى ما حولها سوى الرسوم ويليهم الرشاشون ونحوهم وعدتهم ثلثمائة فراش مولاهم أستاذ وجاري كل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة.

ثامنها: صبيان الركاب وهم ينيفون على ألفي رجل ولهم اثنا عشر مقدما أكبرهم مقدمو الركاب ومقدم المقدمين منهم هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن ولكل من المقدمين في الشهر خمسون ديناراً.

وصبيان الركاب أربع جوق جوقة لكل منهم في الشهر عشرون ديناراً ويليهم من له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنانير وهم يندبون إلى الأعمال ويحملون المخلفات لركوب الخليفة في الأعياد والمواسم.

وكان لنقيب الأشراف اثنا عشر نقيبا ويخلع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء وله ديوان ومشارف وعامل ونائبه وجاريه في الشهر عشرون دينارا ولمشارف ديوانه عشرة دنانير ولنائبه في النقابة ثمانية دنانير وللعامل خمسة دنانير.

وللمحتسب عدة نواب بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوما بعد يوم وتطوف نوابه على أرباب المعايش.

ويخلع على المحتسب ويقرأ سجله على منبر جامع عمرو بن العاص.

وكانت لهم خدمة يقال لها النيابة ومتوليها يتلقى الرسل الواردين من الملوك وكانت خدمة جليلة لمتوليها نائب ومن خواصه أنه ينعت أبداً كل من يليها بغذي الملك وله النظر في دار الضيافة ويعرف هذا اليوم بالمهمندار.

وكان له في الشهر خمسون ديناراً وفي كل يوم نصف قنطار خبز مع بقية الرسوم.

وللخدمة في ديوان الصعيد عدة كتاب ولأسفل الأرض ديوان وللثغور ديوان وللجوالي ديوان وللمواريث ديوان ولديوان الخراجي والهلالي عدة دواوين منها ديوان الرباع وديوان المكوس وديوان الصناعة وديوان الكراع وفيه معاملات الإصطبلات وما فيها وديوان الأهراء وديوان المناخات وديوان العمائر ومحله بصناعة مصر لإنشاء الأسطول ومراكب الغلات السلطانية والأحطاب وكانت تزيد على خمسين عشارياً وعشرين ديماساً منها عشرة خاصة برسم ركوب الخليفة أيام الخليج والبقية برسم ولاة الأعمال تجرد إليهم وينفق عليها من الديوان وديوان الأحباس.

وكانت عادتهم إذا انقضى عيد النحر عمل الاستيمار ويثبت فيه جميع ما يشتمل عليه مصروف تلك السنة من عين وورق وغلة وغيرها مفصلا بالأسماء وأولهم الوزير حتى ينتهي إلى أرباب الضوء ثم يعمل في ملف حريري يشد له جوهر يشده وكان يبلغ في السنة ما يزيد على مائة ألف دينار عيناً ومائتي ألف درهم فضة وعشرة آلاف إردب غلة ويعرض على الخليفة فيستوعبه ويشطب على بعضه وينقص قوماً ويزيد قوماً ويستجد آخرين بحسب ما يعن له.

فيحمل الأمر على الشطب.

وعمل مرة في أيام المستنصر بالله فوقع بظاهره: الفقر مر المذاق والحاجة تذل الأعناق وحراسة النعم بإدرار الأرزاق فليجروا على رسومهم في الإطلاق.

" مَا عِنْدكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ ".

وكان من عادتهم إخراج الكسوة في كل سنة لجميع أهل الدولة من صغير وكبير في أوقات معروفة فبلغت كسوة الصيف والشتاء في السنة ستمائة ألف دينار ونيف.

وكانوا يتأنقون في المآكل حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم ينفق في كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم.

وكانوا يفرقون في أول كل سنة دنانير يسمونها دنانير الغرة تبلغ خمسمائة دينار في السنة فيتبرك بها من يأتيه منها برسوم مقررة لكل أحد.

وإذا أهل رمضان لا يبقى أمير ولا مقدم إلا ويأتيه طبق لنفسه ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة.

وكانت خلعهم ثمينةً جداً بحيث يبلغ طراز الخلعة خمسمائة دينار ذهبا ويختص الأمراء في الخلع بالأطواق والأساورة الذهب مع السيوف المحلاة ويتشرف الوزير عوضاً عن الطوق بعقد جوهر فكاكه خمسة آلاف دينار يحمل إليه ويختص بلبس الطيلسان المقور.

ولا يركب الخليفة إلا بمظلة منسوجة بالذهب مرصعة بالجوهر.

وسيأتي من إيراد خربات ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة إن شاء الله ما يعرفك مقدار ما كانوا فيه من أمور الدنيا وحقارة من جاء بعدهم.

فلله عاقبة الأمور.

ذكر ما عيب عليهم

لا شك في أن القوم كانوا شيعةً يرون تفضيل علي بن أبي طالب على من عداه من الصحابة وكانوا ينتحلون من مذاهب الشيعة مذهب الإسماعيلية وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتنقلها في أولاده الأئمة المستورين إلى عبيد الله المهدي أول من قام منهم بالمغرب.

وبقية الشيعة لا يقولون بإمامة إسماعيل وينكرون عليهم ذلك أشد الإنكار.

وكانوا مع انتحالهم مذهب التشيع غلاةً في الرفض إلا أن أولهم كانوا أكابر صانوا أنفسهم عما تحرف به آخرهم.

ثم إن الحاكم بأمر الله أكثر من النظر في العقائد وكان قليل الثبات سريع الاستمالة إذا مال إلى اعتقاد شيء أظهره وحمل الناس عليه ثم لا يلبث أن يرجع عنه إلى غيره فيريد من الناس ترك ما كان قد أهم به والمصير إلى ما استحدثه ومال إليه.

واقترن به رجل يعرف باللباد والزوزني فأظهر مذاهب الباطنية وقد كان عند أولهم منها طرف فأنكر الناس هذا المذهب لما يشتمل عليه مما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع.

فلما كانت أيام المستنصر وفد إليه الحسن بن الصباح فأشاع هذا المذهب في الأقطار ودعا الكافة إليه واستباح الدماء بمخالفته فاشتد النكير وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم عن الإسلام ونفوهم عن الملة.

ووجد بنو العباس السبيل إلى الغض منهم لما مكنوا من البغض فيهم وقاسوه من الألم بأخذه ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضا فنفوهم عن الانتساب إلى علي بن أبي

طالب بل وقالوا إنما هم من أولاد اليهود وتناولت الألسنة ذلك فملئوا به كتب الأخبار.

ثم لما اتصل بهم الغز ووزر لهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وهم من صنائع دولة بني العباس الذين ربوا في أبوابها وغذوا بنعمها ونشئوا على اعتقاد موالاتها ومعاداة أعدائها لم يزدهم قربهم من الدولة الفاطمية إلا نفوراً ولا ملأهم إحسانها إليهم إلا حقداً وعداوة لها حتى قووا بنعمتها على زوالها واقتدروا بها على محوها.

وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد وأنصارهم وأعوانهم قد ملئوا كل قطر وبلد فأحبوا طمس أنوارهم وتغيير منارهم وإلصاق الفساد والقبيح بهم شأن العدو وعادته في عدوه.

فتفطن رحمك الله إلى أسرار الوجود وميز الأخبار كتمييزك الجيد من النقود تعثر إن سلمت من الهوى بالصواب.

ومما يدلك على كثرة الحمل عليهم أن الأخبار الشنيعة لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام لا تكاد تجدها إلا في كتب المشارقة من البغداديين والشاميين كالمنتظم لابن الجوزي والكامل لابن الأثير وتاريخ حلب لابن أبي طي وتاريخ العماد لابن كثير وكتاب ابن واصل الحموي وكتاب ابن شداد وكتاب العماد الأصفهاني ونحو هؤلاء.

أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك ألبتة.

فحكم العقل واهزم جيوش الهوى وأعط كل ذي حق حقه ترشد إن شاء الله تعالى.

ذكر ما صار إليه أولادهم

ولما مات العاضد غسله ابنه داود وصلى عليه وجلس على الشدة واستدعى صلاح الدين ليبايعه فامتنع وبعث إليه: أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوص بأنك ولي عهده.

وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في سادس شعبان سنة تسع وستين وخمسمائة ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفر من حارة برجوان في العشر الأخير من شهر رمضان ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر وفرق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل.

وأغلقت القصور وتملكت الأملاك التي كانت لهم وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدين كثير منها وبيع بعضها.

وأعطى القصر الكبير لأمرائه فسكنوا فيه.

وأسكن أباه نجم الدين أيوب في اللؤلؤة على الخليج وصار كل من استحسن من الغز داراً أخرج صاحبها منها وسكنها.

ونقلوا إلى قلعة الجبل وهم ثلاثة وستون نفراً في يوم الخميس ثاني عشري رمضان سنة ثمان وستمائة فمات منهم إلى ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستمائة ثلاثة وعشرون.

وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين الطبنا أبو شعرة بن الدويك والي القاهرة.

قال المهدي أبو طالب محمد بن علي ابن الخيمي: وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة عوقبت بالقلعة فوجدت بها من الأشراف أربعين شريفاً وهم: الأمير سليمان بن داود ابن العاضد وأبو الفتوح بن العاضد وحيدرة بن العاضد وجبريل بن العاضد وعلي بن العاضد وعبد القاهر بن حيدرة بن العاضد وإسماعيل بن عيسى بن العاضد وعبد الوهاب ابن إبراهيم بن العاضد وأبو القاسم بن أبي الفتوح ابن العاضد وقمر بن علي بن العاضد ويحيى بن جبريل بن الحافظ وسليمان بن يحيى المذكور وتميم بن يحيى المذكور وعبد الله ابن أبي الطاهر بن جبريل وسليمان بن أبي الطاهر بن جبريل وأبو جعفر بن أبي الطاهر وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل وأبو الحسن بن أبي اليسر بن جبريل وأحمد ابن أبي اليسر بن جبريل وأبو الحسن بن أبي العباس حسن بن الحافظ وإبراهيم ابن عبد المحسن بن عبد الوهاب بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر ويونس ابن سليمان بن عبد الخالق بن أبي الحسن بن أبي القاسم وأبو اليسر بشارة بن عبد المحسن ابن أبي محمد بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر وجعفر بن موسى بن محسن ابن داود بن المستنصر وعلي بن سليمان بن أبي عبد الله بن داود بن المستنصر وأبو الفضل ابن عبد المجيد بن أبي الحسن بن جعفر بن المستنصر ويحيى بن صدقة بن شبل بن عبد المجيد بن أبي الحسن بن جعفر بن المستنصر وعبد الله كمال بن داود بن داود ابن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر وأبو علي بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر وسليمان بن عبد الصمد بن أبي عبد الله بن عبد الكريم بن أبي ايسر بن جعفر بن المستنصر وأبو علي بن عبد الصمد أخوه وعبد الكريم ابن إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر وعبد الغني بن أبي الرضا بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر وعبد الصمد بن سليمان بن محمد بن حيدرة بن عقيل ابن المستنصر وإسماعيل بن صدقة بن أبي اليسر بن

إسحاق بن المستنصر وأبو محمد ابن موسى بن عبد القادر بن أبي ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حولوا منها سنة إحدى وسبعين وستمائة.

هذا آخر ما وجد بخط مؤلفه عفا الله عنه آخر كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي.

من كتابة فقير رحمة الله محمد بن أحمد الجيزي الأزهري الشافعي لطف الله تعالى به وغفر ذنوبه وستر عيوبه والمسلمين أجمعين.

في سنة أربع وثمانين وثمانمائة.